عبد السميع المصري

في موكب الخالدين

عمر بن أبي ربيعة ..... جميل بن معمر
العباس بن الأحنف ..... ابن الرومي
الشريف الرضي ..... المتنبي
ابن زيدون ..... أبو القاسم الشابي
عبد الحميد الديب ..... إيليا أبو ماضي
أحمد شوقي ..... حافظ إبراهيم

١

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١١٧٤٧٠

حقوق الطبع محفوظة

مقدمة الناشر

على امتداد رقعة التاريخ تلمع أنوارٌ تأبى أن تخبو ، لأنها لمعت على الإنسانية بأبهى ضوء ، فبددت أشجانها ، ومسّت أجفانها بأحلام ساحرة ، وهدهدت نفوسها بأنغام آسرة ؛ ثم مضت من عالم الأجسام الزائل ، وصداها على خالد على الأحداث التى تمضى ثم تُنسى .

على امتداد رقعة التاريخ أسماء خلدت وخلد معها الأدب العربى الغنىّ بالثروة الأدبية الشعرية العجيبة التى يندر أن نجد أدباً من آداب العالم قد ظفر بتراث ضخم من هذه الثروة مثلما ظفر به هذا الأدب العربى الخالد .

ومهما كتب الكاتبون عن حياة الأدباء العرب ، ومهما درس الدارسون أدبهم ، فإن الكلام عنهم وعن أدبهم يتجدد دائماً فى كل درس أو بحث أو مقال ؛ لأنه يطيب فى السمع ، وتستروحه النفوس .

وفى هذا الكتاب الذى ننشره اليوم عرضٌ لحياة طائفة من الأدباء والشعراء العرب ، وإلماع إلى جهودهم الأدبية من خلال آثارهم ؛ بدأه المؤلف بالحديث عن ثلاثة من الشعراء الغَزِلين فى العصر الأموى هم : عمر بن أبى ربيعة ، وجميل بن مَعْمَر صاحب بثينة ، وكثيّر بن عبد الرحمن صاحب عَزَّة . وقد سلكهم المؤلف فى نسق واحد استهلّ به الكتاب ، ولعله حين قصد ذلك كان مدفوعاً برأى الدكتور طه حسين حين قال :

« إن الغَزَل العربى الخالص لم يوجد مرّتين ، وإنما وُجِد مرّة واحدة فى أيام بنى أميّة ، ولم يكن له قبل الإسلام وجودٌ مستقل ، ولم يكن الشعراء الجاهليون يعنون به إلّا على أنه وسيلة شعرية إلى ما كانوا يذهبون فيه من مذاهبهم الشعرية المختلفة . ولا نكاد نعرف بين الجاهليين شاعراً قصر حياته الشعرية على الغَزَل ، بل قليل جدًّا عدد القصائد التى لم يتناول فيها أصحابها إلا الغَزَل وحده[1] » .

ثم ينتقل المؤلف من العصر الأموى إلى العصر العباسى فيقدم لنا طائفة من شعرائه ، مثل : بشّار بن بُرْد ؛ ذلك الشاعر الذى قال عن نفسه :

قد عِشْتُ بين الندمان والراح والمِزْ   هَرِ فى ظلّ مجلسٍ حَسَنِ

فهو يصوِّر لنا فى هذا البيت حياة عصره حين أراد تصوير حياته هو ؛ يصوِّره فى لمحة خاطفة ، فيها الصدق كله ، كآلة التصوير حين تلتقط مشهداً من المشاهد .

ثم تمرُّ بنا فى هذا الكتاب كوكبة من الشعراء : العبّاس أبن الأحنف الذى ترنَّم بالحب العفيف ؛ وابن الرُّومى الشاعر الساخر ، كما سمّاه بعض المستشرقين ؛ والشريف الرضىّ شاعر الرقة ؛ ثم المتنبى ذلك الشاعر الذى شغل زمانه وترك فى سمع الزمان دويًّا هائلًا .

* * *

(١) حديث الأربعاء ٢ / ١٢٧ — ١٢٨ .

وينتقل بنا المؤلف إلى الأندلس — حيث كان للأدب العربى ازدهار — فيعرض علينا صوراً أخرى ؛ فنحن مع شاعر العاطفة والحب أبن زيدون الشاعر الوزير ، ثم مع صاحبته ولّادة بنت المستكفى ، وأبن زمرك الشاعر الملك ؛ حتى يبلغ بنا العصر الحديث ، فيقدم لنا طائفة من الشعراء أمثال جميل صدقى الزهاوى ومعروف الرصافى وأبى القاسم الشابى ، ثم مصطفى صادق الرافعى وعبد الحميد الديب والآنسة مىّ وإبراهيم ناجى وأحمد زكى أبى شادى وإيليا أبى ماضى ؛ لينتهى الموكب عند الشاعرين أحمد شوقى وحافظ إبراهيم .

* * *

ونحن إذ نقدم للقارئ هذا العرض الذى كتبه المؤلف نرجو أن نكون قد وضعنا بهذا الكتاب باقة من الزهر على أجداث هؤلاء الخالدين الذين سيظلُّ موكبهم مع موكب كثيرين ممّن لم يذكرهم المؤلف يلوح للأجيال على أمتداد رقعة التاريخ ماثلاً سمع الزمان أعْذَبَ ألحانه .

شاعر الغزل
عمر بن أبي ربيعة

وأنها حلفتْ بالله جاهدةً ... وما أهلَّ له الحُجَّاجُ واعتمروا
ما وافق النفسَ من شيءٍ تُسَرُّ به ... وأعجب العينَ ؛ إلا فوقه عُمَرُ

هكذا وصف أبو الخطاب عُمرُ بن عبد الله بن أبي ربيعة نفسه ، وهكذا عاش شاعر قريش — الذى انتزع لها قَصَب السبق فى الشعر على سائر العرب — وواسطة العقد فى كل مجلس ، وأحبّ سمير إلى كل معشر ؛ وأمضى حياته فى لهو ولعب ، وكان له منذ وُلد من نشأته وعصره . فلقد وُلد ليلة ٢٦ ذى الحجة ٢٣ هـ (٦٤٤ م) ، ليلة مقتل خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ، فسمّوه باسمه ، وكنّوه بكُنيته ؛ وعاصر شبابه شباب دولة بنى أمية التى استحدثت الملكية فى الإسلام ، وفاضت خزائنها بأموال الفيء ، واتسعت فتوحاتها حتى بلغت المحيطين شرقاً وغرباً ، وحبست الصحابة والأشراف فى المدينة ومكة ، وأغدقت عليهم الأموال اتقاء خروجهم ، وما قد يصحبه من فتنة .

وعُمر ؛ قد ورث عن أبيه أموالا طائلة وتجارة أعانته على حياته اللاهية وحفظت عليه مظاهر الأبهة والجاه ، حتى إنه لما تاب عن قول الشعر كان يعتق بكل بيت يقوله عبداً أو أَمَةً إلى أن وافاه أجَلُه عن سبعين عاماً ، فى أرجح الأقوال ، شاهَدَ خلالها ألواناً من الفتن والحروب التى ثارت فى أنحاء العالم الإسلامى ، بل كانت هى من أشد الفتن والثورات فلم يحفل بها ولم يتأثر ، بل عاش فى عالمه الخاص لا يسمع بتلك المعارك الدموية التى تثور فى كل يوم حتى قتلت زوجة المختار الأنصارية الجميلة التى أَبَت أن تذمّ زوجها فقال :

إنَّ من أعظم الكبائر عندى ... قَتْلَ حسناء غادةٍ عُطبولِ
قُتلتْ باطلاً على غير ذنبٍ ... إن لله درّها من قتيلِ
كُتِبَ القتلُ والقتالُ علينا ... وعلى المحْصنات جرُّ الذيولِ

أجل ! اهتزت مشاعر عمر للعدوان على الجمال ، فصاح يلوم المعتدين ويؤنبهم على فعلتهم التى تخالف العرف والْخُلق العربى الكريم .

ورغم أن عُمر قد تخصص فى ناحية من نواحى الشعر كانت بعيدة كل البعد عن أحداث عصره إلا أنها أكسبته شهرة واسعة ورفعت مكانة قريش حتى قال يعقوب بن إسحاق : « كانت العرب تقرُّ لقريش بالتقدم فى كل شىء عليها ، إلا فى الشعر فإنها كانت لا تقرُّ لها به ، حتى كان عمر بن أبى ربيعة ، فأقرّت لها الشعراء بالشعر ولم تنازعها شيئاً » .

ولقد اشتهر عمر بإجادة الوصف بأنواعه المختلفة ، ولو أن صوره الوصفية كثيراً ما جاءت ضمن قصائده الغَزَلية كقوله يصف نفسه وقد أقبل من سفره :

فقالت : نعم لا شَكَّ غيَّر لونَهُ ... سُرَى الليل يطوى نصَّهُ والتهجُّرُ
رأت رَجُلًا ، أما إذا الشمسُ عارضَتْ ... فيضْحَى ، وأما بالعَشِيّ فَيَخْصَرُ
أخا سَفَرٍ ، جوّابَ أرضٍ تقاذفَتْ ... به فَلَوَاتٌ فهو أشْعَثُ أغْبَرُ

أما وصف الجمال فلا شك فى أنه كان رسالته الأولى . فاستمع إليه يصف هذه الغادة البيضاء الممتلئة الذراعين والساقين :

خَدَلَّجَةٌ[1] إذا انصرفَتْ ... رأيت وشاحها قَلِقَا
وساقًا تملأُ الخلخَا ... لَ فيــه تراهُ مختنقَا

كما كان لأبن أبى ربيعة خيال واسع ، وروح كبيرة يضفى منها على صوره ،

(١) خدلجة : ممتلئة الذراعين والساقين .

فيحيلها نابضة بالحياة والحركة ، حتى الجماد يتحدث إليه ، ويسمع منه ، وهو يشكو ويعتب :

سائلا الرَّبْعَ بالبُلَيِّ وقولا هجت شوقاً لىَ الغداةَ طويلا

أين حيٌّ حلُّوك إذ أنتَ محفو ف بهم آهلٌ أراك جميلا ؟

قال : ساروا فأمعنوا واستقلوا وبرغمى ولو وجدت سبيلا

سئمونا وما سئمنا جواراً وأحبّـوا دمائةً وسهولا

أليس فى هذه الأسطر تعبيراً قوياً عن رقة مشاعر عمر ؟ إن شعوره مرهف حتى إنه ليذكر جياده فى شعره مراراً مُشفقاً عليها ، عاطفاً على آلامها كقوله وقد خرج يطلب ابنته أمَة الواحد :

لم تدْرِ وليغفرْ لها ربُّها ما جشَّمَتْنا أمَةُ الواحدِ

جشّمتِ الهـولَ براذينَنا نسأل عن بيت أبى خالدِ

وإن أفعاله تطابق أقواله فهو قد دفع أربعمائة دينار مهر عروس . . أدفعها عن حبيبها الفقير حتى يستطيع الزواج منها لما شكا إليه حبه فرقّ قلبه لشكاته .

بل إنه رغم عبثه واستهتاره شديد التأثر إلى درجة بعيدة ، سريع الانفعال حتى ليقول فى وداع إحدى صديقاته :

كدتُ يوم الرحيل أقضى حياتى ليتنى متُّ قبل يوم الرحيلِ

لا أطيق الكلام من شدة الخو ف ودمعى يسيل كلَّ مسيلِ

لكنه كذلك كان سريع النسيان ، غير عميق العاطفة لهذا الحزن ، لا يتلف عليه حياته . وهذه العاطفة لا تطيح بوجوده كما فعلت بالمجنون ، وقد قال معترفاً فى إحدى قصصه على لسان صاحبته :

أهذا سِحْرُكِ النسوا نَ ، قد خبَّرنني خَبَرَكْ
وقُلْنَ إذا قضى وطراً وأدرك حاجةً ، هَجَرَكْ

وجميع أخبار عمر تشير إلى أنه كان محترفاً للغَزَل ، مغرماً بمتابعة النساء بغية اللهو وصرف الوقت والسمر . وقد قال الدكتور طه حسين : « كان كل شيء فى حياة عمر وسيلة إلى الاتصال بالمرأة وذِكرها والتحدث إليها ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن عمر من هذه الناحية كان أعظم سمير عرفته المرأة فى تاريخ العرب . ولسنا نعرف رجلا من رجال العرب على الإطلاق روى له الرواة قصصاً وأخباراً لعب فيها الحديث والسمر هذا الدور الذى لعباه فى أخبار عمر ، ولسنا نعرف شعراً لشاعر عربى افتنّ فيه صاحبه بوصفه لحديثه للمرأة وحديثها إليه و إلى رفيقاتها افتنان عمر بوصفه لهذه الأمور فى شعره » .

و يؤيد هذا الرأى ما جاء فى الأغانى من أن عمر كان يقدم فيعتمر فى ذى القعدة ، و يحل و يلبس تلك الحلل والوشى ، و يركب النجائب المخضوبة بالحناء عليها القُطوع[1] والديباج ، و يُسْبِل لِمّته ، و يلقى العراقيات فيما بينه و بين «ذات عِرْق» مُحْرِمات ، ويتلقى المدنيات إلى « مَر » ، ويتلقى الشاميات إلى « الكُدَيْد » و يعترف عمر نفسه فى قوله :

صرمتُ وواصلتُ حتى عرفـ ـت أين المصادرُ والموردُ ؟
وجرَّبت من ذاك حتى عرفـ ـت ما أتوقَّى وما أحمدُ

وهو يعرض غزله فى صور مكشوفة أقرب إلى الفكاهة والمزاح كقوله فى إحدى قصائده :

ولمّا ألتقينا وأطمأنت بنا النَّوى وغُيِّب عنا من نخاف ونشفقُ
فقُمْنَ لكى يخلينا فترقرقَتْ مدامع عينيها وظلَّت تَدَفَّقُ

(١) القطوع : طنافس .

وقالت : أما ترحمننى ؟ لا تدعننى لدى غزل جم الصبابة يخرق[1]
فقلن اسكتى عنا فلست مطاعة وخلك عنا ـ فاعلمى ـ بك أرفق

وبعض شعره يوحى بأنه فسق رغم أدعائه الفقه ، وتواتر كثير من الأخبار على أنه عف الحب كقوله :

ثم أبدت إذ سلبت الـ ـمرط مبيضا هضيما
فلهونا الليل حتى هجم الصبح هجوما
قلن قد نادى المنادى وبدا الصبح فقوما
قمن يزجين غزالا فاتر الطرف رخيما
ولقد قضيت حاجا تى ولاقيت النعيما

أم تراها كانت أوهام شاعر وأحلاما يزكيها الحرمان ؟ لكن الشاعر رغم كل شيء كان له رأى فى الحب كعاطفة وشعور إنسانى من أرق المشاعر التى بدونها لا يصح أن يسمى الشخص إنسانا ، فهو يقول :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجرا من يابس الصخر جلمدا

كما نشتم من بعض قصائده جدية العاطفة وصدقها كقوله :

يا خليلى من ملام دعانى وألما الغداة بالأظعان
لا تلوما فى آل زينب إن الـ ـقلب رهن بآل زينب عان
ما أرى ما بقيت أن أذكر المو قف منها بالخيف إلا شجانى
لم تدع للنساء عندى حظا غير ما قلت مازحا بلسانى
هى أهل الصفاء والود منى وإليها الهوى فلا تعذلانى

ولعله شغف بزينب هذه ، فأطال ذكرها فى شعره ، وشرح لهفته عليها وتوكيد

---

(1) يحمق .

براءة حبه لها وصدقه ، حتى وصفها بأنها بعض نفسه التى بين جنبيه :

لا مُطاعٌ فى آل زينب فارجعْ ... أو تكلَّمْ حتى يملّ اللسانُ
كيف صبرى عن بعض نفسى وهل يصـ ... ـبر عن بعض نفسه الإنسانُ ؟
ولقد أشهدُ المحدَّث[1] عند الـ ... ـقَصْرِ فيه تعفُّف وبيانُ

وإنه ليتفجع تفجُّع مكلوم لفراقها :

ألِمْ بزينب إنّ البين قد أفِدَا ... قَلَّ الثواء لئن كان الرحيلُ غَدَا

وإن عمر يجيد التعبير عن مشاعر الحب فى قلبه فى لحظات الألم وساعات الفراق أكثر من ساعات اللهو . . تأمل معى هذين البيتين يصف فيهما هلعه لساعة الفراق ، وكيف يستنجد بصبره لتلك اللحظة المريرة .

زعموا بأن البينَ بعـد غدٍ ... فالقلبُ ممـا أزمعوا يَجِفُ
تشكو وأشكو مما أجـدَّ بنا ... كلٌّ لوَشْكِ البين[2] يعترفُ

ولقد امتاز عصر ابن أبى ربيعة بنهضة فنية فى الغناء والموسيقى لم يُعرف لهـا مثيل من قبل عند العرب ، وانتشر المغنون فى الحجاز لا سيما من جوارى الفىْ ، وعرفت مجالس الطرب والغناء لا يكمل إلا بالشعر . لذا كثرت ملازمة المغنين للشعراء ، كما أحبَّ الشعراء أن يطرب بشعرهم المغنى بدلا من أن يسير الحادى به ولقد أقبل المغنُّون على شعر عُمر لما امتاز به من سهولة التعبير ودقة الوصف كقصيدته فى فاطمة بنت عبد الملك التى قال فيها :

ضاقَ الغداةَ بحاجتى صدرى ... ويئستُ بعـد تقارُبِ الأمرِ
وذكرت فاطمة التى عُلِّقتها ... عَرَضاً فيا لحوادث الدهرِ
وكأن فاها عنـد رقدتها ... تجرى عليـه سلافة الخمرِ

(١) مكان التحدث .
(٢) يصطبر .

فَسَبَتْ فؤادى إذ عَرَضَتُ لها يوم الرحيلِ بساحة القصرِ
حتى لقد قالوا وما كذبوا أَجُنِنْتَ أم بك داخل السحرِ ؟

* * *

ولقد امتاز ابن أبى ربيعة إلى جانب ذلك بملكة قصصية وقوة ملاحظة شديدة أعانتاه على دقة الوصف وذكر حوادث قصصه مفصّلة كأحسن ما يكون كاتب قصة . وقصص عمر متعددة تملأ أجزاء ديوانه سنخصها بحديث خاص .

القصص

فى

ديوان ابن أبى ربيعة

القصص من أحب ألوان الفنون إلى الناس ومن أقدمها لما فى طبيعة البَشَر من حب استطلاع أخبار بعضهم بعضاً ، ولقد ظهر القصص أول ما ظهر شعراً ؛ لأن الشعر كان أسبق للوجود من النثر ، فسجّله المصريون القدماء فى معابدهم وطقوسهم الدينية ، ثم اليونانيون فى ملاحمهم الشعرية كالإلياذة والأوديسه ، كما كان هناك بين العرب قوم تخصصوا فى حفظ أخبار أحياء العرب وأنسابهم . لكن التاريخ لم يحفظ لنا ملاحم من الشعر العربى كتلك التى خلفها الإغريق ، إلا أن الشعر الذى وصلنا فيه الكثير من فنون القصة . ولقد اشتهر عمر بن أبى ربيعة بأنه أعظم سمير عرفته المرأة العربية وأحبّت حديثه وسَمَره ، ولا شك أن أحب شىء إلى قلب المرأة هو أن تسمع أخبار أعدائها وأصدقائها ، ولا شك عندى فى أن عمر قد استطاع أن يُرضى هذه الناحية فى قلب صديقاته بما حَبَاه الله من مَلَكة قصصية وقوة ملاحظة أعانتاه على دقة الوصف وتفصيله . وإذا كانت الكتب لم تحفظ لنا شيئاً يُذكر من أحاديث عُمر كما أن ديوانه قد فَقَد الكثير من شعره فإن ما تبقّى من شعر عُمر فيه الكفاية لإثبات صحة ما ذهبنا إليه .

فاستمع إليه يصف فى دقة كأحسن ما يكون كاتب قصة كيف تسلّل ذات ليلة إلى مكان صاحبته الذى بالغوا فى إخفائه وأحاطوه بالقباب المتشابهة والحرّاس الأشداء الذين غلبهم النوم على أمرهم بعد طول سَمَر وسهر :

يا خليلىّ شَفّنى الذِّكَرُ   وحمول الحىّ إذْ صَدَرُوا

ضربوا حصر القباب لها وأديرَتْ حولها الحجَرُ
سلكوا شعب النقاب بها زُمَرًا تحتثها زُمَرُ
وطرقت الحىَّ مكتتما ومعى عضبٌ[1] به أثَرُ
وأخ لم أخش نَبْوَتهُ بنواحى أمرهم خبرُ
فإذا ريمٌ على فُرُشٍ فى حجال[2] الخزّ مختدرُ
حوله الأحراس ترقُبُهُ نوَّمٌ من طول ما سهروا
شَبَهُ القَتْلَى وما قتلوا ذاك إلا أنهم سمروا

والحوار السهل الممتع الذى ينساب كالجدول الرقراق فى تسلسل و نظام يعرض القصة فى يسر ولطف شائع كثير فى شعر عمر ، وهو يجريه أحيانا بينه و بين صاحبته فقط ، أو بين جماعات من الأصدقاء ، أو بين النساء و بينه ساعات اللهو والسمر .

لنستمع هذه القصة بين عمر وزينب التى شجّعته على مغازلتها ، ثم تظاهرت بالصد ، لكنها عادت أخيرًا لعُمر :

تَصَابَى القلبُ وادَّكَرَا صِبَاهُ ولم يكن ظَهَرَا
لزينب إذ تجِدُّ لنا صفاءً لم يكن كَدرا
أليست بالتى قالت لمولاةٍ لها ظهرا
أشيرى بالسلام له إذا هو نحونا خَطَرَا ؟
لقد أرسلتُ جاريتى وقلت لها : خُذى حَذَرا
وقولى فى ملاطفةٍ لزينب نوِّلى عُمَرا
فهزَّت رأسها عجباً وقالت : مَنْ بِذَا أَمَرا ؟
أهذا سِحْرُك النسوا ن ؟ قد خبَّرْتَنِى الخَبَرا

---

(١) سيف .
(٢) جمع حجلة : أى قبة .

وهذه قصة أخرى من غانية شغف بها فاحتال برسول إليها ، ولقيها فى سرب من لِدَاتها اللاتى تفرقن عنهما لِمَا أدركنه من شغف كل منهما بصاحبه . وفى هذه القصة يُجرى عمرُ الحوار بينه و بين صاحبته و بينها و بينهن ، ثم حديث صامت بينه و بينهن جميعاً ، فلنصغ إليه :

جَرَى ناصحٌ بالوُدّ بينى و بينها ... فقرّبنى يوم الحِصَابِ إلى قَتْلِى[1]

فطارت بحَدّ من فؤادى وقارنتْ ... قرينتُها حبلَ الصفاء إلى حبلى

فلما تواقَفْنا عرفتُ الذى بها ... كمثل الذى بى حَذْوَكَ النعلَ بالنعلِ

فقُلْنَ لها هذا عِشَاءٌ وأهلُنا ... قريبٌ ألمـَّا تسأمى مركب البَغْلِ ؟

فقالت : فماشِئْنَ ؟ قُلْنَ لها : أنزلى ... فَلَلأرضُ خيرٌ من وقوفٍ على رَحْلِ

نجومٌ دَرَارِىٌّ تـكنَّفْنَ صورةً ... من البَدْرِ وافَتْ غَيْرَ هُوجٍ ولا عُجْلِ

فسلَّمْتُ واستأْنست خِيفةَ أن يَرَى ... عدوٌّ مُقَامى أو يرى كاشحٌ فعلى

فقالت وأرْخَتْ جانب الستر إنما ... معى فتـكلَّم غير ذى رِقبةٍ أهلى

فقلت لها : ما بى لهم من ترقُّبٍ ... ولـكنّ سِرِّى ليس يحملهُ مثلى

فلمـا اقتصرنا دونهنّ حـديثَنا ... وهنّ طبيباتٌ بحاجة ذى الشَّـكلِ[2]

عرفن الذى تَهْوَى فقُلنَ أئذنى لنا ... نطُفْ ساعةً فى بَرْدِ ليلٍ وفى سَهْلِ

فقالت : فلا تلبثْنَ . قُلْنَ : تحدَّثى ... أتيناكِ . وانْسَبْنَ أنسياب مَهَا الرملِ

فقمن وقد أفهمن ذا اللبِّ أنمـا ... أتين الذى يأتين من ذاك من أجْلى

وقد تحوى القصيدة قصة مكتملة التركيب الفنى من موضوع وحوادث مسلسلة تؤدى إلى الخاتمة الطبيعية المحبوكة بعد عرض للأحداث ووصف للمشاعر ومفاجآت تأخذ باللب .

---

(١) موضع رمى الجمار .

(٢) دل المرأة وغزلها .

ومن أمثلة هذا القصص ما يروى من أنه « كان يهوى امرأة يقال لها أسماء فكان الرسول يختلف بينهما زمناً وهو لا يقدر عليها ثم وعدته أن تزوره فتأهب لذلك وانتظرها فأبطأت عنه حتى غلبه النوم وكانت عنده جارية له تخدمه فلم تلبث أسماء أن جاءت ومعها جارية لها فوقفت حجرة[1] وأمرت الجارية أن تضرب الباب فلم يستيقظ ، فقالت لها : تطلعى فانظرى ما الخبر ؟ فقالت لها هو مضطجع و إلى جنبه امرأة فحلفت لا تزوره حولا فبعث إليها امرأة كانت تختلف بينه و بين معارفه وكانت جزلة[2] من النساء فصدقتها عن قصته وحلفت لها أنه لم يكن عنده إلا جاريته فرضيت » . وفى ذلك يقول :

طالَ لَيْلِى وتعنّانى الطَّرَبْ ... واعترانى طولُ هَمٍّ ووَصَبْ
أرْسَلت أسماء فى مَعْتَبَةٍ ... عَتَبَتْها وهى أحْلَى مَنْ عَتَبْ
أنْ أتَى منها رسولٌ مُوهِناً[3] ... وجد الحىَّ نياماً فانْقلَبْ
ضَرَبَ البابَ فلم يشعر به ... أحدٌ يفتح باباً إذ ضَرَبْ
قال : أيْقَاظٌ ولكن حاجةٌ ... عَرَضَتْ تُكْتَمُ هنّا فاحتجبْ
ولَعَمْداً رَدَّنِى فاجتهدتْ ... بيمين حَلْفَةً عند الغَضَبْ
يشهد الرحمنُ لا يجمعُنا ... سقفُ بيتٍ رَجَباً بعد رَجَبْ
قلتُ حِلاًّ[4] فاقبلى مَعذرتى ... ما كذا يجزى محبٌّ مَنْ أحب
إن كفّى لكِ رهنٌ بالرضا ... فاقبلى ياهند ، قالت : قد وَجَبْ

ونختتم حديثنا بهذه القصة يرويها عمر عن نفسه وفيها تصوير لطيف لروح اللهو والمرح التى كانت سائدة بين شباب عصره لاسيما أهل الجاه والشرف منهم نساء ورجالا وفيها يقول : « بينا أنا منذ أعوام جالس إذ أتانى خالد الخريت

---

(١) ناحية .
(٢) العاقلة .
(٣) الموهن : نحو من نصف الليل .
(٤) استثنى فى حلفك .

فقال لى يا أبا الخطاب مرت بى أربع نسوة قبيل العشاء يردن موضع كذا وكذا لم ير مثلهن فى بدو ولا حضر فيهن هند بنت الحارث المرية فهل لك أن تأتيهن متنكرا فتسمع من حديثهن وتتمتع بالنظر إليهن ولا يعلمن من أنت فقلت له : ويحك ! وكيف لى أن أخفى نفسى ؟ قال : تلبس لبسة أعرابى ثم تجلس على قعود ثم ائتهن فسلم عليهن فلا يشعرن إلا بك قد هجمت عليهن . ففعلت ما قال وجلست على قعود ثم أتيتهن فسلمت عليهن ثم وقفت بقربهن ، فسألننى أن أنشدهن وأحدثهن فأنشدتهن لكثير وجميل والأحوص ونصيب وغيرهم . فقلن لى : ويحك يا أعرابى ما أملحك وأظرفك لو نزلت فتحدثت معنا يومنا هـذا ، فإذا أمسيت انصرفت فى حفظ الله . فأنخت بعيرى ، ثم تحدثت معهن وأنشدتهن ، فسررن بى وجذلن بقربى وأعجبهن حديثى . . قال : ثم إنهن تغامزن وجعل بعضهن يقول لبعض : كأنا نعرف هذا الإعرابى ما أشبهه بعمر بن أبى ربيعة ! فقالت إحداهن : هو والله عمر ! فمدت هند يدها فانتزعت عمامتى فألقتها عن رأسى ثم قالت لى : هيه يا عمر ! أتراك خدعتنا منذ اليوم ؟ بل نحن والله خدعناك واحتلنا عليك بخالد فأرسلناه إليك لتأتينا فى أسوأ هيئة ونحن كما ترى . قال عمر : ثم أخذنا فى الحديث وحادثتهن ساعة ثم ودعتهن وانصرفت » . وإليكم بعض ما قال من شعر فى هذه الحادثة :

ألم تسألِ الأطلالَ والمتربَّعا	ببَطْنِ حُلَيَّاتٍ دَوَارِسَ بَلْقَعَا ؟
إلى السَّفح من وادى المغمَّس بُدِّلت	مَعَالِمُهُ وبلاً ونكباء زَعْزَعَا
لهندٍ وأتراب لهنــدٍ إذِ الهوى	جميعٌ وإذْ لم نَخْشَ أنْ يتصدَّعا
وإذْ نَحْنُ مثل الماء كان مِزاجُه	كما صفَّق[1] الساقى الرحيقَ المُشَعْشَعَا
وإذْ لا نُطيعُ الكاشحين ولا نرى	لواشٍ لدينا يطلب الصَّرْمَ موضِعاً
فلما تواقَفْنا وسلَّمتُ أشرقَتْ	وجوهٌ زَهَاهَا الْحُسْنُ أن تتقنَّعا

(١) مزج .

تبالَهْنَ بالعِرفان لمّا عرَفْنَنى   وقُلْنَ امرؤٌ : باغٍ أَكَلَّ وأوضعا
وقرّبْنَ أســباب الهوى لمتيَّمٍ   يقيس ذراعاً كلما قِسْنَ إصْبَعا

ولقد كانت هند هذه مصدر وَحْيٍ لعُمر فى كثير من أعماله لطول علاقته بها ، وشدة ما عانى فى حبها ؛ حتى إنه تفلسف فى حبها وقال فيها شعراً جرى مجرى الأمثال ، كقوله :

حَسَدًا حُمِّلْتُهُ مِنْ أجلها   وقديماً كان فى الناس الحَسَدْ

أو ذهب مذهب الحِكَم كقوله :

إن جَفَتْنِى اليوم هِنْدٌ   بعــــد وُدٍّ واقترابِ
فسبيل الناس طُـــرًّا   لفنـــاء وذهـــابِ

وإنى لأرضى من بُثَيْنَةَ بالذى　　لو أبصره الواشى لقرّت بلابله
بلا وبألا أستطيع وبالمُنى　　وبالأمل المرجوّ قد خاب آمله
وبالنظرة العَجْلَى إذ الحول ينقضى　　أواخره لا نلتقى وأوائله

هكذا عرف الحب جميل بن مَعْمَر إمام الشعراء العُذريين الذين ترسّم جميل خطاهم فى حياته . وعذرة التى يُنسب إليها هذا اللون من الحب قبيلة كانت لها أعمال مجيدة فى أيام العرب ، وكان رجالها من أفصح الناس[1] ، واشتهر عشّاقها بالموت فى سبيل حبيباتهم . وقد قال أحدهم يصف قومه : « فى نسائنا صباحة وفى فتياننا عفة[2] » .

فكان هؤلاء الفتيان ضحايا لتلك الصباحة التى مزّقت أكبادهم ، وبددت أحلامهم ، وأفنت من شباب القبيلة العدد الكبير .

أما هؤلاء الشعراء العذريون[3] فقد نشئوا فى صدر الإسلام الأول وقت توالى الفتوحات وكثرة الخيرات وأموال الفىء ، لكنهم ربوا فى البوادى وعزفوا عما كان زملاؤهم الشعراء غارقين فيه من فنون المدح والهجاء واللهو والمجون ، ونزهوا شعرهم عن تلك الفنون الرخيصة التى يستجدى بها الشعراء الرِّفد والصلات .

وبينما كان ابن أبى ربيعة سادراً فى غيّه يطلع على الناس كل يوم بحب جديد ، كان ابن معمر عاكفاً على حبه يقدس محبوبته ويتصوف بأوراد ذكرها ؛ حتى إذا ما وافاه أجله عام ٨٢ هـ (٧٠١ م) فى مصر التى لجأ إليها يطلب العون من واليها

(١) الحب العذرى لموسى خليل .
(٢) مصارع العشاق .
(٣) هم جميل وقيس بن ذريح وعروة بن حزام وقيس بن الملوح .

عبد العزيز بن مروان الذى منحه الحماية وأعطاه بيتاً لم يطل به المقام فيه . . . صرخ قائلا :

صـــدع النعىّ وما كنى بجميل وثوى بمصر ثَواء غير قُفُولِ

و يحمل الرجل قميصه إلى بُثَيْنَةَ بالحجاز ليخبرها وصيّته التى لم تزد على أن اسمها كان آخر ما هتف به عند موته ، فتلطم وجهها وهى تقول :

و إن سلوّى عن جميلٍ لساعةٌ من الدهر لا حانت ولا حان حينُها

سواء علينا يا جميل بن مَعْمَرٍ إذا متّ بأساء الحياة ولينُها

ولقد استعدّ جميل لرسالته فى عالم الشعر « فكان راوية هُدْبة بن خَشْرم ، وكان هدبة شاعراً راوية للحُطَيْئة ، وكان الحطيئة شاعراً راوية لزُهَير[1] » أى أنه تخرّج فى مدرسة شعرية مشهورة التاريخ فى قوة الأسلوب والحرص على المعانى إلى جانب استعداد فطرى من مشاعر رقيقة ، ونفس حساسة ، ووجدان مرهف ، وحب قضى دهره فى الترنم بمزاميره مما غلب الموسيقى على شعره .

و إنه لصادقُ الحب لبثينة ، لا يلتفت إلى أحد سواها ، وهو يقسم لها بذلك قائلا :

حلفتُ لـكيما تعلمينى صادقاً وللصدقُ خيرٌ فى الأمور وأنجحُ

لرُؤْيةُ يومٍ واحدٍ من بثينةٍ ألذُّ من الدنيا لدىّ وأملحُ

بل يعرض عمن سواها ، وكنّ كثيرات حوله لِمَا كان يتمتع به من جمال الخلقة وقوة الشـكيمة والشجاعة والفروسية ، لـكن كل مظاهر القوة كانت تتحول إلى رقة بالغة وعذوبة محببة ، وهو يشرح لبثينة حبه وما يتحمله فى سبيله ، وما يقاومه من إغراء ، وما يفعله من أجلها من مغاضبة الناس . . كل ذلك فى شعر بالغ الروعة :

ولباطلٌ ممن أحب حديثـــه أشهى إلىّ من البغيض الباذلِ

(١) الأغانى .

صادت فؤادى يا بثين حبالكم ... يوم الحَجون وأخطأتك حبائلى

منّيتنى فلويتِ ما منّيتنى ... وجعلت عاجلَ ما وعدتِ كآجلِ

وتثاقلت لما رأت كَلَفى بها ... أحببْ إلىَّ بذاك من متثاقلِ

وأطعتِ فىَّ عواذلاً فهجرتنى ... وعصيتُ فيك وقد جهدن عواذلى

حاولننى لأبُتَّ حبلَ وصالكم ... منى ولست وإنْ جهدن بفاعلِ

فرددتُهُنَّ وقد سَعَيْنَ بهجركم ... لما سَعَيْنَ له بأفْوَقَ ناصلِ

يعضَضْنَ من غيظٍ علىَّ أناملاً ... ووددتُ لو يعضضن صمَّ جنادلِ

ويقلن إنك يا بثين بخيلةٌ ... نفسى فداؤك من ضنينٍ باخلِ

تأمل معى هذه السلاسة فى اللفظ ، وهذه الرقة فى التعبير ، وهذه البساطة فى الحديث المرسل على الفطرة الربانية دون تعقيد أو تصنع .

إن هذه المزايا الفريدة إلى جانب صدق العاطفة الذى يلهب القصد بمشاعره وضع جميلاً فى مقدمة الشعراء الغزليين . . . استمع إليه يتحدث عن هواه الذى يكاد أن يزهقه :

إنى لأحفظ غيبكم ويسرُّنى ... إذ تذكرين بصالح أن تذكرى

ويكون يومٌ لا أرى لك مُرْسَلاً ... أو نلتقى فيه علىَّ كأشهُرِ

يا ليتنى ألقى المنيةَ بغتةً ... إن كان يوم لقائكم لم يُقْدَرِ

أو أستطيع تجلداً عن ذكركم ... فيفيق بعض صبابتى وتفكرى

لو قد تُجِنُّ كما أُجِنُّ من الهوى ... لعذرتَ أو لظلمتَ إنْ لم تعذرِ

لا تحسبى أنى هجرتك طائعاً ... حَدَثٌ لعمرُكِ رائعٌ إن تهْجَرى

يهواك ما عشتُ الفؤادُ فإن أمتْ ... يتبع صداىَ صداك بين الأقبرِ

لكنه رغم كل هذا الإخلاص والصدق مضطهد لا تستقرُّ به الأرض ، مهدر

دمه ، وهو يختلى إلى نفسه فى مخابئه يتأمل قوة الدنيا ، و يتحدث فى دهشة الأطفال و براءتهم عما أصابته به :

ألا ليت شعرى هل أبيتنّ ليلةً بوادى القُرى ؟ إنى إذنْ لسعيدُ
وهـل ألقَيَنْ فرداً بثينةَ مرّةً تجود لنا من ودّها ونجودُ ؟
علقتُ الهوى منها وليداً فلم يزل إلى اليوم ينمى حبها ويزيدُ
وأفنيتُ عمرى بانتظارىَ وعدها وأبليتُ فيها الدهرَ وهو جديدُ
فلا أنا مردودٌ بما جئت طالباً ولا حبهـا فيما يبيدُ يبيـدُ

وقد غنى من شعر جميل تسعةوعشرون صوتاً ، ولهذه الإشارة مدلول فهى تشهد لشعره بالموسيقية وتبين كيف كانت أشعاره من أفراح الحياة فى تلك العهود. بينما كان هو يعانى من حب صاحبته بثينة التى لقيها فى يوم من أيام الأعياد فهويها ، لـكن شاءت الظروف أن تقترن بسواه ، فلم يزده الأمر إلا فتنة وجنوناً بها ؛ حتى صدر أمر السلطان بإهدار دمه ، فسافر إلى اليمن مرة ، و إلى الشام مرة ، وهو دائماً محل سخط قومه وقومها ؛ فهم معاتبوه ولائموه على هيامه بامرأة مبذولة لرجل يملك من أمرها كل شيء ؛ ومن الذل والمهانة للرجل الحر أن يخضع لمخلوقة تعيش فى كنف غيره . وكان هو يعلم سوء ما صار إليه ، لـكنه لا يملك من أمر قلبه شيئاً ؛ ومن منا يملك من ذلك شيئا ؟ ولقد تعذّب جميل من أجل ذلك القلب الصادق الصبابة حتى إذا ضاقت عليهالأرض بما رحبت سافر إلى مصر وهو مشفق من فراق بثينة . وكأنى بقلبه قد أبصر المصير المقضى بعين بصيرته فهو فى هلع من الموت بعيداً عنها . . إن ما يتمناه بعد كل هذا الحب أن يسعد وتقرّ روحه بمجاورة قبرها :

فسوف يُرَى منها صدودٌ ولم تـكن بنفسى من أهل الخيانة والغدر
أعوذ بك اللهمّ إن تشحط النوى بثَيْنَةَ فى أدنى حياتى ولا حشرى
وجوِرْ إذا ما متُّ بينى و بينها فيا حبّذا موتى إذا جاوَرَتْ قبرى

لقد شغفت نفسى بثينَ بذكركم ... كما شغف المخمور يا بثْنَ بالخمْرِ

ولم تخل قصة جميل من آلام أخرى فهى قد أحبّت رجلا آخر اسمه حُجْنَة الهلالى ، فحلّ بينهما الجفاء أياماً كانت من أشد الأيام هولاً على جميل ، وقد مضى ذلك الهوى الطارئ سريعاً ، وعادت بثينة إلى هواها الفرد . ويحكى جميل عن هذا الفراق :

لقد خِفْتُ أن يغتالنى الموتُ بغتةً ... وفى النفس حاجاتٌ إليك كما هيَا
وإنى لتثنينى الحفيظة كلّما ... لقيتك يوماً أن أُبثّك ما بيَا
ألم تعلَمِى يا عذبة الريقِ أننى ... أظلُّ إذا لم أُسْقَ ريقَكِ صاديا

إنه لتعبيرٌ ساذج لطيف عن شدة تعلُّقه ببثينة وصدق الصبابة والعشق الذى سلّم به جميع النقاد القدماء لجميل ، وإنه ليعبر عن هذا الوجد الذى يجده فى قصيدة أخرى وعن قصور حيلته إزاءه وضعفه ، وهو الذى لم يعبأ بالقتل ولا بالتهديد ، وهو الذى اشتهر بالقوة والشجاعة والإقدام فى المعارك . . . إنه يبكى من حبه :

لقد فرح الواشون أنْ صَرَمتْ حبلى ... بثينةُ أو أبدت لنا جانبَ البُخْلِ
يقولون : مهلاً يا جميل ! وإننى ... لأُقسم مالى عن بثينة من مهلِ
أحلماً فقبل اليوم كان أوانه ... أم أخشى فقبل اليوم هددت بالقتل
إذا ما تراجَعْنا الذى كان بيننـــا ... جَرَى الدمع من عينىَ بثينة بالكحلِ
كلانا بكى أو كاد يبكى صبابةً ... إلى إلفِهِ واستعجلت عبرةً قبلى
فلو تركت عقلى معى ما طلبتُها ... ولـكن طِلَابيها لِما فات من عقلى
فياويح نفسى حسب نفسى الذى بها ... وياويحَ أهلى ما أصيب به أهلى
خليـــلىَّ فيما عشتما هل رأيتما ... قتيلًا بكى من حب قاتلِهِ قَبْـلِى ؟

وما كان الحب لدى جميل عارضاً ينقضى ، بل كان غاية فى ذاته ، بل محور حياته التى فرغ فيها للحب بعيداً عما شغل به معاصروه من الشعراء كابن أبى ربيعة الذى كان يتخذ من الحب وسيلة لإزجاء الفراغ أو للمباهاة أو اللهو .

إن فراغ جميل وإخوانه من الشعراء العذريين للحب لم يكن مضيعة بل كان كسباً لهم وللدنيا ، فهم قد خلدوا بأجمل أشعار الحب ، وخلفوا للدنيا واحات من الشعر والعاطفة السامية أقدس العواطف البشرية طراً . . وهل أبلغ على جدية هذه المشاعر من تخيل جميل أن الحب نوع من أنواع الجهاد ، وأن قتيل الحب شهيد لا يقل أجراً عن شهيد الجهاد فى سبيل الله :

يقولون جاهدْ يا جميلُ بغزوةٍ   وأىَّ جهادٍ غيرهن أريدُ
لكل حديث عندهنّ بشاشةٌ   وكل قتيل بينهن شهيدُ

وهو يرى الحب نوعاً من العبادة والتصوف يحمله على السفر أياماً إليها بدون أن يتذوق زاداً من طعام ، بل كان زاده الحب وروح الحبيب التى تتمثل له فى كل لحظة من لحظات الحياة فهل إذا قال جميل بعد ذلك :

ذكرت مُقامى ليلة البان قابضاً   على كف حوراء المدامع كالبدرِ
فكدتُ ولم أملك إليها صبابةً   أهيم ، وفاض الدمع منى على النحرِ
فياليت شعرى هل أبيتنّ ليلة   كليلتنا حتى نرى ساطع الفجرِ ؟
تجود علينا بالحديث وتارةً   تجود علينا بالرُّضاب من الثغرِ

يدعونا هذا الشعر إلى الشك فى عذرية جميل؟ إن جميلا بَشَر ، ولو أنه لم يذكر حبيبته ، ويتمنى أن تكون له كما يتمنى الرجل المرأة لخرج عن نطاق البشرية ؛ لكن يكفى جميلا فخراً وشرفاً أنه جاهد حيوانيته وغرائزه وحافظ على حبيبته وطهّر حبه ، وكابد فى هذه السبيل ما أورده موارد الهلاك .

لها فى سواد القلب بالحب مَيْعَةٌ ... هى الموت أو كادت على الموت تُشرفُ

وما ذكرتكِ النفسُ يا بَثْنَ مرةً ... من الدهر إلا كادت النفس تتلفُ

وإلا اعترتنى زفرةٌ واستكانة ... وجاد لها سَجْلٌ من الدمع يذرفُ

وما استطرفت عينى حديثاً نُخلِّةٍ ... أسرُّ به إلا حديثك أطرفُ

وما زال يسائلنا عن سر هذه الآلام :

ألا أيها النوّام ويحكم هبُّوا ... نسائلكم : هل يقتل الرجلَ الحبُّ؟

كثير

نشأ أبو صخر كُثَيِّر بن عبد الرحمن بن الأسود فى العصر الأموى ، فكان آخر راوية بين الشعراء ، وكان راوية لجميل بن مَعْمر فاقتفى أثره فى الشعر العذرى وفى ترسم منهج مدرسته الشعرية التى عنيت بقوة الأسلوب والحرص على المعانى وحمل مشعل المدرسة من بعد جميل حتى وافاه أجله عام ١٠٥ هـ فى ولاية يزيد ابن عبد الملك .

وكان هو وأستاذه يتنازعان زعامة الشعر فى عصرهما ، لكنهما كانا يرعيان حق الإخاء ، ويثنى كلٌّ منهما على صاحبه ؛ فقد جاء فى الأغانى أنهما التقيا فتذاكرا النسيب فقال كثيِّر : يا جميل أترى بثينة لم تسمع بقولك :

يقيكِ جَميــلٌ كلَّ سوء أمَا له   لديكِ حديثٌ أو إليك رسولُ ؟

وقد قلتُ فى حبى لكم وصبابتى   محاسنَ شعرٍ ذكرهنَّ يطول

فإن لم يكن قولى رضاك فعلِّمى   هُبوبَ الصَّبا يا بَثْنَ كيف أقول

فما غاب عن عينى خيالُكِ لحظةً   ولا زال عنهـا والخيـالُ يزولُ

فقال جميل : أترى عزَّة يا كثيِّر لم تسمع بقولك :

يقول العِدَا يا عَزّ قد حال دونكم   شجاعٌ على ظهر الطريق مصمِّمُ

فقلت لها : والله لو كان دونكم   جهنمُ ما راعت فؤادى جهنمُ

وكيف يرُوع القلبَ يا عَزّ رائعٌ   ووجهك فى الظلماء للسَّفْرِ مَعْلَمُ

ما ظلمتكِ النفس يا عَزّ فى الهوى   فلا تَنْقِمى حُبى فما فيه منقمُ

فبكيا قطعة من الليل ثم انصرفا .

ويكاد يُجمع الرواة على أن كثيِّراً أشعر الناس فى العصر الأموى ، ويذكر أنه قال لعبد الملك : كيف ترى شعرى يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أراه يسبق السحر ويغلب الشعر .

وقد امتاز شعره بالصياغة الجميلة التى يتأنق فيها صاحبها ويزيد فى صقلها حتى يصل به الأمر أحياناً إلى التزام مالا يلزم ، كقصيدته التى يقول فيها :

تمنيتها حتى إذا ما رأيتها ‌ ‌ رأيتُ المنايا شُرَّعاً قد أَظَلَّتِ

وما أنا بالداعى لعَزَّة بالجَوَى ‌ ‌ ولا شامت إنْ نَعْلُ عزَّة زلَّتِ

فلا يحسب الواشون أن صبابتى ‌ ‌ بعزَّة كانت غمرةً فتجلَّتِ

كما أثر فى نفس كثيِّر ، وبالتالى فى شعره ، ما اشتهر به من القصر والعوَر مما لم يجعله أهلا للمصاولات الجثمانية ولا المنافسات الغرامية لا سيما فى عهد جميل وابن أبى ربيعة وغيرهما ممن اشتهروا بصباحة الوجوه وجمال الأجسام فلم يكن له بد من اعتناق المبدأ القائل بأفضلية الروح على الجسد ، وبأن الأخلاق هى ما يزين الرجال لا الأجسام :

ترى الرجل النحيف فتزدريهِ ‌ ‌ وفى أثوابه أسد هَصُورُ

ويعجبك الطريرُ فتبتليهِ ‌ ‌ فيخلفُ ظنَّك الرجلُ الطريرُ

بُغاثُ الطير أطولها رقاباً ‌ ‌ ولم تطل البُزاةُ ولا الصقورُ

خشاش الطير أكثرها فراخاً ‌ ‌ وأمُّ الصقر مقْلاتٌ نَزُورُ

ضعاف الأُسد أكثرها زئيراً ‌ ‌ وأصرمها اللّواتى لا تَزِير

وقد عَظم البعيرُ بغير لُبّ ‌ ‌ فلم يستغن بالعظم البعيرُ

ينوَّخُ ثم يضرب بالهراوى ‌ ‌ فلا عرفٌ لديه ولا نكيرُ

يقوِّده الصبىُّ بكل أرض ‌ ‌ وينحره على التُّرب الصغيرُ

فما عظم الرجال لهم بزين ‌ ‌ ولكن زينهم كرم وخيرُ

بل لعل كثيِّراً قد غالَى فى التشيع ولم يخف مشاعره هذه حتى بين يدى خلفاء بنى أمية ، وهو المذهب المنهزم فى عصره ليعوّض شعوره بالنقص من هذه الناحية الخلقية التى كثيراً ما جعلته موضع التندر ، و يظهر للناس مقدار قوّته وجبروته .

أما فيما عدا هذه الحالة النفسية الخاصة فقد كانت روح الفطرة هى الغالبة على شعره الذى استوحى فيه أبسط المعانى وأجراه مجرى الكلام المرسل . . استمع إليه فى هذا العتاب الرقيق فسترى صديقاً يتحدث إلى صديقه ونفساً متألمة تشكو إلى نجيها وصفىّ روحها فى غير تكلف ولا تصنع :

لقد كذب الواشون ما بُحْتُ عندهم ... بليلى ولا راسلتُهُمْ برسيلِ[1]

فلا تعجَلِى يا لَيْلُ أن تتفهمى ... بنُصح أتى الواشون أم بخبولِ[2]

فإن طبت نفساً بالعطاء فأجزلى ... وخير العطا ياليل كلّ جزيلِ

و إن تبذلى لى منك يوماً مودة ... فقِدْماً تخذتُ القرض عند بذولِ

و إن تبخلى يا ليل عنى فإننى ... موكّلة نفسى بكل بخيلِ

وهو يلتزم الهدوء لأن الثورة لا تجدى أمثاله من الأقزام الذين لا يملكون من القوة ما يغتصبون به حقوقهم وهؤلاء ليس أمامهم إلا الاستسلام لأقدارهم :

ندمتُ على ما فاتنى يوم بِنْتُمُ ... فيا حَسرتَا ألا يَرَيْنَ عَويلى

أقيمى فإن الغَوْر يا عزّ بعدكم ... إلىّ إذا ما بِنْتِ غير جميل

كفى حَزَناً للعين أن ردّ طرفها ... لعزّة عير آذنت برحيلِ

توليت محزوناً وقلت لصاحبى : ... أقاتلتى ليلى بغير قتيلِ ؟

ولا شك أن هذا الحرمان وذاك العذاب الذى كابده كثيِّر كانا من أسباب إبداعه فى الشعر وتفوّقه فى النسيب لما يهيجان من مشاعر الوجد ولواعج الشوق ولوعة الحرمان .

---

(١) رسالة . (٢) فساد .

ولقد امتاز كثيّر فى شعره بإجادة الوصف والتصوير فاستمع إليه يصف انصراف الحجيج عن منى وقد اختلط الحابل بالنابل وانشغل كل فرد بنفسه وشغل هو بعزّة :

ولما قَضَيْنا من مِنًى كلَّ حاجة ومسّح بالأركان من هو ماسحُ
وشُدَّت على حُدْب المهارى رحالنا ولا يعلم الغادى الذى هو رائحُ
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطىّ الأباطحُ

إنها صورة حية للموقف بكل ما فيه أبدعها ذكاء كثيّر ومصورته العجيبة :

ولقد مدح كثيّر الأمراء ونال صِلاتهم ، وقد شذ بذلك عن الشعراء العذريين الذين نزّهوا شعرهم عن هذا الفن من فنون الشعر . ولعله كان له مندوحة من إقامته فى الحضر كثيراً مع ما تتطلبه هذه الإقامة من تكاليف ، ولم يُعرف عنه أنه كان ذا ثراء .

واستطاع كثيّر أن يظفر بالحب ، وأن يسعد بهذه العاطفة التى خاف أن تفلته فيكتب لنا شعراً فى الذروة من النسيب . ولقد لمس صدق حب عزّة بنت جُمَيل له عند ما علم بخروجها إلى مصر لتلقاه فجلس يرقب تلك السحابة الكريمة التى ستحمل إليه الخير والحياة :

لعمرى لئن كان الفؤاد من الهوى بغى سقماً إنى إذن لسقيمُ
فإما ترينى اليوم أبدى جلادة فإنى لعمرى تحت ذاك كليمُ
ولست برائى نحو مصر سحابةً وإن بعدتْ إلا قعدتُ أشيمُ

وقد كان زوجها يرغمها على شتمه ؛ فتبكى ؛ وفى ذلك يقول :

يكلّفها الغَيْرانُ شتمى وما بها هَوَانى ولكن للمليك استذلّتِ

فهل بعد ذلك يستغرب أن يخلص لها الحب ، و يتفانى فى إخلاصه ويقول لمن لامه فى حبه وقصره شعره عليها : لقد سار بها شعرى ، وطار بها ذكرى ، وقرب بها من الخلفاء مجلسى ، و إنها لكما قلت فيها :

فأقسمت لا أنساك ما عشت ليلة   وإن شحطت دارٌ وشطَّ مزارها
وإنى لأسمو بالوصال إلى التى   يكون شفاء ذكرها وازديارُها
من الخفِرات البيضِ لم ترَ شِقْوَة   وفى الحسَب المحضِ الرفيع نجارُها

ويتفجع لفراقها فيرى كل آماله تنهار وتتبدد كما تبدد أهل سبأ بعد انهيار سدّ مأرب لكنه مع ذلك حافظٌ لعهدها :

أيادى سَبَا يا عزّ ما كنت بعدكم   فلم يحل للعينين بعدك منظرُ
تغيَّر جسمى والخليقة كالذى   عهدتُ ولم يخبر بسرِّك مخبرُ

إنه لا يرى فى الوجود سواها وأصبحت كل حياته من أجلها ؛ حتى المجد لا يرومه ولا يسعى له إلا ليحمد لدى عزة ، ويرى لكل الناس أشغالهم ، وحب عزة شاغله ، وكيف لا يشغله إذا كانت :

من الخفِرات البيض ودّ جليسُها   إذا ما انقضتْ أُحدوثة لو تعيدُها

إنه حب لا محيد عنه ولا مهرب . . . لقد استعبدت فؤاده وملكته فلن يصرفه عنها شيء ولو كان كرهها له .

وكيف يودُّ القلب من لا يودُّه ؟   بَلَى .. قد تريد النفس من لا يريدُها

ذلك لأنه لا يستطيع نسيانها لأنها ملأت آفاق الدنيا فى ناظريه :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما   تمثَّلُ لى لَيْلَى بكل سبيلِ

لقد لقى كثيِّر فى هذا الحب الكثير من الأهوال والآلام ، وخاصم الكثيرين ، وتعرّض للهوان ، وحاول جاهداً أن يعزّ عزّة فى جميع حالاته ، وأن يحتمل كل هذه الآلام فى صبر من أجلها لكن قلبه كان يصرخ مستنجداً بين جنبيه فتنساب مشاعره فى شعر بالغ الرقة يثير الشفقة ويستدر الدموع .

أمنقطعٌ يا عزّ ما كان بيننا   وشاجَرنى يا عز فيكِ الشواجرُ
إذا قيل هذا بيت عزّة قادنى   إليه الهوى واستعجلتنى البوادرُ

أصدُّ وبي مثل الجنون لـكي يرى رواة الخنـا إني لبيتـك هاجر
ألا ليت حظّي منك يا عزّ إنني إذا بِنْتِ باع الصبرَ لي منك تاجرُ

وكان كثيِّر يحترم العفة في الحب ، ويقدس الجمال في عزة تقديساً يقرب إلى العبادة .

نظرت إليهـا نظرة ما يسرُّني بها حمر أنعام البـلاد وسودُها

بل إن حبه هو العبادة نفسها ، وحديث عزّة عنده من نفحات السماء :

رُهبان مَدْيَنَ والذين عبدتهم يبكون من حَذَر العذاب قُعودا
لو يسمعون كما سمعت حديثها خرُّوا لعزَّة رُكَّعاً وسُجودَا

إن كثيّراً كان متصوفاً يتخذ من حب عزة فَلَـكاً يتعبد فيـه ، ومن إشعاره أوراداً لا يمل الزمان تردادها ؛ حتى آمن بقدرة الجمال على بعث الموتى حين قال :

الله يعـلم لو أردتُ زيادةً في حب عزّة ما وجدتُ مَزيدَا
والميتُ ينشر إن تمس عظامه مسًّا ويخـلد أن يراك خـلودا

وتمضي القصة فتذكر أن كثيّرا وعزّة تغاضَبا فافترقا ، وعاد كثيّر إلى المدينة ؛ لـكن المقام لم يطب له بعيداً عنها فرجع إلى مصر ، لـكنه بلغها والناس ينصرفون من جنازة عزّة فأتى قبرها ، وأناخ راحلته عنده ، ومكث ساعة ثم رحـل وهو ينشد :

أقول ونضوي واقف عند قبرها عليك سـلام الله والعين تسفحُ
وقد كنت أبكي من فراقك حيّة فأنت لعمري اليوم أنأى وأنْزَحُ

بشار

قد عشت بين الندمان والراح والمز
هر فى ظلِّ مجلسٍ حَسَنِ

هكذا وصف أبو مُعاذ بشّار بن بُرْد حياته ، وهكذا عاش سنيه السبعين حتى مات عام ١٦٧ هـ متأثراً ، كما قيل ، بالضرب الذى ضرب به السياط حين سُمع يؤذِّن وهو سكران فى غير وقت الأذان .

وقد وصفه الناس بأنه « أعمى ودميم ومضطهد ومنجوس ودسّاس ومشاكس وسليط وفاجر ومتشكك وممقوت وكاره للبشر » . وقد يكون بهذا الوصف بعض المبالغة و بعض الخطأ لأن بشّاراً لم يخرج عن كونه نتاج بيئته وهو قد نشأ فى مستهل عصر المدنية العبّاسية حينما بدأت تظهر إلى الوجود الفِرَق الإسلامية والزندقة فى الإسلام ، وكانت الآراء تتغير كل يوم تغير الأزياء . وكان بشار يغشى يوماً مجالس المعتزلة ليسمع آراءهم ، فإذا ما أعجبته ذكرها فى شعره ؛ وفى يوم آخر ينظر فى آراء الزنادقة ، فإذا ما راقته تحدّث بها فى سَمَره . وهو فى هذا وذاك لا يأخذ الأمر مأخذ الجد ، بل هو يسلك نفسه فى عداد الظرفاء من الشعراء فيقول مثلا :

إبليس أكرم من أبيكم آدمٍ فتبيّنوا يا معشر الأشرارِ
النار عنصره ، وآدمُ طينةٌ والطينُ لا يسمو سموَّ النارِ

ولا يخلو شعره من آراء فى الجبر وغيره مما شاع فى عصره ، ذلك العصر الذى أوغل فى الترف وكثر فيه المُجّان ومجالس اللهو والمجون ، إلى جانب أنه نشأ فى بيت أبعد ما يكون عن الوقار . فأمه قد تزوجت عبدها بُرد ، ذلك المولى الفارسى الذى كان يضرب بشّاراً ضرباً مبرحاً لهجوه الناس « فكانت تقول له أمه : لِمَ تضرب

هذا الغلام الضرير ؟ أما ترحمه ؟ فيقول : بلى والله إنى لأرحمه ولـكنه يتعرض للناس فيشكونه إلىّ ، فسمعه بشار فطمع فيــه وقال : إن هذا الذى يشـكونه إليك منى هو قولى الشعر وإنى إن أتممت عليه أغنيتك وسائر أهلى؛ فإذا شـكونى إليك فقل لهم : أليس الله عز وجل يقول ﴿ ليس على الأعمى حرَج ﴾ فلما أعادوا الشكوى على أبيــه قال لهم ذلك ، فانصرفوا وهم يقولون : فقه بُرد أغيظ لنا من شعر بشار ! » .

وكان بشار ضخم الجثة ذا طبيعة حيوانية عارمة تستمرئ اللهو والفجور ، وكان يعلم ما يتعرّض له مَنْ كان أعمى مثله فى مواضع اللهو من العبث والسخرية والتغامز، فوطّن نفسه على مواجهة كل ذلك بأن خلع رداء الحياء ، ولم يبالِ فى حياته بشرف أو دين ، ولا راقب الناس فى أمر من الأمور استهواه .

ومع ذلك فقد سلكه شعره فى مقدمة الشعراء ، بل عُدّ من أكبر شعراء عصره لما امتاز به شعره من الرصانة والصحة ، حتى أنه وهو الأعجمىّ الأصل كان يدل على العرب بسلامة لفظه وجودة نظمه فيقول: « ومن أين يأتينى الخطأ وقد ولدت هنـا ، ونشأت فى حجور ثمـانين شيخاً من فصحاء بنى عُقَيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ؟ وأما نساؤهم فأفصح منهم ، وأيفعت فأبديت إلى أن أدركت ، فمن أين إذن يأتينى الخطأ ؟ » .

وإذا كان أدباء اليوم يكثرون الحديث عن الأدب الواقعى ورسالة الأدب فى تصوير واقع الحياة فقد كان بشار منذ ألف ومائتين من السنين خير من صوّر الواقع، انتزع صور شعره مما حوله ومن أحداث يومه . . استمع إليه فى هذه القصة :

حَسْبى وحَسْبُ الذى كلِفْتُ به ... منّى ومنه الحديثُ والنظرُ
أو عضّــة فى ذراعها ولهـا ... فوق ذراعى مِن عضّها أثرُ
أو لمسة دون مِرْطِها بيدى ... والبابُ قد حالَ دونه السُّتُرُ
واسترخت الـكفُّ للعناق وقا ... لت إيهِ عنى والدمع منحدرُ

انهضْ فما أنت كالذى زعموا أنت وربى مُغازِلٌ أشِرُ
يا ربِّ خُذْ لى فقد ترى ضَرَعى من فاسقٍ جاء ما به سَكَرُ
أهْوَى إلى مِعْضَدِى فرضَّضه ذو قوّةٍ ما يطاق مقتدرُ
كيف بأمّى إذا رأت شفتى أم كيف إن شاع عنك ذا الخبرُ
قلت لها عند ذاك : يا سَكَنى لا بأس ! إنى مجرِّب خَبِرُ
قولى لها بَقّةٌ لها ظُفُرٌ إن كان فى البَقِّ ماله ظُفُرُ

ألا ترى فى هذا الشعر صورة فاضحة من ليلة ماجنة من ليالى بشار ؟ وانه لا يكتفى بوصف ما حدث بل لا بد له من السخرية والنكتة اللطيفة يختم بها قصته عن تلك البقة ذات الظفر .

وهو يحدثنا فى قصيدة أخرى عن مباهج السهر وما تحتويه دنيا الليل من جمال وأحداث مثيرة فيقول :

عجبتْ فاطمُ مِنْ نَعْتى لها هل يُجيب النعت مكفوفُ البَصَرْ
بِنْتُ عشرٍ وثلاثٍ قسمت بين غصنٍ وكثيبٍ وقَمَرْ
أذرت الدمع وقالت : ويلتى من ولوع الكف ركّاب الخَطَرْ
أمّتى بدّدَ هــذا لُعَبى ووشاحى حَــلَّه حتى انتثر
أيها النُّوّام هبُّوا وَيْحَكُمْ وسَلُونى اليومَ ما طَعْمُ السهرْ

لكن هذا الشاعر العابث يقف أحياناً فى طريق الحياة فيطرح العبث جانباً ، ويصطنع شيئا من الجدّ ، ويتأمل تصاريف القدر فيأتى لنا بشعر يزينه الوقار وإعمال الفكر ، والخوف من العقاب :

بدا لى أن الدهر يقدح فى الصفا وأن بقائى إن حييتُ قليلُ
فعش خائفاً للموت أو غيرَ خائف على كل نفس للحِمام دليلُ

حليلك ما قدمت من عمل التُّقَى   وليس لأيام المنون خليلُ

بل يحيل إلىّ أنه أسرف على نفسه في الجد واصطناع الفلسفة عندما قال :

إذا كنتَ في كل الأمور معاتباً   صديقك لم تَلْقَ الذى لا تعاتبُهْ
فعشْ واحداً أو صِلْ أخاك فإنه   مُقارفُ ذنبٍ مرة ومُجانبُهْ
إذا أنت لم تشرب مرارًا على القَذَى   ظمئت ، وأىُّ الناس تصفو مشاربُهْ

لكن بشَّارًا اشتهر بالهجاء منذ نشأته ، وقد كان لأصله الفارسى ونشأته بين قوم عرب يحتقرون كل ما هو أعجمى دخلٌ كبير فى إسرافه فى السخرية من كل شىء لا سيما هذه الأصول والأنساب

تُفاخِرُ يا ابنَ راعيةٍ وَرَاعٍ   بنى الأحرار حَسْبُكَ من خَسَارِ
وكنتَ إذا ظمئتَ إلى قَرَاحٍ   شَرِكْتَ الكلبَ فى وَلْغِ الإطارِ
مُقامُك بيننا دَنَسٌ علينا   فَلَيْتَكَ غائبٌ فى حَرِّ نارِ
وفخرُك بين خنزيرٍ وكلبٍ   على مثلى من الحدَثِ الكبارِ

وقد كان هذا المجتمع القَبَلى يقود بشارًا إلى الثورة عليه ، وتبلغ به التوبة أن يدعو الموالى جميعا إلى الثورة معه على الجنس العربى فيقول :

أصبحت مولى ذى الجلالِ وبعضُهم   مولى العريب فخُذْ بفضلك فافخرِ
مولاك أكرم من تميم كلّها   أهل النعال ومن قريش المشعرِ
فارجعْ إلى مولاك غير مدافعٍ   سبحان مولاك الأجلّ الأكبرِ

لكن أغلب الهجاء فى شعر بشار لا يحمل مرارة الغل وظلمة الحقد على الناس ، بل هو أقرب إلى الفكاهة والدعابة المضحكة التى تسلّح بها ضد الناس حتى يأمن خبثهم وتندُّرهم بعاهته .

فقد روى أن رجلا سأله عن منزل ذكره له فجعل يفهمه والرجل لا يفهم فلما

يئس منه بشّار أخذ بيده وقام يقوده إلى المنزل الذى يبتغيه وجعل ينشد فى طريقه :

أعمى يقود بصيرًا لا أبا لكمو قد ضلّ من كانت العميان تهديه

وظل يقوده حتى وصل به إلى المنزل ثم دفعه إلى داخله وقال له هذا هو المنزل يا أعمى .

كما كان بشّار يعتبر الهجاء بابًا من أبواب الكسب إذ قال : « إنى وجدت الهجاء المؤلم آخذاً بضبع الشاعر من المديح الرائع ، ومن أراد من الشعر أن يكرم فى دهر اللئام على المديح فليستعد للفقر و إلا فليبالغ فى الهجاء ليخاف فيعطى » .

وعلى هذا الأساس كان فى كثير من هجائه لا همّ له إلا جمع العيوب والمبالغة فى الهجر والفحش حتى قلّ ما يصلح من شعره هذا للنشر أو الحفظ .

وقد قال لما مات الرشيد ودفن بطوس إلى جوار قبر الرضا :

قبران فى طُوس خير الناس كلّهم وقبر شرّهم . . . هذا من العِبَرِ
ما ينفع الرجس من قُرب الزكىّ ولا على الزكىّ بقرب الرجس من ضَرَرِ

وقال فى المعتصم :

ملوك بنى العبّاس فى الكتب سبعة ولم تأتنا عن ثامنٍ لهم الكُتُبُ
كذلك أهل الكهف فى الكهف سبعةُ خيارٌ إذا عُدُّوا وثامنهم كلبُ
وإنى لأُعلى كَلْبَهم عنك رتبةً لأنك ذو ذَنْبٍ وليس له ذَنْبُ

و إذا كانت العُجمة عيباً فهو يهجو به رغم أنه من أصل فارسى فيقول :

سباويه يا ابن الفارسية ما الذى تحدثت عن شتمى وما كنت تنبذُ ؟

وهكذا يمضى بشار فى حياته مستهتراً بكل القيم المتعارف عليها بين الناس لا يبالى بمقدساتهم ولا بعاداتهم ، و يمتد هذا الاستهتار حتى يصل إلى شعره فيسف به أحياناً إلى مثل هذا النظم :

ربابةُ ربّةُ البيتِ تصبُّ الخلَّ فى الزيتِ
لها عَشرُ دجاجاتٍ وديكٌ حَسَنُ الصوتِ

ولا يبالى إذا لم يسعفه الوحى بإتمام شعره بألفاظ ليست من العربية ، بل لا وجود لها فى اللغات كقوله :

صببت هواكِ على قلبــه فضاق وأعلن ما قد كتمْ
وقالت : هويتَ فمتْ راشداً كما مات عُروة غمًّا بغَمْ
دسستُ إليها « أبا مِجْلَزٍ » فأىّ فتى إنْ أصابَ اعتزمْ
فما زلت حتى أنابت له فراح وحلّ لنا ما حَرُمْ

ولما سأله سامع : ومن هو أبو مجلز ؟ قال له : وما حاجتك إليه ؟ ألك عليه دين ؟ أتطالبه بطائلة ؟ هو رجل يتردد بينى و بين معارفى فى رسائلى .

بل إن هذا الاستهتار أو التظرف يصل إلى غزل بشّار فكأنه لم يحس بلفح الهوى ، ولا أصابته نيران الحب ؛ بل هو يحدثنا فى إحدى قصائده بشعر خفيف لاهٍ عن اضطراره إلى مقاطعة الحبيب كأمر الخليفة ، وهو لا يحس من هذه القطيعة سوى ذكرى ضاحكة ساخرة من دموع تلك الحبيبة :

يا منظراً حَسَناً رأيتُه من وجهِ جاريةٍ فدَيتُهْ
بعثتْ إلىَّ تسـومنى ثوبَ الشباب وقد طوَيتُهْ
واللهِ ربِّ محمـــــدٍ ما إن غدرتُ ولا نوَيتُهْ
أمسكتُ عنك ، وربما عَرض البلاء وما ابتغيتُهْ
إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئاً أبيتُهْ
ومخضَّبٍ رَخْصِ البنا نِ بكى علىَّ وما بَكَيتُهْ

ويشـوقنى بيت الحبيــب إذا ادّكرت ، وأين بَيْتُهْ
قام الخليفـة دونه فصبرت عنه وما قليته

وتطغى واقعية بشار على شعره ، حتى تستحيل مادية شاملة تجسم كل شىء ، حتى ما يرى وما يسمع ، بل إنها تحيل العواطف إلى ماديات تلمس وتحس ؛ فاستمع إليه يقول :

إذا نظرت صبّت عليك صبابةً وكادت قلوبُ العاشقين تطيرُ

وإذا وصف حديث النساء وهو مولع به قال :

وحديث كأنه قطع الرّوْ ض وفيه الصفراء والحمراء

إن الحديث أبعد لذات بشار عن المحسوسات لكنه لا يرتاح حتى يشبهه بكل محسوس وجميل ملموس فيقول فى موضع آخر :

ولها مَبْسِمٌ كثغر الأقاحى وحديثٌ كالوَشْيِ وَشْيِ البُرودِ

لكن يبدو أن الهوى أقوى من سخرية بشار وله سلطان تَذلُّ له النفوس وتضعف فتذهب تتلمس الأعذار ، وترجو المشاركة والعطف ، وتنطق بشاراً بمثل قوله:

يا قَوْمُ أُذْنِى لبعضِ الحىِّ عاشقةٌ
والأُذْنُ تعشقُ قبـل العين أحياناً
قالوا : بمن لا تَرَى تَهْذِى ! فقلت لهم :
الأُذْن كالعين تُوفِى القلبَ ما كانا

وهل حقيقة كان بشار يهذى أم هو الحب يستوى فيه الناس جميعاً مبصرهم والأعمى؟

وما تبصر العينان فى موضع الهوى ولا تسمع الأذنان إلّا من القلبِ
وما الُحسنُ إلا كلُّ حسن دعا الصبا وألّف بين العشق والعاشق الصبِّ

أيهـا الراقدون حولى أعينو نى على الليل حسبةً وائتجارا
حدثونى عن النهار حديثاً أو صفوه فقد نسيت النهارا

أجل قد نسى العباس بن الأحنف النهار بعد أن طال به الليل ؛ يتعبد فى محراب حبه ، و يبكى آلام قلبه ، و يترنم بذلك الحب العفيف فى عصر امتهنت فيه العفة وابتذل الـكثيرون ، واشتهر أمثال أبى نواس من الظرفاء اللاهين الذين يعبثون بأقدس عاطفة فى الوجود .

فى عصر الرشيد ظهر العباس ليدعو الناس إلى التوحيد فى الحب و يعيش حياته يقدس محبوبة واحـدة ، ويبشر بهذه الوحدانية التى نمت عن روح عظيم وقلب كبير .

و إذا كان العرب فى عهودهم الأولى قد جروا على استهلال قصائدهم بالنسيب والبكاء على تلك الديار المتنقلة التى يرحل عنها أحباؤهم سعياً وراء المرعى والمطر ، و يخلفون لهم الشوق والحنين ، فإن العباس أعاد فى عهد بنى العباس سيرة الحب العذرى ، وفاق أسلافه الذين اشتهروا فى عصر الأمويين بانقطاعه حياته إلى نوع واحد من الشعر لا يكاد الباحث يجد فى شعره سواه . . شعر كان كأوراد الصوفية التى لا يملون تردادها ، لـكنه قصره على التصوف فى الحب والتعبير عن هواه العظيم حتى فى آخر لحظات حياته ، لم ير برءه إلا فى رشفة من رضاب الحبيب ترسل له فى زجاجة ، و إذا سئل عوّده عنها فهو ينصح بأن يجيبوا أهله بأنها بعض ماء زمزم :

أزُوّارَ بيت اللهِ مُرُّوا بيَثْرِبٍ لحاجة متبولِ الفؤاد كـئيبِ
وقولوا لهم : يا أهل يثربَ أسعدوا على جلبٍ للحادثات جليبِ
فإنا تركنا بالعراق أخا هوى تنشّب رهناً فى حبال شَعوبِ

به سَقَمٌ أعيا المداوين علمُه ... سوى ظنّهم من مخطىء ومصيبِ
خُذوا لىَ منها جرعةً فى زجاجةٍ ... ألا أنهـا لو تعلمون طبيبى
وسيروا فإن أدركتمُ بى حشاشة ... لها فى نواحى الصدر وجس دبيبِ
فرشّوا على وجهى أُفِقْ من بليّتى ... يثيبكم ذو العرش خيرُ مُثيبِ
فإن قال أهلى ما الذى جئتمُ به ؟ ... وقد يحسن التعليلَ كلُّ أديب
فقولوا لهم : جئناه من ماء زمزم ... لنشفيه من دائهِ بذَنُوبِ
وإن أنتم جئتم وقد حِيل بينكم ... وبينى بيوم للمنون عصيبِ
فرشّوا على قبرى من الماء واندبوا ... قتيل كَعابٍ لا قتيل حُروبِ

فإذا ما مات العباس سنة ١٩٢ هـ أمر الرشيد ابنه المأمون أن يصلى عليه اعترافاً بفضله ومكانته من المجتمع والأدب والشعر .

أما مكانته فى الشعر فقد أجمع النقاد على أنه أعظم المتفوقين فى الفن الواحد وكان فنه النسيب « فلم يتجاوز الغزل إلى مديح أو هجاء ولم يكن يتصرف فى شىء من هذه المعانى[1] » . ومن اقتصر على ناحية بذاتها من الشعر لاشك أنه بالغ فيها مالايبلغه غيره ؛ والتخصص دائماً أحد وسائل الإجادة ، وقد تخصص العباس فى أرق أنواع الشعر ولم تكن الرقة مجلوبة فى شعره بل هى نابعة من طبيعة مهذبة وقلب شديد الحساسية ونفس قد تأثرت بالبيئة التى حولها والتى شاعت فيها أسباب المدنية والحضارة . استمع إليه يردّ على خطاب :

وصحيفةٍ تحكى الضميـ ... ـرَ مليحةٍ نغماتهـا
جاءت وقد قَرِح الفؤا ... د لطول ما استبطأتها
فضحكت حين رأيتها ... وبكيت حين قرأتهـا

---

(١) الأغانى جـ ٨

عيني رأت ما أنكرتْ فتبادرت عبراتها
أظَلُوم نفسي في يديْــك حياتها ومماتها

وقد جمع إلى رقة الحديث وعذوبته : الابتكار في المعاني والتراكيب ؛ فهو يقول معبراً عن استمتاع أذنه إلى جانب نظره :

أتأذنون لصبٍّ في زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر ؟

والعتاب من الفنون التي تفوّق فيها العباس ، ولا شك في أن الرقة في مقتضيات العتاب ليبلغ قلب الحبيب ويظفر برضائه ورحمته :

كتبت فليتني مُنيِّتُ وصلًا ولم أكتب إليك بما كتبتُ
كتبت وقد شربت الراح صرفاً فلا كان الشراب ولا شربت
فلا تستنكروا غضبي عليكم فلو هنتم عليّ لمَا غضبتُ

فهل أعذب من هـذا أو أرق شيء في تبرير المغاضبة ولطف العتاب ؟ بل إن العباس يرى أن الحب لا تدرك حلاوته بغير مغاضبة تأتي بعدها نعمة العتاب :

وأحسنُ أيام الهوى يومك الذى تروّع بالهجران فيه وبالعتبِ
إذا لم يكن في الحب سخطٌ ولا رضا فأين حلاوات الرسائل والكتبِ

لكنه يعلم جيداً الفرق بين صد الملال وصد العتاب ، وهو يفزع من صد توهمه من نوع الملال فيقول مسترحماً :

لو كنت عاتبةً لكَّن لوعتي أملي رضاك وزرت غير مراقبِ
لكن مللتِ فلم تكن لي حيلة صدُّ الملول خلاف صدِّ العاتبِ

وهو أخيراً مشفق على وده أن تضيعه كثرة التجني ، فهو يشرح في الأبيات

التالية حبه العظيم الذى ينكره الناس و يحاولون التشكيك فيه ، و ينذر حبيبته بعاقبة الاستماع إلى الناس وكثرة التجنى :

وقد حُمِّلت من حُبِّيك ما لو تقسَّم بين أهل الأرض شابوا
أفيقى من عتابك فى أناس شهدت الحظ من قلبى وغابوا
وكنت إذا كتبت إليك أشكو ظلمتِ وقلتِ ليس له جواب
فمتُّ أقوتُ نفسى بالأمانى أقول لكل جامحة إياب
و إن الود ليس يكاد يبقى إذا كثر التجنى والعتاب

ولقد كان العباس يمتلك كل المزايا التى تؤهله لأن يكون محبو باً من الناس فهو من أسرة كريمة منعمة ، حسن المنظر ، مرموق المكانة الاجتماعية لاسيما بقربه من أمير المؤمنين ، حلو الشمائل ، عذب الحديث ؛ حتى لقد وصفه أحد الناس بقوله « كان والله ممن إذا تكلم لم يحب سامعه أن يسكت ، وكان فصيحاً جميلا ظريف اللسان ، لو شئت أن تقول (كلامه شعر كله) لقلت » . . بل أن شعره كان وافر الحظ من الغناء فتناقلته المجالس وأقبل على إنشاده المغنون والقيان لعذو بة ألفاظه وجزالة تراكيبه . ومن قصائده المشهورة فى الغناء قوله :

نام من أهدى لىَ الأرَقا مستريحًا زادنى قَلَقــا
لو يبيتُ النـاس كلهم بسهادى بيَّض الحدَقا
كان لى قلبٌ أعيش به فاصطلى بالحب فاحترقا
أنا لم أرزق مودتـكم إنمــا للعبد ما رُزقا

وكان من اليسير على العباس فى عصره أن يتخذ من الخليلات ألواناً ، وأن يكون له غير « فوز » كثيرات ومع ذلك فهو لم يحب إلا « فوزاً » هذه ، وتدلَّه فى حبها حتى بدا فى مظهر الضعف أمامها عند ما قال :

تحمَّل عظيم الذنب ممن تحبُّهُ ... وإن كنت مظلوماً فقل أنا ظالمُ
فإنك إلا تغفر الذنب فى الهوى ... يفارقك مَنْ تهوى وأنفك راغمُ

فما الذى حمله على ذلك ؟ وهل يعتبر ذلك ضعفاً ؟ أم تراه من ضرورات الحب العفيف الذى أنطقه بمثل قوله :

أتأذنون لصبٍّ فى زيارتكم ؟ ... فعندكم شهوات السمع والبصرِ
لا يضمر السوء إن طال الجلوسُ به ... عفّ الضمير ولكن فاسقُ النظرِ

إن العفة سلبية ، لكنها عند العباس إيجابية ؛ لأنه لم يكن ممن يزهد فيه . ولقد كان فاسق النظر كما يقول ، فعفته إذن ليست عفة المغلوب على أمره ، بل عفة الشريف الذى يجاهد هواه ، يغالبه ويقاوم شهواته حتى لا يثقل الإثم ضميره ، حتى لا تشوب صفحة أخلاقه الكريمة شائبة .

بل إنه جاهد قلبه جهاداً عنيفاً آخر لا يقل صرامة عما أخذ به نفسه من عفة الحب . . ذلك جهاد الكتمان . . وهل يخفى الحب ؟ وهل يستطيع المحبون أن يطووا أضالعهم على نيران الجوى دون بوح وحديث ، ودون استصراخ واستعطاف ودون اللجوء إلى وساطة الرسل وما يفضح عواطفهم ؟ لكن العباس قد نجح فى إخفاء اسم محبوبته التى رمز إليها فى شعره بفوز ، وحاور الناس فى أمرها حتى غلبهم فقال .

قد سحَّب الناسُ أذيالَ الظنون بنا ... وفرّق الناس فينا قولهم فِرَقَا
فجاهلٌ قد رمى بالظن غيركم ... وصادقٌ ليس يدرى أنه صَدَقا

بل إنه يتحمل الهجران فى سبيل الحب والحرص على من يحب فيقول :

سأهجر إلفى وهجرانها ... إذا ما التقينا صدود الحدودِ
كلانا محبٌّ ولكننا ... ندافع عن حبنا بالصدودِ

ويدّعى أنه سلا حبها إمعاناً عنه فى ستر هذا الحب وإخفائه عن الناس فيقول :

كذبتُ على نفسى فحدّثت أننى ... سلوتُ لكيما ينكروا حين أصدقُ

وما عن قلّي مني ولا عن ملالة ولكنني أبقى عليك وأشفقُ

لكنه في فزع دائم بعد كل هذه التحفظات فيصرخ في شبه يأس :

فكيف استتاري إذا ما الدموع نطقن فَبُحْنَ بما أضمر

ويبدو أن هذه المبالغة في الكتمان لم تعجب بعض معاصريه فكانت موضع تندُّر بينهم ؛ حتى أن إحدى جاراته سمت خادمة لها فوزاً للسخرية منه فقال :

سمّت وليدتها فوزاً مغايظة عذرت لو لطمتني ذات إسوار
وما يزال نساء من قرابتها في كل ناحية يهتكن أستاري

وهو هنا يحدثنا أن ذوي قرباها يحاولون كشف أستار حبه ، فماذا كان نصيبه من هذا الحب ؟ يقول العباس :

ويقنعني ممن أحبُّ كتابه ويمنعنيه ؛ إنه لبخيل !

فياله من محب قانع يرضى من الحب برسالة تأتيه من فوز ، وهي تسرف في الدلال فتمنعه هذا الكتاب ؛ ولعلها تعلم قيمة الكتاب . . فهو عزاء العاشق وشفاء قلبه على البعد ، وأثر الحبيب بين يديه يقرؤه ، ثم يعيد قراءته ولا يمل ترداده . وهو حين يقرأ هذا الكتاب يتمثله حاضراً بين يديه يسرُّ إليه النجوى ويستمع له ولا يشركهما أحد في نجواهما وحديثهما الموصول . . ولعل فوزاً كانت خليقة بهذا الحب العظيم ، فهي كما ينمُّ شعر العباس من العقائل النبيلات في بغداد لها حظ من من ثقافة ، تقرأ كتبه وتكتب له ، فكان عليها حريصاً ، وعلى سرها أميناً رغم كل ما يكابد في هذا السبيل :

عيون العائدات تراك دوني فيا حَسَدى لعينىْ مَنْ يراكِ
أريدك بالسلام فأتقيهم وأعمد بالسلام إلى سواكِ
وأكثر فيهم ضحكي ليخفى فسنّي ضاحكٌ والقلب باكِ

إنه يستعذب هذه الآلام من أجلها و يشقى بحبه فى مدينة تهب الحب من يشاء و بغير عناء . . مدينة كان طابعها الترف وكثر فيها المجون ، لكن العباس معنى بحبه يتطهر بنيران هذا الحب الواحد الذى أطال التعبد فى محرابه ما ينوف على الأربعين عاماً . وهو لا يحاول التخلص من آلام هذا الحب أبداً لأنها آلام مقدسة . . هى سر الحياة والوجود لديه ، فإذا قال :

قلبى إلى ما ضرّنى داعى يكثر أسقامى وأوجاعى
كيف احتراسى من عدوّى إذا كان عدوّى بين أضلاعى

فهو لا يعنى أكثر من إلقاء اللوم على قلبه . . تلك المضغة التى يقلبها الرحمن كيف يشاء دون أن يكون لنا فى الأمر حيلة ؛ حتى إنه ليقول صادقاً إنه يذهب إليها وهو يائس الرجاء منها ، لكنه الشوق إلى حبه يدفعه :

أسأت أن أحسنت ظنى بكم والحزم سوء الظن بالناسِ
يقلقنى الشوق فآتيكم والقلب مملوء من اليأسِ

إنه رجل قد فنى فى الحب ، بل هو صنعته الحب التى يؤثر الموت فى سبيلها ، وليس له فى الوجود من شغل سواها فهو يقول :

نصيرى الله منك إذا اعتديتِ وقد عذبت قلبى إذ جفوتِ
فإن يكُ ذا مغايظةً لحقدٍ فقد والله يا أملى أشتفيتِ
قضى بالقَتْك حبُّك فى عظامى وصيّرنى هواك كما اشتهيتِ
فلو شاء الذى بكُم أبتلانى لعجّل راحتى منكم بموتى

لكن يوجد فى أشعار العباس ما يلقى ظلالًا من الشك على مدى عفته ، و يجعل القارئ يتأمل معانيها الخفية ، و يحاول أن يستشفّ منها ما يبرئ العباس من مادية الحب كقوله :

ذكرتك بالتفّاح لما شممتُهُ وبالراح لما قابَلَتْ أوجُهَ الشرْب

تذكرتُ بالتفاح منك سوالفاً وبالراح طعماً من مقبّلك العَذْبِ

لكن هذه الأشعار قلة نادرة لا نستطيع أن نعتمد عليها مع الاستطراد بذكر عفته فى شعره وتواتر الأخبار عنها ، وخير ما نختم به هذا الحديث هو تلك التحية والأمنية العزيزة التى يدعو إليها العباس :

لو أن القلوب تجازى القلوب لما كان يجفو حبيبٌ حبيبا

ابن الرومي

مازالت المطابع الغربية والشرقية تخرج الدراسات عن ابن الرومى ، ويفضله المستشرقون على معاصره البحترى لما امتاز به شعره من صدق الشعور والتعبير عن انفعالات الوجدان الصادقة . وقد اتفق الغربيون والشرقيون على وضعه على رأس شعراء الهجاء فى اللغة العربية ، ولقّبه بعض المستشرقين[1] بالشاعر الساخر .

ولقد ولد علىّ بن العبـاس بن جريج الرومى ببغداد فى الثانى من رجب سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) وتوفى عام ٢٨٣ هـ كما جاء فى بعض الروايات بنفس المدينة فأدرك فى حياته ثمانية من خلفاء العباسيين آخرهم المعتضد ، وعاش فى أزهى عصور الأدب والشعر والعلم من حياة تلك الدولة وأشدها صراعاً على الحـكم .

عصر حفل بألوان الفتن والثورات وأنواع الدسائس والخيانات « فكان الخلفاء فيه عرضة للغضب والـكيد من الجند والوزراء ونساء القصور ، أما الأمراء والوزراء فـكانوا عرضة للغضب والـكيد من جميع هؤلاء ويزيد عليهم الخلفاء كلما قدروا على البطش وأمنوا على أنفسهم دسائس المشاغبين والمنافسين[2] » .

وقد انطبعت أحداث هذا العصر فى شعر ابن الرومى ، وقدم لنا منها صوراً حية دقيقة الوصف كما فعل فى فتنة الزنج التى ثارت بالبصرة :

كم أغصُّوا من شارب بشرابٍ   كم أغصُّوا من طاعم بطعامِ
كم ضنين بنفسه رام مَنْجًى   فتلقَّـوا جبينـه بالحسـامِ
كم أبٍ قد رأى عزيز بنيـه   وهو يعـلى بصـارم صمصام
كم رضيع هناك قد فطموه   بشبا السيف قبل حين الفطامِ

---

(١) Rhuvon Guest روفون جست فى حياة وأعمال ابن الرومى .

(٢) ابن الرومى للعقاد .

كم فتــاة بنـاتم الله بكر   فضحوها جهراً بغير اكتتام
صبحوهم فـكابد القوم منهم   طول يوم كأنه ألف عام

وقد اشتهر القرن الثالث الهجرى بكثرة المذاهب والشيع فى الإسلام وطول الجدل حول الآراء المختلفة فى الدين ، وكثر الشك والإلحاد ، واتهم الناس فى دينهم مما حدا بابن الرومى إلى الدفاع عن نفسه إزاء مثل هذه الاتهامات وتوضيح ما يرد فى شعره من صور الخمر وتأويلها كقوله :

لا المدام الحرام لـكن حلالٌ   سُــؤرنا يحثُّها طابخان
فهو لا خمر فى الحقيقة لـكن   هو خمر فى الظن والحسبان

ولا شك أن مثل هــذه البيئة تشجع على ظهور مصطنعى التدين الذين يختفون وراء مظاهر الدين وهم يضمون بين جوانحهم قلوباً لا تحفظ إلاً ولا ذمة . وكان ابن الرومى يوجس من أمثالهم خيفة ، ولا يتورع عن تصويرهم فى شعره صوراً ساخرة فاضحة كقوله فى صاحب لحية طالت :

لحية أهملت فسالت وفاضت   فإليها تشير كفُّ المشير
ما رأتها عين امرئٌ ما رآها   قط إلا أهلَّ بالتكبير
روعــة تستخفه لم يرعها   من رأى وجه مُنـكر ونـكير
فاتق الله ذا الجلال وغــيِّر   منكراً فيك ممكن التغيير

ولقد انتشرت فى تلك البيئة الرشى وعوامل الفساد ، وكان على المرء كى يعيش فيها أن يتسلح بسلاح الخبث والدهاء ؛ وهو ما حرمه ابن الرومى فلم تسعفه عبقريته ؛ وقعدت به طبيعتــه البسيطة التى لا تعرف الخبث عن بلوغ الآمال حتى قال مستنـكراً حاله :

أترانى دون الألى بلغوا الآ   مالَ من شرطة ومن كتاب ؟

وتجـار مثـل البهائم فازوا ... بالمنى فى النفوس والأحباب ؟
ويظلون فى المناعم واللذ ... ات بين الكواعب الأتراب
لهم المسمعات ما يطرب السا ... مع والطائفات بالأكواب
لهف نفسى على مناكير للنكـ ... ـر غضاب ذوى سيوف عِضاب
من كلاب نأى بها كل نأي ... عن وفاء الكلاب غدر الذئاب
أصبحوا ذاهلين عن شجن النا ... س وإن كان حبلهم ذا اضطراب
فى حبير منمنم وعبير ... وصحان فسيحة ورحاب
فى ميادين يخترقن بسا ... تين تمس الرءوس بالأهداب

وفى القصيدة تصوير رائع للعصر وانصراف القلة المترفة إلى ملذاتها ولهوها ، على حين تئن الأغلبية المحرومة تحت وطأة الحاجة والفقر .

ويتحدث النقاد عن ابن الرومى وانفراده بطابع خاص بين شعراء عصره ، ويرجع بعضهم ذلك إلى مزاجه اليونانى ، لكن ابن الرومى لم يكن يونانياً خالصاً بل كانت أمه فارسية كما يقرر هو فى قوله مفاخراً :

وكيف أغضى على الدنيّة والفـ ... ـرس خؤولى والروم أعمامى

ثم كانت نشأته وثقافته عربية خالصة ، فاشتركت بذلك عوامل كثيرة فى تكوين شخصيته ، لكن مما لاشك فيه أن ابن الرومى كان له خيال واسع خصب ، ويملك صورة دقيقة بارعة استطاع أن يسجل بها أحداث عصره ، ويحفظ لنا صورة ناطقة نابضة بالحياة تصور مجالس اللهو والسمر وما يجرى فيها من شرب وطرب ورقص وقيان أبدع فى تصويرهن فى غير قصيدة ؛ كقوله يصفهن وقد ارتدين ملابس شفّت حتى حاكت الهواء أو لاشىء :

من جوار كأنهن جوار ... يتسلسلن من مياه عِذابِ

لابسات من الشفوف لبوساً كالهواء الرقيق أو كالسراب
ومن الجوهر المضيء سناه شعلا يلتهبن أيّ التهاب

وقد كثر تردُّد ابن الرومى على مجالس الموسيقى والغناء لشغفه بهما وحبه لها . وقد كان شديد الكَلَف بالمجيدين والمجيدات حتى أنه رثى بعضهن بأجود شعره .

ولا يستغرب من شاعر أن يحب الموسيقى وهو الإنسان الرقيق الحس والشعور ، السريع التأثر بما يقع تحت حسه من أحداث .

و إنك لتحس الألم العميق يفيض به قلبه لما أجبر على ترك منزل له فقال :

وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضّاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنّوا لذالكا
فقد ألفته النفس حتى كأنه لها جَسَدٌ إنْ بانَ غُودِرَ هالكا

وهو يعلل هذا الشعور المرهف الذى يتأذى كثيراً بأنه نتيجة طبيعية لما وهب من عقل وذكاء :

يا ليت أهل العقل إذ حُرموا عُصموا من الشهوات والفتنِ
لكنهم حرموا وما عصموا فقلوبهم مرضى من الإحن
وهم أحس على بليتهم من غيرهم بمرارة الغبن

ولقد وصف ابن الرومى الطبيعى فأجاد فى الوصف وأضفى على صورها من روحه حياة عارمة تخلع على مناظرها الحركة والحس ، وأنطقها بالنجوى والحديث الذى توسوس به إلى الشاعر العاشق للجمال .

انظر إلى هذا « التابلوه » الحافل واللوحة الكاملة للغروب فى روضة من رياض بغداد :

إذا رنّقت شمس الأصيل ونفّضت على الأفق الغربى ورساً مذعذعا

وودعت الدنيا لتقضى نحبها   وشوّل باقى عمرها فتشعشعا
ولاحظت النوّار وهى مريضة   وقدوضعت خدًّا إلى الأرض أضرعا
كما لاحظت عوّاده عين مدنف   توجّع من أوصابه ما توجّعا
وظلّت عيون النور تخضل بالندى   كما اغرورقت عين الشجىّ لتدمعا
يراعينها صورا إليها روانيا   ويلحظن ألحاظاً من الشجو خشّعا
وبيّن إغضاء الفراق عليهما   كأنهما خلّا صفاء تودّعا
وقد ضربت فى خضرة الروض صفرة   من الشمس فاخضر اخضراراً مشعشعا
وأذكى نسيم الروض ريحان ظله   وغنّى مغنّى الطير فيه فسجّعا
وغرد ربعىّ الذباب خلاله   كما حثحث النشوان صنجاً مشرّعاً

واشتهر ابن الرومى بعد ذلك بالتقلب السريع بين الرضى والغضب فهو « ابن ساعته[1] وطوع الحاضر من إحساسه ؛ والنوبة الطارئة هى المفتاح الذى يفض به كل ما استغلق من أسرار نفسه على الجملة » وهذا ما يوضح أسباب التناقض الذى نلقاه فى شعره ، فنحن تارة نسمعه يقول :

فالآن حين أجدّ الشيب يطلبنى   أبادر الشيب باللذات عجلانا

لكى يعود فيقول :

فدع شربها إذ أصبح الرأس مشرقاً   محاذرة أن يصبح القلب مظلما

وقد لقى ابن الرومى من حياته صروفاً شتى وتقلبات عنيفة ، فعاش طوراً فى سعة واطمئنان وخفض من العيش ، وقاسى بعد ذلك ألواناً من الحرمان وضيق ذات اليد . وديوان الشاعر سجل دقيق لكل ما مرّ به من أحداث حياته التى تركت فى نفسه

(١) ابن الرومى للعقاد .

آثارها وندوبها العميقة لا سيما عند ما ضنّت عليه بأسباب الحياة الكريمة فى أواخر أيامه حين قال :

ثوبىَ الرث والثياب طراء وطعامى برغمى الجشوبُ
ومحلى عاريّة وجـــدارا ت بيوتى فكلها منكوبُ
وَمقيلى فى الصيف سخن بلا خيـ ـش فعظمى يكاد منه يذوبُ

وكأنى بالأيام قد آلت على نفسها متابعة ابن الرومى بالحادثات حتى تصهر عبقريته وتستخرج أجمل ما عنده من فن ؛ وقد كان الإبداع دائماً وليد الألم العبقرى .

فهو قد مات أبوه وتركه طفلا ، ثم ماتت أمه عند ما بلغ مبلغ الرجال ؛ وتتابع الموت على أسرته فغال أخاه ، ثم أولاده ، وزوجه جميعاً ؛ الواحد بعد الآخر .

وكان محمد أول من مات من أولاده بعد فقد أبيه ، وكان محمد هذا أثيراً عند أبيه ، فكاد الحزن يذهب بلبه . فقال يرثيه فى قصيدة طويلة من أروع شعره :

بكاؤكما يشفى وإن كان لا يُجدى فجودا فقد أودى نظيركما عندى
ألا قاتل الله المنايا ورَمْيَها من القوم حبّات القلوب على عمدِ
توخّى حمامُ الموتِ أوسطَ صِبْيَتِى فلله كيف اختار واسطةَ العقدِ
على حين شِمْتُ الخير من لمحاته وآنست من أفعاله آية الرشد
طواه الردى عنى فأضحى مزاره بعيداً على قرب ، قريباً على بعد

وكاد من شدة حزنه أن يعترض على قضاء الله ويرفض مثوبة احتسابه ولو كانت جنة الخلد :

وما سرّنى أن بِعْتُهُ بثوابهِ ولو أنه التخليد فى جنة الخلدِ
ولا بعته طوعاً ولكن غصبته وليس على ظلم الحوادث من معد
وإنى وإن مُتِّعتُ يابنىّ بعده لَذَاكره ما حنّت النيب فى نجد

بل إن ابنيه هذين سيكونان مبعثاً لتجدد الأحزان والذكريات :

أرى أخَوَيْك الباقيين كليهما   يكونان للأحزان أَوْرَى من الزندِ
إذا لعبا فى ملعب لك لذَّعا   فؤادى بمثل النار عن غير ما قصدِ
فما فيهما لى سلوةٌ بل حزازةٌ   يُهيجانها دونى وأشقى بها وحدى

فإذا ما مات ابنه الأكبر هبة الله وقد ناهز الشباب كان رثاؤه نشيجاً وعويلا ونفساً تتفطر وتذهب حسرات من الأسى واللوعة التى لا يرجى معها عزاء بل الموت بعده أفضل .

يا حسرتا فارقتنى فننَـاً   غضًّا ولم يثمر لى القَـنَنُ
أبُـنَىَّ إنك والعزاء معا   بالأمس لُفَّ عليكما كَفَنُ
تالله لا تنفـكّ لى شـجناً   يمضى الزمان وأنت لى شَجَنُ
ما أصبحت دنياى لى وطناً   بل حيث دارُك عندىَ الوطنُ

فإذا عُرف عن ابن الرومى بعد كل هاتيك الأحداث أنه كثير الطيرة ، شديد الإيمان بالتشاؤم ، و بتأويل الألفاظ فهلّا يلتمس له عذر ؟ وهو كان يعيش فى عصر فشا فيه التنجيم ، وآمن الناس جميعاً بالطوالع والنجوم . ومع ذلك فإن طيرة ابن الرومى لم تخلُ من صور مرحة ساخرة كقوله يهجو ابن طالب الـكاتب :

أُزيرق مشئومٌ ، أُحيمر قاشرٌ   لأصحابه ، نحسٌ على القوم ثاقبُ
وهل أشبه المرّيخ إلا وفعله   لفعل نذير السوء شبهٌ مقاربُ
وهل يتمارى الناس فى شؤم كاتب   لعينيه لون السيف والسيف قاضبُ

بل إن ابن الرومى متعلق بالحياة وملاذها رغم ما يلاقيه فيها من نصب وبلاء ، ورغم علمه أنها تسير به الموت ، وهو يعلم أن جمال الحياة فى شبابها ؛ لذا كثر تفجعه وتلفته إلى عهد الشباب الذى لا عزاء بعده إلا بالموت نفسه :

فمالى عزاء عن شبابى علمته سوى أننى من بعده لا أخلَّدُ
وأنَّ مشيبى واعد بلحاقه وإنْ قال قوم إنه يتوعـــدُ

وهو يأسى على ما فات مع الشباب من لهو النساء وإعجابهن الذى حل محله الإعراض والتعجب ، ويصور لنا كل هذه المشاعر فى صورة واقعية فكهة حيث يقول :

أأيام لهوى هل مواضيك عُوَّدُ ؟ وهل لشبابٍ ضل بالأمس مَنْشَدُ ؟
أقوم وقد شابت شواتى[1] وقوست قناتى وأضحت كِدْنتى[2] تتخدّد
ولذّت أحاديثى الرجال وأعرضتْ سُلَيْمَى وريّا عن حديثى ومَهْدَدُ
وبُدِّلَ إعجاب الغوانى تعجُّباً فهن روانٍ يعتبرن وصُـــدَّدُ

وقد كثرت الفكاهة اللطيفة والنكتة البارعة فى شعر ابن الرومى ، وكان مرجع ذلك إلى روح ساخرة تجيد السخر ، وتبالغ فى التصوير الساخر ؛ حتى إذا ما تعرض لذكر نفسه فإنه لا يرحمها من سخريته . . . استمع إليه يصف نفسه وهلعه من السفر بحراً :

فأما بلاء البحر عندى فإنه طوانى على روع من الروح واقبِ
ولو ثاب عقلى لم أدع ذكر بعضه ولكنه من هوله غير ثائب
ولِمْ لا ؟ ولو ألقيتُ فيه وصخرةً لوافيتُ منه القعر أولَ راسبِ
ولم أتعلم قط من ذى سباحة سوى الغوص ، والمضعوف غير مغالب
فأيسر إشفاق من الماء أننى مرٌّ به فى الكوز مر المجانب
وأخشى الردى منه على كل شارب فكيف بأمنيه على نفس راكب

(١) الشواة : جلدة الرأس .
(٢) الكدنة : الشحم واللحم .

و يصف أكل الموز فيقول :

يكادُ من موقعــه المحبوبِ يدفعه البلعُ إلى القــلوبِ

وهو يداعب صديقاً له وعده بأكلة سمك كل سبت ، ولكنه أخلف وعده فيسأله الشاعر :

ما لحيتاننـا جَفَتْنَـا وأنَّى أخلف الزائرون منتظريهم
قد أرحنا اعتلالهم وجعلنا سَبْتَهم جمعةً فما يشكيهم ؟
جاءنى السبت زورهم فأتينا من حفاظ عليـه ما يكفيهم
وجعلناه يوم عيـد عظيم فكأنا اليهود أو نحكيهم
واحتملنا مقالة الناس فينا ولهم كل ما احتملنا وفيهم

وتشيع السخرية بعد ذلك فى شعر ابن الرومى وقد أتت نتيجة طبيعية لهذا المزاج المضطرب والنفس المرسلة التى لا تقنع إلا بالمبالغة فى كل شىء . . . المبالغة فى اللهو وفى الأكل وفى الدرس وفى الشهوات . . . ثم لهذا العصر الذى يعيش فيه ، والذى جمع بين برديه المتناقضات كلها من علم وجدل وفقه وفلسفة وفساد فى السياسة وتكالب على اللهو وتصوف وزهد وظاهر يخالف الباطن . . . حتى وجه الشاعر نفسه يرى فيه التناقض فيسخر منه :

شغفت بالُخرَّد الحسان وما يصلح وجهى إلا لذى ورع
كى يعبد الله فى الفلاة ولا يشهد فيها مشاهد الجمع

وأنه ليصف الأشكال والحركات فيأتى لنا بصور كاريكاتيرية فى غاية الإبداع والإتقان . . . استمع إليه يصف الأحدب — ولا يرحم عاهته — فكأنه رجل يتضاءل ليتّقى صفعة على قفاه .

قصرت أخادعه وطال قَذَالهُ فكأنه متربص أن يُصْفَعا
وكأنما صُفِعت قَفَاه مرّة وأحسَّ ثانية لها فتجمّعا

وهذه الصورة الكاريكاتيرية لا شك فى أنها نوع من الهجاء الذى اشتهر به ابن الرومى وأقذع فيه حتى صار أشهر شعراء الهجاء فى عصره . . . لقد بلغ به الأمر أن هجا الناس جميعاً لأنهم لا يفهمون شعره بأفحش الهجاء فى قوله :

بحقهم إن باعدونى وقرّبوا   سواى وتقريب المباعد أوجبُ
خفافيش أعشاها نهارٌ بضوئه   ولازمها قطع من الليل ينهب
بهائم لا تصغى إلى شدو معبد   وأما على جافى الغناء فتطرب

وأنه ليهجو أبا سليمان المغنى فيصفه بأنه عفريت الصغار ، ويقذع فى هجومه ؛ لكن الصورة لا تخلو من فكاهة مؤلمة :

يشدو بصوت يسوء سامعه   تبارك الله بارئ النَّسَمِ
أبَحُّ فيه شذوذ حشرجة   منظومة فى مقاطع النغمِ
يفزَّع الصبية الصغار به   إذا بكى بعضهم ولم ينَمِ

لكنه فى هذه الصورة للبخيل يبالغ فى السخرية حتى يصوره لنا يتنفس لفرط شحه من منخر واحد وهى لا شك صورة رائعة مبتكرة :

يقتّر عيسى على نفسه   وليس بباقٍ ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره   تنفَّس من منخر واحدِ

حتى القيم الدينية لم تنجُ من سخريته فهو يقول للتائب العائذ بالله :

لا تخلط الحب بالتقوى   على المقاسى عذاب البعد والبينِ
ولم نبع قط دنيانا بآخرة   ومثلنا لا يبيع النقدَ بالدَّيْنِ

ولنختتم هذا الحديث بالإشارة إلى مكانة المرأة فى حياة ابن الرومى . والراجح مما جاء فى شعره وظروف بيئته أنه لم يعرف — فيما خلا زوجاته — القيان اللاتى كان يتردد الناس عليهن للهو والطرب ؛ لذلك فكل ما جاء فى شعره عن المرأة

وصف واقعى لحقيقة مفاتنها رغم اللمحات التى تنم — فى بعض الأحيان — عن افتتانه بالجارية الموصوفة كقوله فى وحيد المغنية :

يا خليلى تيَّمتنى وحيدُ ففؤادى بها معنًّى عميدُ
غادة زانها من الغصن قدٌّ ومن الظبى مقلتان وجيد
وزهاها من فرعها ومن الخدَّيـن ذاك السواد والتوريد
أوقد الحسن ناره فى وحيد فوق خدٍّ ما شابَهُ تخديدُ
فهى بردٌ بخدِّها وسلام وهى للعاشقين جهد جهيد
لم تَضِر قط وجهها وهو ماء وتذيب القلوب وهى قديد
ما لما تصطليه من وجنتيها غير ترشاف ريقها تبريد
مثل ذاك الرضاب أطفأ ذاك الوجه لولا الإباء والتصريد[1]

---

(١) الشرب دون الرى .

وأبكِ عنى فطالما كنت من قبـ ـل أعير الدموع للعشاق

بهذا البيت من الشعر لخص الشاعر حياته أبلغ تلخيص ، تلك الحياة التى طال فيها بكاؤه حتى اضطر لأن يستعير دموع الناس . . فهى لم تجر هنيّة إلا فى القليـل وكانت فى أغلبها قاسية على ذلكم الشاعر الشاب الذى عاجلته المنية عام ٤٠٦ للهجرة وهو فى السابعة والأربعين من عمره أكمل ما يكون قوّة وفتوّة بعد حياة حافلة بشتى الأحداث والخطوب والأمجاد والكرب . فهو قد ولد ببغداد عام ٣٥٩ هـ لأبى أحمد الموسوى نقيب الأشراف — وهو اللقب الذى فاز به الرضىّ فيما بعد — شريفاً فى أسرة علوية كريمة عريقة فى النسب ، فكان يدل على الناس بهذا الأصل ، ويفخر بتلك الصلة على الناس حتى أنه قال يوماً معرّضاً بحكومة الخليفة القادر بالله .

ما مقامى على الهوان وعندى مِقْوَلٌ صارم وأنفٌ حمىُّ
وإباء محلّق بى عن الضـيم كما راغ طائر وحشىّ
أى عذر له إلى المجد إن ذلّ (م) غلام فى غمده المشرفىّ
ألبس الذل فى ديار الأعادى وبمصر الخليفة العلوىّ
من أبوه أبى ، ومولاه مولا ىَ ، إذا ضامنى البعيد القصىّ
لفّ عرقى بعرقه سيّد النا س جميعاً محمدٌ وعلىّ
قد يذل العزيز ما لم يشمر لانطلاق وقد يُضام الأبىّ

وهو قد حرص على مكانة هذه الأسرة وهذا النسب الشريف فاجتهد فى تحصيل العلم حتى بلغ مكانه بين العلماء ، وألّف كتب (حقائق التأويل فى متشابه التنزيل) و (مجازات الآثار النبوية) و (تلخيص البيان من مجازات القرآن) ، وغيرها مما ضاع معظمه وفقدته المكتبة العربية .

وقد زاد من حرصه على تحصيل العلم تطلعه إلى الخلافة ورغبته فى الاتصال بأقطاب الزعماء فى الحواضر الإسلامية إلى جانب أمنيته فى أن يكون إمام الشعراء .

وقد كان له العذر كل العذر من العصر الذى نشأ فيه ، ففى القرن الرابع الهجرى شهدت اللغة العربية نهضة أدبية امتد أثرها إلى يومنا هذا ، كما ازدهى العصر ببحوث العلم وجدل الفلاسفة ، وأوغل الناس فى الحضارة ، وأجاد العلماء ، ولم يعد الناس يقنعون بالمواهب الفطرية كأسلافهم بل ذهبوا يصقلون مواهبهم بالدراسة والعلم ؛ حتى الخلفاء والملوك نبغ منهم الشعراء والعلماء .

وكان العراق خاصة روضــة من أجمل رياض الشعر ، ومتنزهاً لفحول الشعراء أمثال السلامى وابن سكّرة وابن حجّاج ، كما كان مسرحاً للفتن والأحداث تثيرها أهواء السياسة ونوازع السلطان .

لقد عاصر الرضىّ تلك الثورة التى قامت بين الديلم والأتراك وعادت على العراق بأبشع ألوان الوحشية والخراب ... لقد أبيحت فى تلك الثورة مدينة الكرخ فدام فيها الحريق أكثر من أسبوع ، وأحرق الرجال والنساء فى الدور والحمامات .

لــكن الحادثة التى أثرت فى نفس الرضى أبلغ الأثر هى سجن أبيه عام ٣٦٩ هـ ومصادرة أملاكه ، وكان شاعرنا لم يتجاوز العاشرة من عمره ، فتفجرت شاعرية الغلام الذى تفتّحت عيناه على فواجع الحياة وأحداث الزمان .

وتقدم الشريف الرضىّ فى عالم الشعر سريعاً ، وأصبحت له شخصيته المميزة التى تستهويها المعانى المجردة عن الحوادث الدامية ، وتؤثر الحديث عن أزمات النفس والوجدان على الحديث عن أحداث النزال والطعان والمحسوس من اللذات والأفعال .

ولقد أحسّ شاعرنا بعبقريته الشعرية التى لم تظفر بحظها الواجب من التقدير من معاصريها ، فراح يؤكدها فى شعره فى مواضع كثيرة ، ويرى أن هذه العبقرية لها من القوة آمالا تقاس إلى جانبه قوة السلاح :

له قـلمٌ إن جرى غَرْبُهُ . أمِنّا القَنَا وخشينا اليَرَاعا

وهى كفيلة بتحقيق المجد :

أَلَا من كنت شـاعرَهُ فإن المجـد شـاعرُهُ
وإن اللفـظ مطروحٌ على فـكرى جواهرُهُ

وهو فى البيت الأخير يعتز بقدرته اللغوية الفائقة على امتلاك ناصية اللغة .

ولم يكن الشريف يرضى بالشعر وعامته فحسب ، بل كان طموحه لا يقف عند حد وهو يغذى هذا الطموح بشعره ويذكر نفسه أبداً بأحلام المجد ويترنم بأمانيه ويرسم بشعره الطريق إلى تحقيق هذه الأمانى كان يقول :

اشـتر العزَّ بمـا بيـ ع فمـا العـز بغـالِ
بالقصـار الصـفر إن شئـ ت أو السـمر الطـوال
ليس بالمغبـون عقـلا من شرى عـزًّا بمـال
إنمـا يدّخـر المـا ل لحاجات الرجال
والفتى من جعل الأمـ ـوال أثمـان المعـالى

ويقول :

ولى أمل كصدر الرُّمح ماضٍ سوى أن الليالى من خصومى
ويمنعنى المـدامَ طروقُ همى فما يحظى بهـا إلا نديمى
وما أوفت على العشرين سنى وقد أوفى على الدنيا عزيمى[1]

وحديث الشريف عن المجد والفخر بنفسه وقدرته وجبروته حديث يطول وينبث فى أنحاء ديوانه وعلى مرِّ سنى حياته ، وفيه ذكرى تنفع الشـباب الطامحين كقوله :

---

(١) مذكر عزيمة .

سأمضى للتى لا عيبَ فيها وإن لم أستفد إلا عناء
وأطلب غاية إن طوّحت بى أصابت بى الحِمام أو العَلاء
أنا ابن السابقين إلى المعالى إذا الأمد البعيد ثنى البِطاء
إذا ركبوا تضايقت الفيافى وظلّ بعضُ جمعهم الفضاء
نمانى من أباة الضيم نامٍ أفاض علىّ تلك الكبرياء
شأونا الناس أخلاقاً لِدَاناً وأيماناً رطاباً واعتلاء
ونحن النازلون بكل ثغرٍ نُريقُ على جوانبه الدماء
ونحن اللابسون لكل مجدٍ إذا شئنا ادّراعا وارتداء
أقمنا بالتجارب كل أمرٍ أبى إلا اعوجاجًا والتواء

لكن شاعرية الشريف لم تقف عند حدود الفخر والمعالى وأطماعه فى دنيا السياسة والجاه ، بل كانت شاعرية فياضة يرفدها خيال خصب واسع أنطق الصخر والرياح والأطلال ، وكان حديثه متصلاً مع الطبيعة والزمان وكلما اتصل بذكرى من ذكريات حياته العارمة . . . استمع إليه يصف تلك النجوم الغزلة والرياح التى تمر بالدار فتتلفت إلى ما فيها :

كِلينى إلى ليل كأن نجومه تغازل طرفى عن عيون الجآذرِ
أمرُّ بدارٍ منك مشجوجة الثرى بمجرى نسيم الآنسات الغرائرِ
تمرُّ عليها الريح وهى كأنها تلفّتُ فى أعطاف تلك المقاصرِ

بل هو لا يرى فى العراق وبغداد سوى معانى الحب والهوى والأشواق والحنين إلى ذكرياته فى تلك الربوع الحبيبة إلى قلبه الذى يرى بغداد وهو فى أرض الحجاز :

أنطلب يا قلبى العراق من الحمى ؟ ليهنك من مرمى عليك بعيدُ

وأن حديث النفس بالشيء دونه رمال النقا من عالج[1] لشديدُ
ترى اليوم فى بغداد أندية الهوى لها مبدئٌ من بعدنا ومُعيدُ
فمن واصف شوقاً ومن مُشتكٍ حشا رمَتْهُ المرامى أعينٌ وخدودُ
وأن التفات القلب من بعد طرفه طوال الليالى نحوكم لَيَزِيدُ
ولمّا تدانى البين قال لىَ الهوى : رويداً ! وقال القلب : أين تريد ؟
أتطمع أن تسلى على البعد والنوى وأنت على قرب المزار عميدُ

وقد امتاز ديوان الرضى بميزة أخرى هى تلك الحكمة التى يرسلها على الناس فى غير تكلف ولا اصطناع ، والتى يفيض بها ديوانه فى مواضع عديدة . وإنى لأرجع هذه الظاهرة إلى أثر حادثة سجن أبيه ومصادرة أملاكه التى انتقلت به من العيش الرغيد إلى الفقر الشديد فى رعاية أمه التى أنفقت مالها فى رعاية أبنائها وتنشئتهم ولم تضن عليهم بشىء مما ملكت يداها .

لقد زلزلت تلك الحادثة حياة الرضىّ ، وتركته أمام الحياة وجهاً لوجه وهو بعد طفل ، فأخذت عيناه تتفتح على حقائق الدنيا وخلائق المجتمع والناس .

وهل أبلغ من الفقر مدرسة تنطق الحكمة وتكشف كل طلاء زائف عن وجه الحياة ، ولعل أول كشف أدركه الرضى هو ما سجّله فى قوله :

إذا قلّ مالى قلّ صَحْبِى ، وإنْ نَمَا فلى من جميع الناس أهلٌ ومرحبُ

ثم قوله :

يغرُّ الفتى ما طال من حبل عمره وترخى المنايا برهة ثم تجذبُ

واستمع إليه يعزّى النفس عن السجن بقوله :

كل حبس يهون عند الليالى بعد حبس الأرواح فى الأجسادِ

(١) اسم منطقة رملية .

وكيف تهدأ نفس الرضى وهو فى حرب مع الزمان أبداً ؟

يقولون نَمْ فى هدأة الدهر آمناً | فقلت ومَنْ لى أن يهادِنَنى الدهرُ ؟
هل الحرب إلا ما ترَوْنَ نقيصةً | من العمر أو عدمٌ من المال أو عسرُ

بل إن نفسه ذاتها من أعدائه الذين يناصبونه العداء :

النفس أدْنَى عدوٍّ أنت حاذرهُ | والقلب أعظمُ ما يبلى به الرجلُ

لكن تمهّلوا أيها الناس :

ولا تَزْرَعُوا شَوْكَ القَتَادِ فإنكم | جديرون أن تدموا به وتُشاكوا

وفى الثامنة عشرة من عمره يطلع الرضى على الناس بقصيدة يشكو بها دهره ، وينثر فيها حكمة الشيوخ وخلاصة تجارب الحكماء ، نجتزئ منها بهذه الأبيات :

بلوت وجرّبت الأخلاء مدة | فأكثر شيء فى الصديق ملالُ
وما صحبك الأوفون إلا أباعدٌ | إذا قلّ مالٌ أو نَبَتْ بك حالُ
ومن لى بخلّ أرتضيه ، وليت لى | يميناً يعاطيها الوفاء شمالُ
تميل بى الدنيا لى كل شهوة | وأين من النجم البعيد منال ؟
وتسلبنى أيدى النوائب ثروتى | ولى من عفافى والتقنع ل
أرى كل زاد ما خلا سدّ جوعة | تراباً وكل الماء عندىَ
ومثلى لا يأسى على ما يفوته | إذا كان عقبى ما ينالُ
كأنا خُلقنا رضـة لمنية | فنحن إلى داعى المنون
وأنعم . الحياة بهائم | وأثبت منا فى التراب جبال

يقول الدكتور زكى مبارك فى وصف نكبة الرضى : « وزاد فى هول تلك المأساة أنها صادفت فتى رقيق الحس ، مرهف القلب ، شاعر الروح ، فصيَّرته وتراً حنّاناً يجيد تصوير الأسى وترجيع الأنين » .

وقد كان الرضى كذلك . وأول تفجعه كان من أجل أبيه السجين . . استمع إليه يصف حاله بغيبة أبيه :

لما ذكرتك عاد قلبى شوقه فبكين عنه مدامع الأقلام
خلقتنى زرعاً فطلت وإنما ذاك الغرار نمى[1] إلى الصمصام
أكدت[2] على الأرض من أطرافها وتدرعت بمدارع الإظلام
وعهدتها خضراء كيف لقيتها أبصرت فيها مسرحاً لسوامى
أشكو وأكتم بعض ما أنا واجدُ فأعاف أن أشكو من الإعدام[3]

وقد انتقل هذا التفجع وتلك اللوعة إلى أشعاره فى الحب والغزل التى اشتهرت بصدق العاطفة واحتدام الوجد ، لكنها امتازت إلى جانب ذلك بميزة فريدة صبغت الكثير من غزله ؛ تلك هى الحرب العنيفة القائمة فى نفس الرضىّ بين العفة والانطلاق . . . بين ترك النفس على هواها وبين التصون والتحرز استعداداً المركز المأمول فى رياسة العلويين أو الوزارة أو الخلافة . . . بين قلبه وطبيعته البشرية وبين آماله وطموحه إلى مراكز تتطلب الحلم والوقار .

تأمل هذه الأبيات التى يفضح بها نفسه ويعترف بأنه يأتى الجمال متصنعاً التجهم فى حين يفيض قلبه وجداً ورقة .

ومقبِّل كفِّى وددت لو أنه أوما إلى شفتىّ بالتقبيل
جاذبته فضل العتاب وبيننا كبر الملول وذلة المملول
ولحظت عقد نطاقه فكأنما عقد الجمال بقُرْطُقٍ[4] محلول
جذلان ينفض من فروج قميصه أعطاف غصن البانة المطلول

(١) حد السيف .
(٢) غلظت .
(٣) الفقر .
(٤) ثوب رقيق .

من لى به والدار غير بعيدة   من داره والمال غير قليل

لكنه عندما يثوب إلى نفسه يدافع عن وقاره بمثل قوله :

وأكذب بالتصوّن مدّعيهم   وألجم قائليهم بالعفاف

لكن الحقيقة أن الرضى كان يدارى الناس وهو يحمل هوى عنيفاً بين أضلعه . . . أليس هو القائل :

أنا الفداء لظبى ما اعترضت له   إلا وهتّك شوقاً ما أستّرُهُ

لاحظته والنوى ترمى ملاحظه   بعارض من رشاش الدمع يمطره

ما انفك من نَفَس للوجد يكتمه   تحت الضلوع ومن دمع يوفره

أهوى إلىّ يداً عقد العناق بها   والبين يعذله والحب يعذره

وقال : تذكر هذا بعد فرقتنا ؟   فقلت : ما كنت أنساه فأذكره

ولا يرى الرضى مندوحة من استعمال الرمز فى أشعاره ، فإذا قال : آل ليلى : فربما كانوا آل بثينة أو سواها ، و إذا قال : « أراك الحمى » ، فلعله يقصد أى مكان سواه كقوله :

يا أراكَ الحمى ترانى أراكا   أىّ قلب جنى عليه جناكا

أعطش الله كل فرع بنعما   ن من الماطر الروى وسقاكا

أى نور لنـــاظرىّ إذا ما   مرّ يوم وناظرىَ لا يراكا

لا يرى السوء من رآك مدى الد   هر وحيّا الإله من حيّاكا

ورعى كل عاشق لك دلته   ه صباً طلّة على ريّاكا

أو قوله :

عشقت ومالى يعلم الله حاجة   سوى نظرى والعاشقون ضروبُ

ومالى يالميـاء بالشعر طائل   سوى أن أشعارى عليك نسيبُ

أحبك حبًّا لو جزيت ببعضه أطاعك منى قائد وجنيبُ
وفى القلب داء فى يديك دواؤه ألا رب داء لا يراه طبيب

فهل حقا أن الرضى لم يكن يروم من معشوقته سوى النظر ؟ أم تراه كان — كما قال بعض نقاده — يعشق العشق ويحب الحب ويقول الشعر فى النساء كما قال ابن الفارض الشعر فى الخمر دون أن يتذوقها .

هل كان الرضى يعيش فى عالم خاص به من صنعه . . . عالم يبصر الناس فيه بالآذان :

فاتنى أن أرى الديار بطرفى فلعـــلى أرى الديار بسَمْعى

ويتحدث فيه النفَس :

خذى حديثك عن نفسى من النَّفَسِ وجد المشوق المعنّى غير ملتبسِ
الماء فى ناظرى والنار فى كبدى إن شئت فاغترفى أو شئت فاقتبسى

لا . . . إن الشريف الرضى قد لفحه الهوى وصهر قلبه بناره وأذاب نفسه حتى صارت هواء تحمله الريح لتلقى به من أحب :

خذى نَفَسى ياريح من جانب الحِمى فلاقى به ليلاً نسيمَ رُبَى نَجْدِ
فإنَّ بذاك الحىّ إلفاً عهدته وبالرغم منى أن يطول به عهدى

بل استمع إلى هذا التصوير الواقعى الرائع لهذا اللقاء اللطيف الذى ينم عنه الطيب ، ويشى به البرق ، وتغار منه الطبيعة جميعا :

وأمست الريح كالغيرى تجاذبنا على الـكثيب فضول الريط واللمم
يشى بنا الطيب أحياناً ، وآونة يضيئنا البرق مجتازاً على إضم
وأكتم الصبح عنها وهى غافلة حتى تـكلم عصفور على علم

ولعل من ألوان التفجع والأسى الأخرى الفريدة فى ديوان الرضى مرثياته

فى النساء على قلة احتفال العرب فى عهده برثاء النساء ، ولعل لأمه التى رعته فى نـكبته ، وكانت تقيه النوائب ؛ الفضل الأول فى ظهور احتفال الرضى بالنساء وتقديره لهن حق قدرهن فـكان رثاؤه لها من أبلغ مراثيه :

فبأى كف أستجنُّ وأتقى صرف النوائب أم بأىّ دعاء

ومن المموّل لى إذا ضاقت يدى ومن المعلِّل لى من الأدواء

ومن الذى إن ساوَرَتْنى نـكبةٌ كان الموقَّى لى من الأسواء

لو كان يُبلغك الصفيح رسائلى لو كان يُسمعك الترابُ ندائى

لسمعت طول تأوُّهى وتفجُّعى وعلمت حسن رعايتى ووفائى

كان ارتـكاضى فى حشاك مسببًا ركض الغليل عليك فى أحشائى

ولا يسعنا أن نختتم هذا الحديث دون أن نذكر حجازيات الشريف التى دان بها أدب العرب ، والتى قالها فى أماكن لا يحل فيها الرفث ولا الفسوق ، وقالها وهو نقيب الأشراف و إمام الحج ؛ لـكنه نفّس بها عن نفثات صدر اضطربت فيه العواطف ، وجاش بها و بفورانها فما استطاع لها كتمانا ، فأرسلها ترانيم تحلّت بصفاء الروح وسمو العاطفة ، فغفر له معاصروه هتافه للجمال و إشادته بصبوات نفسه ولوعات هواه .

ولنصغ معاً إلى بعض هذا النشيد من الحجازيات الذى يوضح مناسك الحج فى شعر مرقص مطرب ، وكأنى به قد وضعه الرضى ليحدو به الحادى ركائبه فى ليالى الصحراء بين العراق والحجاز :

من مُعيدٌ لىَ أيا من بجزع السمراتِ[1]

وليـــــالىّ بجمع ومنًى والجمــــــراتِ

---

(١) اسم موضع .

وظباء حاليــــات كظباء عاطـــلاتِ
رائحـات فى جلابيـــب الدجا مختمرات
راميات بالعيون النجـــل قبـل الحصبات
ألِعَقْرِ القلب راحوا أم لعقر البـدنات
كيف أودعت فؤادى أعينـــاً غير ثقات
أيها القانص ما أحسنـــت صيـد الظبيات
فاتَك السرب وما زوّ دت غير الحسرات
موقفـاً يجمع فتيـا ن الهوى والفتيات
نتشـا كى ما عنانا بكلام العـــبرات
كم نأى بالنفر عنا من غزال ومهاة
آه من جيد إلى الدا ر كثير اللفتات
وغرام غـير ماضٍ بلقـــاء غير آت

ولـكن أى مناسك الحج لا يحمل له الرضى ذكرى جميلة فى قلبه ؟ تأملوا معى هذه الأبيات ومنها تدركون المعانى التى تدور حولها الحجازيات . . إنها ذكريات تخلف دائماً لوعة فى قلبه لأنها غرس لحظات قصار يعقبها مدى الدهر رغم حساسية الرضى الشديدة للجمال وتدلهه المغرق فى عبادة الحسن الذى يجمع له موسم الحج ألوانه العجيبة من مختلف بقاع العالم :

ألا ياليالى الخيف هل يرجع الهوى إليـكن لى لاجازكنّ ندى القطر
فيا دين قلبى من ثلاث على مِنى مضين ولم يبقين غير جوى الذكر
ورامين وهناً بالجمار وإنما رموا بين أحشاء المحبين بالجمر
رموا لا يبالون الحشا وتروّحوا خليين والرامى يصيب ولا يدرى

وقالوا غداً ميعادنا النفر عن منى   وما سرنى أن اللقاء مع النفر
ويا بؤس للقرب الذى لا نذوقه   سوى ساعة ثم البُعاد مدى الدهر

إن هذه الذكريات لا تفتأ تعاوده فى العراق ، بل إن سهامها تصيب قلبه من مكة :

يا ظبية البان ترعى فى خمائله   ليهنك اليوم أن القلب مرعاكِ
الماء عندك مبذول لشاربه   وليس يرويك إلا مدمع الباكى
هبّت لنا من رياح الغور رائحة   بعد الرقاد عرفناها بريّاك
ثم انثنينا إذا ما هزنا طرب   على الرحال تعلّلنا بذكراك
سهم أصاب وراميه بذى سَلَمٍ   من بالعراق لقد أبعدت مرماكِ
أنت النعيم لقلبى والعذاب له   فما أمرّك فى قلبى وأحلاك
عندى رسائل شوق لست أذكرها   لولا الرقيب لقد بلّغتها فاكِ
هامت بك العين لم تتبع سواك هوى   من علّم العين أن القلب يهواك
يا حبّذا نفحة مرّت بفيك لنا   ونطفة غمست فيها ثناياك

أنا لا أريد أن أظلم الشريف ، لكن تأملوا هذه الأبيات المحيرة التى تحمل صوراً من الواقع والخيال . . . من المادة والروح إلى أيهما تنتمى :

وألمستنى وقد جدّ الوداع بنا   كفًّا تشير بقضبان من العَنَم[1]
وألثمتنى ثغراً ما عدلت به   أرْىَ الجنى[2] ببنات الوابل الرَّذِم[3]
ثم انثنينا وقد رابت ظواهرنا   وفى بواطننا بُعدٌ من التهم

(١) شجرة حجازية ذات ثمار حمراء .
(٢) عصير الفواكه ممزوج بماء الغيث .
(٣) المتدفق .

وحبذا نهلة من فيك باردة   يُعدى على حرّ قلبى بردها بفمى
عجبت من باخل عنى بريقته   وقد بذلت له دون الأنام دمى

الحجازيات معجزة الشريف الرضى التى بلغ بها الذروة فى الشعر ، وقد ختمها بقصيدة يائية قالها وقد عجز عن اللحاق بالحجيج :

أقول لركب رائحين لعلكم   تُحلّون من بعدى العقيق اليمانيا
خذوا نظرة منى فلاقوا بها الحمى   ونجداً وكثبان اللوى والمطاليا
ومروا على أبيات حى برامة   فقولوا لديغ يبتغى اليوم راقيا ..
فوا لهفتى كم لى على الحى شهقة   تذوب عليها قطعة من فؤاديا
فيا جبل الريان إن تعرَ منهم   فإنى سأكسوك الدموع الجواريا

أعيروا الرضى دموعكم ليكسو بها جبال الذكريات فلطالما أعار العاشقين دموعه .

المتنبى

وإنى لمن قوم كأن نفوسهم ... بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

فلا عبرت بى ساعة لا تعزنى ... ولا صحبتنى مهجة تقبل الظلما

ومن غير المتنبى يحمل بين جنبيه كل هذه الكبرياء والغرور ، ومن غيره يفيض شعره بمثل هذه الشراسة والقوة والتحدى . . . التحدى للناس ، والتحدى للظروف التى نشأ فيها ، والتحدى للبيئة التى ولد فيها .

وأية بيئة كانت تلك ؟ لقد ولد أبو الطيب أحمد بن الحسين بالكوفة سنة ٣٠٣ هـ فى محلة تسمى كندة ينسب إليها ، والعراق يومئذ يمور بالفتن والدسائس والظلم الاجتماعى والانحلال الخلقى ؛ فالدماء مستباحة ، والحرمات منتهكة ، والرشى متفشية ، والثورات تتوالى ؛ فالثورة البابلية فى أول القرن الثالث ، وثورة الزنج فى أواسط ذلك القرن ، وثورة القرامطة فى آخره وأثناء القرن الرابع ورقعة الإمبراطورية الإسلامية يتنازعها الولاة والمغامرون الطامعون ، وكل شىء حوله لا يقر له قرار ، على حين بلغت الحياة الثقافية أرقى مدى ، وأخذت الثقافة الإسلامية والعلم العربى والفن الشرقى تؤتى أشهى ثمارها وأروع إنتاجها . وقد فشا العلم بين الناس بمختلف طبقاتهم ، فسمت كل طبقة بنظرها ترجو أن تظفر بما يحسن أحوالها ، وكثر ظهور المغامرين الطامحين إلى المجد والعلى .

وسط هذه البيئة ولد أبو الطيب لأبوين فقيرين ، وقيل إن أباه كان سقاء ؛ لكن أبا الطيب اختلف إلى المدرسة ، واتجه إلى العلم ، وطمحت أبصاره منذ الصبا الباكر إلى المجد . وكان شعوره عميقاً بهوان منبته ، فتجاهل هذا الأصل فى ديوانه تجاهلا تاماً ، وحاول أن يفرض على الزمن شخصيته ، وأن يقنع العالم بجدارته لأن تشرف به الأقوام لا أن يشرف هو بالانتساب إلى أحد :

لا بقَوْمى شَرُفت بل شَرُفوا بى ‌ و بنفسى فخرتُ لا بجدودى

وهو لم يذكر أحداً من أهله فى ديوانه سوى جدته لأمه التى حنت عليه وغذته بعطفها . ومع ذلك فهى لا تعلو إلا بأنها جدته . . . فقد قال فى رثائها :

ولو لم تـكونى بنت أكرم والد ‌ لـكان أباك الضخم كونك لى أمّا

وفى سبيل العلم ذهب إلى البادية وهاجر إلى العلماء «وطلب الأدب وعلم العربية ، ونظر فى أيام الناس ، وتعاطى قول الشعر من حداثته حتى بلغ الغاية التى فاق فيها أهل عصره وطاول شعراء وقته » .

وفى سبيل المجد والثروة تنقل فى البلدان ما بين حواضر الشام ومصر والعراق حتى لقى مصرعه وهو فى طريقه إلى سيف الدولة مرة ثانية من العراق على أيدى قطاع الطرق عام ٣٥٤ هجرية على أرجح الأقوال .

وقد قيل فى تعليل اسمه « المتنبى » إنه ادّعى فى شبابه الباكر النبوّة . واستدل القائلون بذلك بأبيات من شعره كقوله :

أنا فى أمّـة تداركها اللـــــهُ ‌ غريبٌ كصالح فى ثمودِ

قوله :

ما مُقامى بأرض نخلة إلا ‌ كمقام المسيح بين اليهودِ

ولا يستبعد على من كان فى مثل طموح المتنبى أن يدّعى شيئاً من هذا ليلتف الناس حوله كما روى عنه بعض المؤرخين زاعمين أن هذا كان سبب حبسه وتقييده .

ولعل مما يؤيد دعوى النبوة ما كان يصطنعه المتنبى فى شعره من الفلسفة ومعانيها ، وما يحاوله دائماً من فلسفة الحياة والناس كقوله :

نبكى على الدنيا وما من مَعْشَرٍ ‌ جمعتهمُ الدنيا فلم يتفرّقوا

أين الأكاسرة الجبابرة الأولى ‌ كنزوا الـكنوزَ فما بَقِينَ ولا بَقُوا

من كل من ضاق الفضاء بجيشه حتى ثوى فحواه لحد ضيّقُ
خُرْسٌ إذا نُودوا كأن لم يعلموا أن الكلام لهم حلال مطلقُ
فالموت آتٍ والنفوس نفائسٌ والمستعز بمـا لديه الأحمقُ

وهو يناقش آراء الدهريين القائلين بفناء الأرواح والمؤمنين بالبعث ، و يخلص إلى أن التفكير فى الدنيا والخوف على فراقها تعب ، كما أن اليقين بهذا الفراق تعب آخر ؛ فالنفس بين حالين من التعب والعجز :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجَب والخلف فى الشجَبِ[1]
فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تَشْرَكُ جسم المرء فى العَطَبِ
ومن تفكّر فى الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب

و يتحدث عن الدنيا وانتقالها بين الورثة وزوالها الحتم عن صاحبها مهما طالت صحبته لها فى قوله :

تملكها الآتى تملُّكَ سالبٍ وفارقها الماضى فراق سليبِ
ولا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر الفتى لولا لقاء شَعوب[2]
وأوفى حياة الغابرين لصاحب حياة امرئ خانته بين مشيب

وقد امتاز كثير من شعر المتنبى بالمبالغة أيضاً حتى يمكن القول بلا حرج أن المبالغة من خصائص المتنبى فى الشعر ، وحتى خرج بها أحياناً من حدود المعقول إلى السخف والإسفاف كقوله فى مدح ابن زريق :

بَشَرٌ تصوّر غاية فى آية تنفى الظنون وتفسد التقييسا
و به يُضَنُّ على البرية لا بهـا وعليه فيهـا لا عليها يُوسَى
لو كان ذو القرنين أعملَ رأيه لمـا أتى الظلمات صرن شموسا

---

(١) الهلاك .
(٢) شعوب : علم للمنية .

أو كان لُجُّ البحرِ مثلَ يمينه   ما انشق حتى جاز فيـه موسى
أو كان للنيران ضوء جبينه   عُبِدَتْ فـكان العاملون مَجُوسا

أما التعقيد فهو شائع فى شعر المتنبى بما لا يقل عن المبالغة ، ولعل ذلك مرجعه إلى ما كان يجهد به نفسه فى اصطناع المعانى واختيار الألفاظ حتى ليبدو فى بعض شعره صانعاً لا شاعراً يضع الكلمات فى قوالب صناعية بدلا من أن يعبر عن خلجات نفسه ونبضات قلبه فى شعر مرسل على سجيته ووفق طبيعته .

ولعل هذا العناء الذى كان يحتمله أبو الطيب يرجع إلى حرصه على مجانبة الخطأ وعدم تمكين حاسديه — وهم كثيرون — من نقده أو السمو إلى صنعته وإلى طبقة ممدوحيه ، وكان بعضهم من كبار الشعراء كسيف الدولة وابن العميد :

فاستمع إليه يتحدث عن ناقته التى تمضى الليل تسير فى الصحراء و يسير الهزال فى جسدها هاوية و يأكل شحمها :

فتبينت تُسْئِدُ مُسْئِداً فى نيِّها[1]   إسآدها[2] فى المهمه الإنضاء[3]

لسنا فى حاجة بعد ما قدمنا من أمثلة من شعر المتنبى إلى دليل جديد على عمق شعوره بتفوقه وامتيازه ذلك الشعور الذى ما فتئ يكرره فى شعره ، وكأنى به يستكثر الأعداء لا سيما من الشعراء والأدباء ؛ وكيف لا وهو يقول :

أنا السابق الهادى إلى ما أقوله   إذ القول قبل القائلين مَقُولُ

بل حتى فى المديح لاينسى نفسه ، وكثيراً ما يشاطر الممدوح القصيدة إن لم يزد عليه فهو حين يمدح كافوراً يقول له :

وفؤادى من الملوك وإنْ كا   ن لسانى يُرَى من الشعراء

(١) الشحم .
(٢) إدمان سير الليل .
(٣) مصدر أنضى : أى هزله .

وقد كان نتيجة لهذا الشعور شديد الكبرياء حتى أنه لما فوتح فيمن ذمه من شعراء بغداد أجاب بقوله : إنى فرغت من إجابتهم بقولى لمن هم أرفع طبقة منهم فى الشعراء :

أرى المتشاعرين غرُوا بذمِّى ومن ذا يحمدُ الداء العضالا
ومن يكُ ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ يجدْ مُرًّا به الماءَ الزلالا

وهل أبلغ فى التعبير عن كبريائه من قوله :

لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم أنى الفتى
وأنى وَفَيْتُ وأنى أبَيْتُ وأنى عَتَوْتُ على من عتا
وما كل من قال قولا وفَى ولا كل من سيم خسفاً أبَى

بل إن هذه الكبرياء كثيراً ما قادته إلى الغرور الذى أوغر عليه قلوب الناس كقوله فى حضرة سيف الدولة :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأننى خير من تسعى به قَدَمُ
أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعتْ كلماتى من به صممُ
الخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلمُ

ومع كل هذا فقد كان المتنبى شاعراً ينفعل بما يقع عليه وجدانه وحسه ويجيد وصفه فى شعر تخالطه الرقة رغم ما يعلو صورته من تهاويل القوة . . . . استمع إليه يصف بحيرة :

لولاك لم أترك البحيرة والـغور دَفِء وماؤها شَبِمُ
والموج مثل الفحول مزبدة تهدر فيها وما بها قَطَمُ
والطير فوق الحباب تحسبها فرسانَ بُلْقٍ تخونها اللُّجُمُ
كأنها والرياح تضربها جيشاً وغًى : هازمٌ ومنهزمُ

كأنها في نهارها قمرٌ حفّ به من جنانها ظُلَمُ
تغنت الطير في جوانبها وجادت الأرضَ حولها الديمُ

وأنه ليعقد مقارنة لطيفة بين نساء الحضر ونساء البدو ؛ فيها الكثير من سذاجة التعبير و بدائيته ، حتى أنه ليشبه نساء الحضر بالمعيز ونساء البدو بالآرام[1] :

ما أوجهُ الحضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرعابيبِ
حُسن الحضارة مجلوب بتَطْرِيَةٍ وفي البداوة حسنٌ غير مجلوبِ
أين المعيزُ من الآرام ناظرة وغير ناظرة في الحسن والطيبِ
أفدي ظباء فلاةٍ ما عرفن بها مضغَ الكلام ولاصبغَ الحواجيبِ
ولا برزن من الحمّام مائلة أوراكهن صقيلات العراقيبِ
ومن هوى كل من ليست مموِّهةً تركتُ لون مشيبي غير مَخْضُوبِ

لكن المتنبي دائم الخوف من الاتهام بالضعف ، ولذلك تراه يصبغ معظم شعره بالعنف ، وهو دائم الحديث عن القوة والقتال منذ صباه الباكر . فاستمع إليه في رثائه لمحمد بن إسحاق التنوخي ، فهو يحدثنا عن شجاعة الميت وحسن بلائه في الحرب وسيوفه التي تشرق من أغمادها ثم تغرب في رؤوس أعدائه :

يزور الأعادي في سماء عجاجه أسنَّته في جانبيها الكواكبُ
فتسفر عنه والسيوف كأنما مضاربها مما انفللن ضرائبُ
طلعن شموساً والغمود مشارقٌ لهنّ وهامات الرجال مغارب

وهو يكثر من الحروب ووصف المعارك حتى جواده كان له نصيب كبير من شعره فهو يصفه ساعة القتال بقوله :

---

(١) الظباء الخالصة البياض .

وتسعدنى فى غمرة بعد غمرة[1] سَبوح[2] لها منها عليها شواهدُ
تثنَّى على قدر الطعان كأنما مفاصلها تحت الرماح مَراودُ[3]
محرمة أكفال خيلى على القنا محللة لبّاتها والقلائد

إلا أن قصائد المديح تكوّن الجزء الأكبر من ديوان المتنبى وهو كان يلجأ إليه تحت ضغط الحاجة أحياناً ولتحقيق آماله العراض فى أكثر الأحيان .

لقد كان رجلا واسع الأمل يريد أن يكون والياً أو أميراً ، وهو يلتمس الطريق إلى ذلك بالتنقل بين المقاطعات ومدح الحاكين ، فهو يقول لكافور الإخشيدى :

إذا كسب الناس المعالىَ بالنَّدَى فإنك تعطى فى نداك المعالِيَا
وغير كثير أن يزورك راجلٌ فيرجع ملكا للعراقين واليـا

وقبل أن يتصل بكافور أقام فى رعاية سيف الدولة على بن حمدان زمناً طويلا ، فأعانه على تحقيق بعض آماله ، وأعاشه فى خفض من العيش ونعمة .

وفى حماه كتب المتنبى أروع شعره وأجمل مدائحه مثل قوله :

إن كان قد ملك القلوب فإنه ملك الزمانَ بأرضه وسمائهِ
الشمس من حسّاده ، والنصر من قرنائه ، والسيف من أسمائه
أين الثلاثة من ثلاث خلاله من حسنه ، وإبائه ، ومضائهِ
مضت الدهور وما أتين بمثله ولقد أتى فعجزن عن نُظرائهِ

ولقد رأينا كيف أن المتنبى يعشق القوة ويمجدها . ومن كان مثله فهو ولا شك ينفعل بما يراه من آثار هذه القوة فيترجم عن شعوره أجمل الترجمة ، لذلك نرى المتنبى يجيد وصف المعارك وقد خاض بعضها مع سيف الدولة فسجلها وخلدها بشعره ، وهو يمدحه ويصف جيشه فى قوله :

(١) الشدة . (٢) الفرس كأنها تسبح فى جريها .
(٣) جمع مرود وهو حديدة تدور فى اللجام .

وما الفرق ما بين الأنام وبينه إذا حذر المحذور واستصعب الصعبا
لأمر أعدّته الخلافة للعدا وسمّته دون العالم الصارمَ العضبا
ولم تفترق عنه الأسنة رحمةً ولم يترك الشامَ الأعادى له حُبّا
ولكن نفاها عنه غيرَ كريمةٍ كريمُ النثا ما سُبَّ قط ولا سَبّا
وجيش يثنّى كل طودٍ كأنه حريق[1] رياح واجهت غُصُنًا رَطْبَا
كأن نجوم الليل خافت مُغَاره فمدّت عليها من عجاجته حُجبا

لذلك لم تكن ندرة شعر الغزل فى ديوانه بالأمر المستغرب وهو إذا تعرض للنسيب تكلف القول وأسمعنا صنعة ميتة لا حياة بها ولا عاطفة كقوله :

القلب أعلم يا عذول بدائهِ وأحقُّ منك بجفنه وبمائهِ
فوَمَنْ أحبّ لأعصينّك فى الهوى قَسَمًا به وبحسنه وبهائه
أأحبه وأحب فيه ملامة ؟ إن الملامة فيه من أعدائه

ولا يشذ عن هذه القاعدة إلا النادر من شعر الشباب الباكر كقوله فى إحدى مدائحه :

أمن ازديارك فى الدجى الرقباء إذ حيث أنت من الظلام ضياء
قلق المليحة وهى مسك هتكها ومسيرها فى الليل وهى ذُكاء
أسفى على أسفى الذى دلّهتنى عن علمه فيه علىّ خَفَاء
وشكيّتى فقدُ السقام لأنه قد كان لما كان لى أعضاء
مثلتِ عينك فى حشاى جراحة فتشابها كلتاهما نجلاء

والشاعر نفسه يعترف بأنه ليس من أهل الغزل والعشق . وأن الخيل الجدّة السريعة السير خير من كل امرأة فى مشيتها استرخاء وتثاقل :

---

(١) الريح الشديدة .

ألا كل ماشية الخَيْزَلَى فدا كل ماشية الهَيْذَبَى

ويقول مستنكراً حال العاشقين :

ولِلخَوْدِ منى ساعة ثم بيننا فلاة إلى غير اللقــاء تُجابُ
وما العشق إلا غِرّةٌ وطماعةٌ يعرِّض قلبٌ نفســه فيُصابُ
وغير فؤادى للغوانى رَمِيَّــةٌ وغير بنــانى للزجاج[1] رِكَابُ

بل هو يشبه نفسه بالصخرة فى قصيدة أخرى رغم ما فى القصيدة من شعور صادق بالألم والمرارة التى تحزُّ فى نفسه لما لقيه من فشل فى أسفاره .

عيد بأية حالٍ عُدْتَ يا عيدُ بما مضى أم لأمرٍ فيك تجديدُ
أما الأحبّــة فالبيــداء دونهم فليت دونك بيــداً دونها بيدُ
لم يترك الدهر من قلبى ولا كبدى شــيئاً تتيمــه عينٌ ولا جيــدُ
يا ســاقِيَىَّ أخمر فى كؤوسكما أم فى كؤوسكما همٌّ وتسهيدُ ؟
أصخرةٌ أنا مالى لا تحركنى هذى المدام ولا هذى الأغاريدُ
ماذا لقيتُ من الدنيا ؟ وأعجبها إنى بمــا أنا باكٍ منــه محسُودُ

والمتنبى بعد ذلك يجيد السخرية ، وهو يسخر دائماً من الضعف والضعفاء . ومن أروع ما طالعت له تلك الصورة الساخرة الممعنة فى الاستهجان لاثنين اشتركا فى قتل فأر ... فأر واحد يشترك رجلان فى قتله بدلا من أن يقاتلا فى سبيل حريتهما أو رفع المظالم عن قومهما . . . لقد استكانا للذل حتى ظنّا أن أرفع معانى البطولة تتمثل فى قتل فأر . فاستمع لرأى المتنبى فيهما :

لقد أصبح الجُرَذُ المستغيرُ أســير المنــايا صريع العَطَبْ
رماه الــكنانى والعــامرى وتلّاه للوجــهِ فعــلَ العَرَبْ

---

(١) كأس الخمر .

كِلاَ الرجلين أتَّلى قتله   فأيكما غلّ حُرّ السَّلَبْ ؟
وأيكما كان من خلفه ؟   فإن به عضةً فى الذنَبْ

ولم يكن المتنبى بأقل إقذاعاً فى أشعار الهجاء من هذا بل أنه ليسف أحياناً وينزل إلى أحط أنواع السباب . وقد قال يوماً يهجو وردان بن ربيعة الطائى :

لحا الله ورداناً(١) وأمًّا أتت به   له كسب خنزيرٍ وخُرطوم ثعلبِ
فما كان فيه الغدر إلا دلالة   على أنه فيه من الأمّ والأب

ولقد أفرغ كل المرارة المختزنة فى نفسه فى قصيدته المشهورة التى هجا فيها كافوراً غداة فراره من مصر وملأها بالصور العجيبة الشوهاء لصاحب الأمس ، وقد جاء فى آخرها تلك الصورة الفريدة للعبد فى يد النخّاس وهو يعرضه للبيع :

من علّم الأسود المخصىّ مكرمةً ؟   أقومهُ البيض أم آباؤه الصِّيدُ
أم أذنه فى يد النخّاس دامية   أم قدره وهو بالفلسين مَرْدُودُ ؟
أَوْلى اللئام كُوَيْفيرٌ بمعذرة   فى كل لوم وبعض العذر تفنيدُ

* * *

غفر الله للمتنبى ما أفرط فى كبريائه وادعائه القوة والعظمة وإسرافه على نفسه والناس فى مطالبه التى نغّصت عليه حياته ولم تدع له فى الدنيا من قرار .

---

(١) بنات وردان وهى دويبة كريهة الريح

ابن زيدون

منذ ربع قرن من الزمان نشر الأستاذ كامل كيلانى على الناس ديوان ابن زيدون بعد ضبطه وشرحه ، فكان لظهور الديوان دوى عظيم فى المحافل الأدبية وفضل إجلاء بعض كنوز بحترى المغرب الدفينة ونشرها على أدباء العصر لينهلوا من صفو مواردها .

وقد استقبل الديوان خير استقبال من كل مهتم بأدب العرب . ومما قاله أمير الشعر أحمد شوقى فى تحية الديوان :

يا ابن زيدون مرحبـــا   قد أطلت التغيُّبـــا

أنت فى القول كلّه   أجمل الناس مذهبا

ولم يبالغ فيما قاله شوقى عن أبى الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون ذى الوزارتين ، ذلك الرجل الذى خلد اسمه وسيبقى ما بقى تاريخ الأندلس وأمجاد العرب فى الأندلس .

لقد ولد ابن زيدون فى قرطبة عام ٣٩٤ هـ فى أول عهد المظفر بن ـ فى بيت علم وأدب وبيئة تعشق الفن والجمال وفترة هى أزهى عصور الأدب فى الأندلس ، وكان أبوه القاضى العالم أبو بكر عبد الله بن أحمد الذى مات عام ٤٠٥ هـ وخلف لابنه اليتم صغيراً ، لكن لعلها الحياة كانت تعد ابن زيدون لدوره الطويل فيها لأنه ما إن بلغ مراتب الشباب حتى اشتهر وذاع صيته وتسامع الناس بعلمه وأدبه ، وأحلُّوه منهم محل الزعامة ؛ مما هيأ له أسباب الاشتراك فى الفتنة القرطبية التى اندلعت نيرانها فى قرطبة فزلزلت دولة بنى أمية ودولة بنى حمود والعلويين ، وأسلمت الحكم إلى ملوك الطوائف الذين تنازعوا السيادة ، وتقاتلوا على الدنيا حتى هوت بهم جميعاً .

وكانت سنه حينئذ ٢٨ عاماً فقرّبه ابن جهور ولقّبه بذى الوزارتين ؛ لكن عين الحقد لاتنام وحساد العبقرية كثيرون ، فظلوا يكيدون له حتى سجنه ابن جهور بتهمة التآمر على الحكم ، فأخذ يستعطفه بالبديع من القصائد والرسائل عامين دون جدوى ؛ فعمد إلى الفرار .

فلما مات أبو الحزم عاد ابن زيدون إلى قرطبة فى خلافة ابنه ، لكن حساده لم يتركوه ينعم بمكانته الجديدة ، بل عملوا على النيل منه حتى غيروا قلب الابن كما غيروا قلب الوالد من قبل ، ففر ابن زيدون مخافة السجن ، وظل يتقلب فى البلاد حتى استقرت به النوى فى إشبيلية حيث استوزره المعتضد ثم خليفته من بعده المعتمد السياسى الحصيف الذى لم يسمع لحساد ابن زيدون بل اقتنع برأيه فى غزو قرطبة والاستيلاء عليها ، فعاد إليها ابن زيدون مكرّماً معززاً .

لكن كيف يهدأ الحسد والغيرة فى قلوب الناس ! ؟ لقد ظلوا يكيدون له حتى أنهم زينوا للمعتمد أن أحداً لن يخمد ثورة يهود إشبيلية إلا ابن زيدون فأمره بالخروج إليهم رغم شيخوخته ومرضه ، فمات ببعض الطريق فى ١٥ رجب سنة ٤٦٣ هـ .

عاش ابن زيدون فى عصر قلق مضطرب تتخلله الثورات التى تطيح بالعروش والأسر ، وفى بيئة أخذت من أسباب الترف والرفاهية إلى أبعد حد أتاحه العصر ، ونعمت بالحرية فى الفكر والعيش إلى أبعد مدى ؛ حتى أن الوزير ليدعو الخليفة عَلَناً إلى اغتنام صفو الحياة ومجلس اللهو والشراب ، ولا يتحرج الأمراء من مباذلهم . وإنى لأذكر لابن زيدون الأبيات التالية التى تدلك على مدى حرصهم على لهوهم :

أدِرْهَا فقد حسن المجلسُ وقد آن أن تترع الأكْؤسُ

ولا بأس إن كان ولّى الربيع إذا لم تجد فقده الأنفس

فإن خـــــــلال أبي عامر بهـا يحضر الورد والنرجس

إن فى هذا المجلس الحافل غناء عن جمال الطبيعة ورداء الربيع .

لـكن الحياة لم تجرِ سهلة هيّنة لابن زيدون ، بل كانت دائماً له بالمرصاد ؛ وتلك سنّة الطبيعة مع العباقرة ، فذهبت به إلى السجن أولاً ؛ وفى ظلمات السجن ، ومن خلال قسوة الوحدة والعذاب ؛ تفجرت عبقرية ابن زيدون ، وأبدعت أجمل قصائده ورسائله . فلما استطاع الفرار أصاب أهله من ابن جهور الأذى والضرر مما كان يشعره بالألم و يملأ قلبه بالـكمد حتى قال نادماً على ما أخلص فى خدمته :

قل للوزير وقد قطعت بمدحه زمناً فـكان السجن منه ثوابى

لا تخشَ فى حقى بما أمضيته من ذاك فىّ ولا توقّ عتابى

لم تخطِ فى أمرى الصواب موفقاً هذا جزاء الشاعر الـكذابِ

أما الحادث الثانى الذى زلزل حياة ابن زيدون وأنطقه بأجود الشعر الذى سلـكه فى مصاف أئمة شعراء الغزل وأفسد عليه حياته جميعاً ، فقد كان حبه لولّادة بنت المستـكفى بالله ؛ تلك الغانية الجميلة ، سليلة البيت العريق ، صاحبة العلم والأدب والفـكاهة . . . ذلك الحب الذى نافسه فيه كثيرون ، وخلق له من الشانئين الجمّ الـكثير ؛ لـكنها لم تحفظ عهده بعد السجن ، بل شغلت عنه بابن عبدوس فقال فيها :

أكرم بولادة ذخرًا لمدخرٍ لو فرّقت بين بيطارٍ وعطّارِ

قالوا : أبو عامر أضحى يلمّ بهـا قلت : الفراشة قد تدنو من النار

عيّرتمونا بأن قـد صار يخلفنا فيمن نحبُّ ، وما فى ذاك من عار

أكلٌ شهىٌّ أصبنا من أطايبه بعضاً وبعضاً صفحنا عنه للفار

لـكن ما حدث فعلا أن ابن زيدون لم يترك ما ترك للفأر عن زهد ، لـكن عن عجز ؛ بل إنه لم يستطع أن يتحرر من ذكرى ولّادة مدى حياته ، وأنّى له وهى معقد آماله جميعاً :

أمّا مُنى نفسى فأنت جميعها يا ليتنى أصبحت بعض مُناكِ
يدنو بوصلك حين شطَّ مزاره وهمٌ أكاد به أقبّل فاكِ

بل إنه ليرجو منها عطفة تحيا بها نفسه ، ولا يطمع منها فى أكثر من زورة :

ألا عطفة تحيا بهـا نفسُ عاشقٍ جعلتِ الردى منه بمرأى ومسمعِ
صِلِينى – بعضَ الوصل – حتى تبيّنى حقيقة حالى . . ثم ما شئت فاصنعى

ولعل قصيدته . . « أضحى التنائى » من أروع ما قرأت فى حياتى ترجمة عن معانى التفجع والألم لبعد الحبيب ؛ ومن منا لا يذكر تلك الأبيات الباكية التى يتمنى فيها الموت ويفضله على فراق ولّادة فى مطلع القصيدة:

أضحى التنائى بديلا من تدانينا ونابَ عن طيب لُقيانا تجافينا
ألا [1] وقد حان صبحُ البين صبّحنا حينٌ فقام بنا للحين ناعينا
مَنْ مُبلغ الملبسينا بانتزاحهم حزناً مع الدهر لا يبلى ويبلينا

ويمضى ابن زيدون فى وصف يأسه والعوامل التى أفضت إلى تمنّيه هذا الموت المعجّل فيحس الدنيا خواء حوله لا يرى فيه إلا ظلاماً :

بنتم وبنّا فما ابتلّت جوانحنا شوقاً إليـكم ولا جفّت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضى علينا الأسى لولا تأسّينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

ويبلغ به الوله حدًّا يستسلم فيه للدموع ، ويقنع بالطيف والذكر بعد اليأس القاتل المرير :

أبكى وفاء وإن لم تبذلى صِلةً فالطيف يقنعنا والذكر يكفينا
وفى الجواب متاع إن شفعت به بيض الأيادى التى ما زلت تُولينا

(١) لغة فى هلا .

عليك منّا سلام الله ما بقيت صبابة بك نخفيها فتخفينا[1]

ويمضى ابن زيدون حياته ينشد الشعر مردداً ذكرى ولّادة ، فتراه فى رحاب المعتضد وفى تهنئته بالعيد يستهل القصيد بقوله :

أما فى نسيم الريح عرفٌ معرِّفُ لنا هل لِذات الوقف[2] بالجزع موقفُ
فنقضى أوطار المنى من زيارة لنا كلف منها بما نتكلف
غيارى يعـدُّون الغرام جديرة بها والهوى ظلماً يغيظ ويؤسف
يودون لو يثنى الوعيد زَماعنا[3] وهيهات ريح الشوق من ذاك أعصفُ

وان ابن زيدون ليخجل ويحس أنه ملوم من الناس فيما لا حيلة له فيه فيعتذر إليهم بما يحسه من شوق ولهفة وأسى :

خليلىَّ مهلاً لا تلوما فإننى فؤادى أليفُ البث والجسم مدنفُ
فأعنفُ ما يلقى المحبُّ لجاجة على نفسه فى الحب حين يعنَّفُ
وإنى ليستهوينىَ البرقُ صبوةً إلى برق ثغرٍ إنْ بدا كاد يخطفُ

بل إنه وهو فى سجن ابن جهور يكتب إليه مستشفعاً مستعطفاً فلا ينسى ولّادة بل يبدأ رسالته الشعرية بذكر ولادة الذى لا يبرح خياله، والذى يتمثله فى كل لحظة وفى كل ما حوله :

ما جال بَعدك لَحظِى فى سَنَا القمرِ إلا ذكرتك ذكر العين بالأثرِ
ولا استطلتُ ذَماء الليل من أسَفٍ إلا على ليلة سَرَّتْ مع القِصرِ
أما الضنى فجَنَتْهُ لحظة عَنَنٌ[4] كأنها والردى جاءا على قَدَرِ
لا لهو أيامه الخالى بمرتجع ولا نعيم لياليه بمنتظرِ
مُنًى كأن لم يكن إلا تذكُّرها إن الغَرَام لَمُعتادٌ مع الذكرِ

---

(١) تظهرنا . (٢) السوار . (٣) العزم . (٤) عارضة .

والحب دائماً فى أمل لقاء محبوبه ولو أيقن أن هذا اللقاء ضرب من المحال ، فإنه لا يأبى أن يخدع نفسه و يعللها بكاذب الأمانى . وهكذا كان ابن زيدون فى حنينه المتواصل إلى غرام ولّادة :

هل راكب ذاهب عنهم يحيّينى   إذ لا كتابَ يُوافينى فيُحْيينى
قد رمت إلّا ذماء فىّ يمسكه   أن الفؤاد بلقياهم يرجّينى
ما سرّح الدمع من عينى وأطلقه   إلا اعتيادُ أسى فى القلب مسجون

بل إن جذوة الحب الصادق تبقى متقدة أبداً فى قلب العاشق الصب لا يطفئها علمه بغدر الحبيب ولا بهلاكه فى سبيل الحب . . إنه الحب الخالد الملهم الذى خلق العباقرة والعظماء .. إنه الحقيقة الأبدية والقوة الباقية على الدهر :

ستَبْلَى الليالى والودادُ بحالِهِ   جديدٌ وتفنَى وهو للأرض وارثُ
ولو أننى أقسمت أنك قاتلى   وأنىَ مقتولٌ لما قيل : حانث

وشعر ابن زيدون يمتاز إلى جوار العاطفة الصادقة ، بالصنعة المتقنة ، وجمال الأسلوب ، وحسن التأليف ، ودقة الانسجام ؛ وهى ما تميز شاعراً عن أخيه إذا اتفق لهما الحديث عن معنى واحد . وما أكثر ما تكرر المعانى فى شعر الشعراء . . . وهى ميزة اشترك فيها ابن زيدون أو بحترى المغرب مع بحترى المشرق .

و إن ابن زيدون ليحس بتفوقه وعبقريته إحساساً عميقاً ، و يعتز بنفسه حتى وهو فى ذل الأسر سجيناً ؛ فاستمع إليه فى رسالة إلى صديق من الوزراء :

إنْ قسَا الدهر فللما   ء من الصخر انبجاسُ
ولئن أمسيتُ محبو   ساً فللغيث احتباسُ
يَلْبَدُ الوَرْدُ(١) السَّبَنْتَى(٢)   وله بعدُ افتراسُ

---

(١) الأسد .   (٢) الجرىء .

فتأملْ كيف يغشَى مُقْلةَ المجد النُّعاسُ
ويُفَتُّ المسكُ فى التُّرْ ب فيُوطَا ويُداسُ

بل هو يذهب إلى التصريح فى قصيدة أخرى حيث يقول :

وهو الدهر ليس ينفك ينحو بالمصاب العظيم نحو العظيمِ

لكن هذا العظيم بَشَرٌ يحسُّ ويألم ، ويشعر بالمرارة لِما آل إليه حاله من سجن وإذلال بعد عز وإكبار ؛ وتمضى به الأيام وتذهب صيحاته واستغاثاته وشفاعاته سدى ، فنرى الحكمة يجرى بها لسانه ، ويرسلها شعراً يفلسف به آراءه فى الحياة بعد خبرته الطويلة بصروفها وخداعها :

هرمتُ وما للشيب وَخْطٌ بمفرقى وكائنْ لِشَيْبِ الهمِّ فى كَبِدِى وخطُ
وطاوَلَ سوءُ الحال نفسى فأذكَرَتْ من الروضة الغنّاء طاوَلَها القَحْطُ
مثون من الأيام خمسٌ قطعتها أسيراً وإن لم يبدُ شدٌّ ولا قَمْطُ[1]
أتدنو قطوف الجنّتين لمعشرٍ وغايتى السِّدْرُ[2] القليل أوالخَمْطُ[3]
وما كان ظنِّى أن تغرَّنِىَ المُنَى وللغرِّ فى العشواء مِنْ ظنّه خَبْطُ
أما وأرَتْنى النجمَ موطئَ أخْمَصِى لقد أوطأتْ خدّى لأخمص مَنْ يَخْطُو

وإنه ليذكر قرطبة وحبه فتفيض نفسه حسرات على أيامها ومعانيها وهواء وتقطر رقة فى قوله :

أقرطبة الغرّاء هل فيك مطمعُ ؟ وهل كبدٌ حرّى لبَيْنِكِ تنقعُ ؟
وهل لليالِيك الحميدةِ مرجعُ ؟ إذِ الحسنُ مرأى فيك واللهوُ مسمعُ
وإذْ كَنَفُ الدنيا لديك موطَّأٌ

---

(١) القيد . (٢) النبق . (٣) كل نبت أخذ من المرارة فتعذر أكله .

أليس عجيباً أن تشطَّ النوى بكِ فأحيا كأنْ لم أنسَ نفحَ جَنابكِ
ولم يلتئم شعبي خلال شعابكِ ولم يك خَلْقي بدؤه من ترابكِ
ولم يكتنفنى — من نواحيك — مَنْشَأُ

معاهد أبكيها لعهــدٍ تصرَّما أغضَّ من الورد الجنىّ وأنعما
لبسنا الصِّبا فيها حبيراً منمنما وقُدْنا إلى اللذَّات جيشاً عَرَمْرَمَا
له الأمن ردء والفَدَاوةُ مَرْبأُ

ولقد كان شعر ابن زيدون سجلا رائعاً لحياة العرب فى الأندلس فى تلك الحقبة المترفة من تاريخهم ، فاستمع إليه يصف مجالس السمر مع ولّادة وما فيه من خمر وطرب وموسيقى :

لم نجفُ أُفقَ جمالٍ أنت كوكبُهُ سالين عنه ولم نهجُرْهُ قالينا
نأسى عليك إذا حُثَّتْ مشعشعةً فينا الشَّمُول وغنّانا مغنِّينا
لا أكؤس الراح تُبدى من شمائلنا سِيما ارتياح ولا الأوتارُ تُلهينا

وقد ساعد حجاب ولّادة السهل أن المبذول ابن زيدون على أن يكثر من الوصف الواقعى للمرأة وجمالها ، وأن يأتى فى غزله بصور قد لا تدانيها أشد أنواع الواقعية الحديثة كقوله :

فرشفتُ الرضاب أعذبَ رشفٍ وهصرتُ القضيبَ ألطفَ هَصْرِ
ونعمنا بلفٍّ جسمٍ بجسمٍ للتصافى وقَرْعِ ثغرٍ بثغرِ

أو قوله :

مَصانعٌ تجتذبُ القلوبا
حيث ألفتُ الرشأَ الربيبا
مخالفاً فى وصــله الرقيبا

كم بات يدرى[١] ليلة القربيبا
لما انثنى فى سُكره قضيبا
تشدو حمامُ حَلْيِهِ تطريبا
أرشف منه المبسمَ الشَّنيبا[٢]
حتى إذا ما اعتنَّ[٣] لى مُريبا
شبابُ أفقٍ همَّ أن يَشيبا
بادرتُ سعياً . . . هل رأيت الذيبا ؟
هَصَرْتُهُ حلو الجَنَى رطيبا

أليست هذه ليلة ناعمة يختلسها الشاعر مع حبيبته فى نشوة من العناق والقبل حتى مطلع الفجر ؟

والمديح شائع فى شعر ابن زيدون ، لكنه فى معظم الأحيان يصدر عن شعور صادق . . . شعور الوفاء نحو ممدوحه وواجب الشكر على نعمه ؛ و إنك لتحس بعزة نفسه وأنفته خلال مدائحه كما لو كان يكتب للفخر بنفسه . فاستمع إليه يقول فى معرض مديحه لأبى الحزم بن جهور :

أنا سيفك الصَّدِئُ الذى ـ مهما تَشَأْ ـ تَعِدِ الصِّقَالَ إليهِ والتذريبا[٤]
كم ضاق بى من مذهبٍ فى مطلبٍ فَثَنَيْتَهُ فُسَحَ المجالِ رحيبا
وزها جناب الشكر حين مطرته بسحائب النعمى فَرُدَّ خصيبا

ونفس ابن زيدون تطرب للجمال وتهتز له ، وديوانه ملىء بألوان من جمال

---

(١) يحتال .
(٢) صفة من الشنب برد وعذوبة فى الأسنان .
(٣) اعترض .
(٤) التحديد .

الطبيعة وصورها العجيبة ، يضفى عليها من روحه فتهتز وتمور بالحياة لما كان له من حظ كبير فى حسن الطبيعة . . . استمع إليه يصف التفاح :

أتتك بلون المحب الخجِلْ   تخالط لون المحبّ الوَجِلْ
ثمـارٌ تضمَّنَ إدراكها   هواءٌ أحاط بهـا معتدلْ
تأنّى[1] لإلطاف تدريجها   فمن حَرِّ شمسٍ إلى برد ظِلّْ
إلى أن تَنَاهَتْ شفاء العليل   وأُنسَ المشوق ولهو الغَزِلْ
فلو تجمد الراحُ لم تَعْدُها   وإنْ هِيَ ذابت فخمرٌ تَحِلّْ

وهو إذ قلاه الحبيب لا يجد ملاذًا إلا فى الطبيعة يبثّها شكاته ، ويناجيها ويتحدث إليها ، حتى إنك إذ تسمع شعره ذاك تحسبه من شعراء الرومانتيك المعاصرين الذين جُنُّوا بالطبيعة ووجدوا فيها المهرب من واقع الحياة :

يا سارىَ البرق غادِ[2] القصر وأسْقِ بهِ   من كان صِرْف الهوى والودّ يسقينا
واسألْ هنالك هل عنّى تذكُّرُنا   إلفًا تذكُّره أمسى يعنّينا
ويا نسيمَ الصَّبا بلِّغ تحيّتنا   مَنْ لو على القُرب حيًّا كان يُحْيِينا

ومن طول ما برّح به الهوى أصبح لا يذكر مكانًا إلا مقرونًا بولّادة وذكراها ، ومع ذلك فإنه يحضرنى بيت من الشعر فى وصف صفو الزمان مشبهًا إياه فى صفائه بالندى المتساقط على صفحات الورد ... إنه من أبدع ما طالعت فى تصوير هذا الصفاء .

زمن كما راق السقيط من الندى   يستنّ[3] فى صفحات ورد يانع

وقبل أن نختتم حديثنا عن ابن زيدون لا بدّ من أن ننوّه بعلمه وفضله ، فقد

---

(١) ترفق .   (٢) باكره بالغمام .   (٣) ينصب .

كان من علماء زمانه الأعلام ، ولو أن صفة الشعر غلبت عليه فى كل أعماله .

استمع إليه يصور تلك المعانى الفلسفية عن الدهر والصبر والإيمان فيضعها فى قالب من الشعر الجميل ، وذلك لأنه يحس المعنى بوجدانه قبل أن يجريه على لسانه :

هو الدهر فاصبر للذى أحدث الدهر　　فمن شِيَمَ الأبرار فى مثلها الصبرُ
ستصبر صبر اليأس أو صبر حسبةٍ　　فلا تُؤثر الوجهَ الذى معه الوِزْرُ
حذارك من أن يعقب الرزء فتنة　　يضيق لها عن مثل إيمانك العذرُ

وله نثراً عدةُ رسائل من أشهرها : « الرسالة الجدية » . وقد كتبها فى سجنه ، وغلب على أسلوبها التصوير الشعرى باستعاراته ومجازاته ، فاستمع إليه يقول معتذراً عن خطئه فى حق أبى الحزم : « فلا غرو قد يغص بالماء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفى به ، ويؤتى الحذر من مأمنه ، وتكون منية المتمنى فى أمنيته ، والحين قد يسبق جهد الحريص . . . هل أنا إلا يد أدماها سوارها ، وجبين عض به إكليله ، ومشرفى ألصقه بالأرض صاقله » .

***

حقًّا ما أصدق شوقى إذ يقول :

ابن زيدون عبقريُّ زمانهْ　　قصّر المحسنون عن إحسانهْ
أخذ الروم فى الجزيرة عنه　　ومشوا فى خياله وافتنانهْ

ولادة بنت المستكفى

هى ولّادة بنت المستكفى بالله محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر لدين الله أمير قرطبة الذى بايعه أهلها بعد خلع المستظهر .

ولقد ولدت وشبّت وشابت فى الأندلس فى أوج نهضتها وحضارتها وازدهار علومها وفنونها فى بيئة كفلت فيها الحرية إلى أقصى حدودها . . . حرية القول . . . حرية الاجتماع . . . حرية البحث العلمى المجرد دون النظر إلى أى اعتبار آخر ، فتعشقت ولّادة هذه الحرية وعبدتها ، وآثرت حريتها على كل اعتبار آخر . وقد كان لمبالغتها بحرّيتها وإسرافها فى استعمال حقها فى الحرية إلى أقصى مداه وأ كبر ؛ أثره فى إشاعة الشائعات حولها وفى افساح المجال للمتقولين للنيل من كرامتها ومكانتها . . . ولقد ساعد على ذلك ما كانت تتمتع به « من نهاية الظرف والأدب فى حضور شاهد ، وحرارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر ؛ وأن مجلسها بقرطبة كان منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، وكان أهل الأدب يعشون إلى ضوء غرّتها ، كما تهالك أفراد الشعراء والكتّاب على حلاوة عشرتها ، وعلى سهولة حجابها ، وكثرة منتابها ؛ وهى تخلط ذلك بعلوّ نصاب ، وكرم أنساب ، وطهارة أثواب ؛ لكنها كانت قليلة المبالاة تجهر بلذاتها حتى شاءت[1] » .

ولم تكن ولادة تنبهُ بكرم نسبها ، وجمال خلقها ، وسحر هذا الجمال وفتكه وقوته وأسره ، وما امتازت به من ظرف وبديهة حاضرة وحديث عذب فحسب ؛ بل كانت أيضاً شاعرة أديبة جزلة القول حسنة الشعر ، تناضل الشعراء ، وتساجل الأدباء ، وتفوق البرعاء . وقد كتبت بالذهب على الطراز الأيمن :

(١) نفح الطيب ج ٢ .

أنا والله أصلح للمعالى وأمشى مشيتى وأتيهُ تيها

وليس بعد ذلك قوة ، بل ليس بعد ذلك غرور فى الاعتداد بالنفس والشعور بتفوقها ومكانتها بين الناس ، وهو ما جعلها تتعالى على الوزراء والأمراء ، وتعتقد أن الجميع دونها مكانة ومنزلة .

أما ما كتبته على الطراز الأيسر .

وأُمكِنُ عاشقى من صحن خدّى وأُعطى قُبْلَتى مَنْ يشتهيها

فهو صورة للحرية التى كانت تسبغها على نفسها ومدى تحللها ، بل تحلل البيئة كلها من كل القيود والمواضعات ؛ ورغم ذلك فقد تواترت الأنباء عن ولّادة بأنها اشتهرت بالصيانة والعفاف .

والمطالع لتاريخ الأندلس فى هذه الحقبة التى أظلت ولّادة يهوله ما أغرق فيه أمراؤها من ترف ومجون ، وما شغلوا به من فنون اللهو وابتكار أسبابه ، وما سعوا إليه من أنواع المتعة واللذة والشهوات المهلكة ؛ لاهين عن أمور المملكة وأسباب الجهاد ، غافلين عن عدو يتربص بهم الدوائر ؛ بعد أن تفرقت الأندلس بينهم إلى إمارات صغيرة تتنافس وتتناحر ، فكان ذلك إيذاناً بمغيب شمس الحضارة العربية عن هذه البلاد و بدء أفول نجمها .

ولقد انتقض الإفرنج عليهم وانتزعوا طليطلة عام ٤٧٨ هجرية ، أى قبل وفاة ولّادة بعامين أو ستة على أرجح الروايات ، فأفاقوا قليلا للنُّذُر ، لكنهم ما لبثوا أن عادوا سيرتهم الأولى من لهو ومجون . وتفيض صفحات التاريخ بأنباء ولّادة وغرامياتها ومغامراتها الجريئة فى ميدان الحب والغزل ، وكان من عشاقها الأصبحى ، وقد كتبت إليه لما أولع بها بعد طول تمنّع تعده اللقاء فقالت :

ترقَّبْ إذا جنَّ الظلامُ زيارتى فإنى رأيت الليل أكتم للسرِّ

وبى منك ما لو كان بالشمس لم تَلُحْ وبالبدر لم يطلعْ ، وبالنجم لم يَسرْ

وقد وفت بوعدها له . ويبدو لنا من الأبيات التالية أنها كانت تكتم له بين الضلوع هوى مبرحاً وشوقاً عظيما ضاق به فؤادها فلم تستطع عند فراقه أن تكتم ما تحسه من لوعة وأسى لابتعاده عنها :

ودّع الصبر محبٌّ ودّعك ذائعٌ من سرِّه ما استودعَك
يقرع السنَّ على أن لم يكنْ زاد فى تلك الخُطَى إذ شيَّعك
يا أخا البدر سناء وسَناً حفظ الله زماناً أطلعك
إن يطُلْ بعدك ليلى فلكم بتُّ أشكو قِصَرَ الليل معك

كما كثر فى حب ولّادة المتنافسون ، وكان لا بد أن تظهر بينهم روح الحقد والعداوة فيتباروا فى القول ، ويعتدى بعضهم على بعض ؛ ومن أمثلة ذلك مما كان من التنافس فى حبها بين الوزيرين أبى عامر بن عبدوس وابن زيدون . وقد قال الأخير لغريمه :

أثرت هزبر الشرى إذ ربَضْ ونبّهته إذ هدا فاغتمض
وما زلت تبسط مسترسلًا إليه يد البغى لما انقبض
حذارِ حذارِ فإن الكريم إذا سيم خسفاً أبى فامتعض

وقد ظن ابن زيدون أنه الأثير لدى ولّادة فقال أيضاً :

وغرَّك من عهد ولّادةٍ سرابٌ تراءى وبرقٌ ومض
هى الما يعزُّ على قابض ويمنع زبدتَهُ من مخض

وقد هام ابن زيدون بولّادة ، وخلع فى هواها عذاره ، وأرسل أجود أشعاره . لكن ولّادة كانت لها جارية سوداء بديعة وقد ظهر لها أن ابن زيدون مال إلى هذه الجارية فشقّ عليها الأمر ، وعزّ عليها أن تجرح كبرياؤها هذا الجرح الغائر

الذى أهان سلطان جمالها ، فـكتبت إلى ابن زيدون هذه الأبيات التى تقطر مرارة وأسى :

لو كنت تنصف فى الهوى ما بيننا　　لم تهوَ جاريتى ولم تتخيّرِ
وتركت غصناً مثمراً بجماله　　وجنحت للغصن الذى لم يثمرِ
ولقد علمت بأننى بدرُ السما　　لـكن ولعت لشقوتى بالمشترى

وكانت قطيعة بينهما ، وتابعت ذلك بهجو ابن زيدون بأشعار كثيرة منها ما كان مقذعاً يفيض بالنَّيل من شخصه ، لـكن أثر هذه القطيعة كان على ابن زيدون أشد وأقسى ، فأرسل الشعر يفيض لوعة وأسى وشجى يستعطف قلبها الذى لم يلن له ثانية . ومن أشهر قصائده فى ذلك تلك التى قال فيها :

أضحى التنائى بديلًا من تدانينا　　وناب عن طيب لُقيانا تجافينا
بِنْتم وبنّا فما ابتلّت جوانحنا　　شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا　　يقضى علينا الأسى لولا تأسّينا
حالت لفقدكم أيامنا فغَدَت　　سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

ولقد عاشت ولادة حياتها لم تتزوج ، ويرجح لدىَّ أن ذلك راجع لما امتازت به من طبيعة فنّان يؤثر حريته على كل قيد ، ولو كان قيد الزواج وما وراءه من التزامات الأسرة ؛ إلى جانب ما أحاطت به نفسها من أسباب العظمة التى أشاعت المهابة منها فى نفوس خلطائها .

* * *

وقبل أن نختتم هذا الحديث نود أن نلمع إلى ما امتازت به ولّادة من روح الفـكاهة المرحة والسخرية اللاذعة والبديهة الحاضرة ، ومن أمثلة ذلك ما يحكى من أنها مرّت ذات يوم على الوزير ابن عبـدوس ، وكان جالساً أمام داره فى جمع من أعوانه وقد تـكونت أمام الدار بركة من ماء الأمطار وبها بعض الأقذار فقالت :

أنت الخصيبُ وهذه مصرُ فتدفقا فكلاكما بحرُ

وتركته لا يحير جواباً ، وتركت لنا صورة عجيبة من صور السخرية فالخصيب أمير مصر المشهور بالكرم والعطاء يفيض بهما كالبحر والندى ، ولقد اجتمعت ببابه الشعراء طمعاً فى صلاته ؛ أما ابن عبدوس فهو فى نظرها لا يفيض إلا بالأقذار . . .

ابن زمرك
شاعر ملك

يا من يحنُّ إلى نجدٍ وناديها   غرناطةٌ قد ثوت نجدٌ بواديها
قف بالسبيكة وانظر ما بساحتها   عقيلة والكثيب الفرد جاليها
تقلدت بوشاح النهر وابتسمت   أزهارها وهى حلىٌ فى تراقيها

* * *

كم حولها من بدور تجتنى زهراً   فتحسب الزهر قد قبّلن أيديها
حصباؤها لؤلؤ قد شفّ جوهرها   والنهر قد سال ذوباً من لآليها

* * *

يزيد حسناً على نهر المجرّة قد   أغناه دُرّ حَبابٍ عن دراريها

* * *

وساجع العود فى كفّ النديم إذا   ما استوقف الطير يدنيها ويغريها
يبدى أفانين سحرٍ فى ترنّمه   يصبى العقول بها حسناً ويسبيها

* * *

فباكرِ الروض والأغصان مائلة   يثنى النفوس لها شوقاً تثنّيها
لم يرقص الدوح بالأكام من طرب   حتى شدا من قيان الطير شاديها

* * *

غرناطة . . آنسَ الرحمنُ ساكنَها   باحت بسرٍّ معانيها أغانيها
أغدَى نسيمُهُم لطفاً نفوسَهُمُ   فرقّة الطبع طبعٌ منه يعديها

أترى هل كان أبو عبد الله محمد بن يوسف بن زمرك يصف جنة الخلد ، أم هو قد رأى فى جمال غرناطة الذى خلّده جنانَ الأرض ونعيم الدنيا الذى لا يدانى فمكف حياته يصور هذا الجمال ، و يحدث الناس حوله والأجيال من بعده عنه بمثل هذا الشعر الذى يفيض حناناً إلى غرناطة وحبًّا لما فيها من طبيعة غنية بجمالها مدلة بحسنها ، وأناس أحبوا الحياة واستمتعوا بما فيها من أسباب الجمال والمتعة ، وعشقوا النغم والموسيقى وأبدعوا فيها . . . حتى قال :

خُلقت من عادتى أُلوفا أحنُّ للإلف والسَّكَنْ

وما كان حنينه إلا لبيئة تألف وتستحق الحب والتقدير ، وهى بيئته التى رعت صباه وشبابه الباكر ، فهو قد ولد بالبيازين من أعمال غرناطة سنة ٧٣٣ هجرية (فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى تقريباً) وفى أواخر عهد العرب بالأندلس الحبيب ، فسجّل هذا الغروب الحزين فى شعره صوراً « قد مزجت بين وقائع الحياة وعناصر الطبيعة فجمعت جمعاً عجيباً بين الطبيعة الغاربة والإنسان الفانى ، وإذا الفناء والغروب فى شعره يختلطان اختلاط أمل وشوق ، لا اختلاط حزن و يأس . . ومن وراء هذا الشعر كانت صورة الطبيعة الأندلسية بكل جمالها ، وصورة غرناطة بما قد أحيطت به فى عصرها وإلى اليوم من الحب والحنين ، وصورة الحمراء بمـا قد كان يدار فيه من حياة صاخبة عاصفة . . اتخذ ابن زمرك حياة ملك وحياة أمة مكافحة فى سبيل البقاء وحياً له .. حياة أمة قد أريد لها المغيب فلم ترض بأن تغرب فقاومت »[1]، فـكان كفاحاً قويًّا رائعاً يشوبه شىء من اليأس والحزن مع كثير من القوة التى لا تقهر والتى صاحبته حتى آخر مراحله . .

فى تلك الفترة المضطربة من حياة العرب فى الأندلس اتصلت الأسباب بينهم و بين العرب والبرابرة من سكان شمال إفريقية ، وانتقل إلى إفريقية الـكثير من الآثار العلمية والعلماء الذين كانت تزداد هجرتهم كلما ضاقت بهم رقعة الأرض

(١) « ثم غربت الشمس » للدكتورة سهير القلماوى

الأسبانية واشتهرت مدرسة فاس فى مراكش بمن فيها من علماء وكتب ، واضطر ابن زمرك إلى الرحيل إليها للاستزادة من علوم الفقه والدين واللغة .

وعاد ابن زمرك مع الغنىّ بالله الذى كان قد لجأ إلى مراكش إثر فتنة فى غرناطة أقصته عن عرشه . . عاد مع آخر ملك عربى عرفت الأندلس فى ظله أمن الاستقرار وطمأنينة القوة ، ليكون معه آخر شعراء الملوك ، أو آخر هذا النوع من الشعراء الذين عرفتهم الدولة الإسلامية . . فكان له شاعراً ووزيراً بعد أستاذه لسان الدين الخطيب .

عاد ابن زمرك ليحتل مكانه فى الصدارة بين شعراء الأندلس فى عصره ، وقد دانت له أساليب اللغة والنظم إلى جانب شاعرية مرهفة وإحساس دقيق وعقل ذكىّ متوقد ، فجعل يرسل شعره فى وصف غرناطة والغنىّ ، يسجل هذا الجمال حفراً على أعمدة الحمراء ؛ فلنستمع إليه فى أحد موشحاته يصف جمال الطبيعة وهو مأخوذ بهذا الحسن تسرى فى أوصاله نشوة كنشوة الخمر :

فى كؤوس الثغر من ذاك اللَّعَسْ راحةُ الأرواح
وتغشّى الروض مسكىُّ النَّفَسْ عاطر الأرواح
وكسا الأرواح وشياً مُذْهَبَا يبهر الشّمسا
عسجدٌ قد حلَّ من فوق الرُّبَا يبهج النفسا
فاتخذ للهو فيــه مركبا تلحق الأُنسا
منبر الغصن عليــه قد جلسْ ساجع الأدواح
حللَ السندس خضراً قد لبس عِطفه المرتاح

بل إن ابن زمرك شاعر مغرم بالحياة يعشق جمالها ، ويريد أن يعبّ من محاسنها بغير حساب ، بل يودُّ لو أن الشعب كله من حوله يشركه هذه السعادة التى يحسها وهو يهيم بين مناظر الطبيعة الجميلة وصورها التى لا تتناهى فى غرناطة .

وجه هـذا اليوم باسمْ وشذا الأزهار ناسمْ

هاتهـا صاح كؤوسا جالباتٍ للسرور

وارتقبْ منها شُموسا طالعات فى حبورْ

ما ترى الروض ِعروسا فى حلى نَوْرٍ ونُور

لـكن الشاعر يحس إحساساً غريزياً بأن كل ما حوله إلى غروب .. إلى فناء ، فنراه يسرع دائماً إلى الأصيل ومغرب الشمس ونهاية النهار حيث الحياة الهادئة الناعمة بعد الفراغ من العمل ، وحيث يجد نديماً يلهو معه ؛ لـكنه لهو تشو به فـكرة الغروب ، فترتسم على صور الشاعر فى مزيج رائق من الألم الحزين والسرور المريح :

قُمْ ترَ هذا الأصيل شاحبا حسنه قد راقْ

ولأذيال الغصون ساحبا فى حُلَى الأوراق

ونديم قال لى مخاطبا قول ذى إشفاق

عادة الشمس بغرب تختلس هات شمس الراح

إن أرانا الجو وجهاً قد عبس أوقد المصـباح

ووجوه الشَّرْبُ تغنى عن شموس كلما تجلى

بلحاظ أسكرتنا عن كؤوس خمرها أحـلى

ما زمان الأُنس إلا مختلس فاغتنم يا صـاح

وعيون الشهب تذكى عن حرس تخصم النصّـاح

ومع ذلك فالشاعر يحاول أن يروِّح عن نفسه و يصرف عنها فـكرة النهاية والفناء التى تطارده ؛ وهل هناك أيسر من مجلس الخمر وسمّاره ومجمع الندامى ، ولنستعض عن ضوء الشمس بضوء المصباح . . ذلك المصباح الذى يتردد ذكره كثيراً فى شعر

ابن زمرك ، ويتخذه فى الليالى أنيساً يناجيه ويفضى إليه بذات نفسه ، ويتعزى بضوئه عن الواقع المؤلم . . .

لكن الأيام تمضى والشباب يتضاءل حثيثاً ، وقد خلا المجلس ممن يؤنسه ويسليه :

ولربَّ ليلٍ بالوصال قطعته أجلو دجاه بأوجه الندماء
أنسيت فيه القلب عادة حلمه وحثثت فيه أكؤس السرّاء
جاريت فى طلق التصابى جامحاً لا أنثنى لمقادة النصحاء
أطوى شبابى للمشيب مراحلا بر واحل الإصباح والإمساء
يا ليت شعرى هل أرى أطوى إلى قبر الرسول صحائف البيداء ؟

وسط هذه الأحداث المتعاقبة والحروب المتتابعة مع الإسبان وحلفائهم تارة ، ومع البربر تارة أخرى ؛ لم ينس ابن زمرك عمله كشاعر الملك الذى يجب عليه صياغة المديح لمليكه فى كل مناسبة سعيدة ، فقدم لنا لوناً جديداً من ألوان المديح استغنى فيه عن عادة شعراء العرب المتقدمين . . عادة الوقوف بالأطلال أو النسيب . . بوصف الطبيعة وصفاً لا يحس معه حرجاً ولا صعوبة عند الانتقال إلى الحديث عن ممدوحه لأن الملك والطبيعة متحدان منذ أول الكلام عن الطبيعة ، إذ أن هذ الملك عنصر من جمال الطبيعة :

أرقتُ لبرقٍ مثل جفنىَ ساهرا
ينظِّمُ من قطر الغمام جواهرا
فيبسم ثغر الروض عنه أزاهرا

وصبح حكى وجه الخليفة باهرا تجسّم من نور الهدى وتجسّدا

شفانِىَ معتلّ النسيم إذا انبرى
وأسند عن دمعى الحديث الذى جرى
وقد فتّق الأرجاء مسكاً وعنبرا

كأن الغَنِى بالله فى الروض قد سرى فهبّت به الأرواح عاطرة الرّدا

والحمراء ذلك القصر العتيد الذى خلد أروع ما وصل إليه فن المعمار فى المدنية الإسلامية كان له نصيب عظيم من شعر ابن زمرك حتى قال فيه :

وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به ولم تك فى أفق السماء جواريا

لكن شعر ابن زمرك فى الغزل يحمل المرء على كثير من التفكير لما يكتنفه من غموض لا يبين :

زار الخيال بأيمن الزوراء فَجَلَا سناه غياهبَ الظلماء
وسَرَى مع النسمات يسحبُ ذيله فأتت تنمُ بعنبر وكباء
هـذا وما شىء ألذُّ من المُنى إلا زيارته مع الإغفاء
بتنا خيالين التحفنا بالضنى والسقم ما نخشى من الرقباء
يا سائلى عن سرّ مَنْ أحببته السرُّ عندى ميت الأحياء
تالله لا أشكو الصبابة والهوى لسوى الأحبة أو أموت بدائى

ترى لمَ كل هذا الإغراق فى الغموض ؟ أكان ابن زمرك لمكانته فى الدولة وتصدُّره للوزارة يخشى أن ينال منه شانئوه و يتهموه بالابتذال أوالاستهتار ؟ أم كان لصلته بالمتصوفة ورجال الدين — لا سيما فى مرحلة الدرس بفاس — أثرها فى إيثاره هذا الغموض الذى يضفى على شعره صبغة من التصوف ؟

يخيل إلىّ إلى أن ابن زمرك كان يعانى فراغاً مروعاً فى حياته ، و يحس بأن كل ما فيها مزعزع لا قرار له ، و بأنه لمكانته محسود من الناس ؛ والناس من حوله

يحيكون له الدسائس ليوقعوا به ، وهذا أمر كان شائعاً جداً فى دويلات العرب بالأندلس فى أيامها الأخيرة ؛ لذلك كنا نرى ابن زمرك فى كثير من أدوار حياته وحيداً يعانى من آلام وحدته حتى ليقضى الليل لا يؤنس وحشته إلا المصباح ، فيناجى هذا المصباح و يبثه شكاته :

لقد زادنى وجداً وأغرى بى الجوَى ذبال بأذيالِ الظلام قد التفّا
تشير وراء الليل منه بنانه مخضّبة والليل قد حجب الكفّا
تلوح سناناً حين لا تنفع الصبا وتبدى سواراً حين تثنى له العطفا
قطعت به ليلا يطارحنى الجوى فآونةً يبدو وآونةً يخفى

أو تراه فى قصائد عدة يبث غرناطة الحب ، و يختصها بالهوى :

غرناطةٌ منزل الحبيبِ وقربها السُّؤلُ والوَطَرْ
تبهر بالمنظر العجيبِ فلا عدا رَبْعَها المَطَرْ

لكن ابن زمرك يؤلمه لؤم الناس وحسدهم حتى يسائل مستنكراً : « أخِسَّةٍ فوّض لى الملك ما فوّض من أمور الدولة ؟ » . . . ثم هو يترك أمور السياسة مختاراً ، و يعكف على الدرس فى جامع مالقة ، ثم فى مسجد الحمراء يعلم الناس الفقه والتفسير ، فيتوافد الناس على درسه يتزاحمون لينهلوا من علمه الغزير . ومات الغنىُّ بالله ، وخلفه ملك آخر لم يطق صبراً على ما يوجهه ابن زمرك للولاة فى درسه من نقد وتجريح ، فألقى فى سجن قصبة المرية ، وخلف ذلك الملكَ ملكان عفا آخرهما عن ابن زمرك وأعاده إلى الوزارة فى قصر الحمراء ، ولكن يد الغدر والخيانة لم تمهله فقتله مع أولاده أحد الخدم ذات مساء وهو قائم فى بيته والمصحف الكريم بين يديه يطالع فيه .

جميل صدقي الزهاوي

أما في بني الأرض العريضة مُصاحٌ يخفف ويلات الحياة قليلاً ؟

ظل هذا السؤال وتلك الصيحة يترددان على لسان الشاعر الكبير جميل صدقي الزهاوي مدى حياته ، وما كان الزهاوي شاعراً فحسب ، بل كان فيلسوفاً ورائداً من رواد الحرية الأوائل في العراق الحديث الذين قاوموا الظلم والطغيان وصمدوا للعسف والجور ، وضحوا حياتهم في سبيل المبادئ الإنسانية النبيلة .

وُلد الزهاوي في بغداد عام ١٨٦٣ وتلقى العلم عن أبيه محمد أفندي فيضي مفتي بغداد وينتهي نسبه من ناحية أبيه إلى سيف الإسلام خالد بن الوليد ، أما أمه فكانت كردية . وقد اشتهر بالزهاوي نسبة إلى زهاو من بلاد فارس موطن جدته لأبيه ؛ وهكذا اجتمعت في دماء الزهاوي خلاصة حضارات عريقة ومدنيات تليدة كان أميناً أن يضيف من جهوده لبنة إلى بنائها ، فأجاد من اللغات العربية والكردية والفارسية والتركية ، كما أشربت نفسه علوم الدين واللغة التي تلقاها عن أبيه .

وفي عام ١٣٠١ هجرية اشتغل بالتدريس بالمدرسة السليمانية واستطاع عندئذ أن يجد من فراغه فرصة يكب فيها على دراسة الفلسفة والتعمق فيها ، وأن يتحرر بفكره من رواسب الجمود والجهل المسيطرة على مواطنيه ، وأن يتعرف على شخصيته ويبدأ في الإعلان عنها والجهر بآرائه الحرة ؛ لكن سرعان ما نبابه المقام في وطنه ، وضاق به الطغيان ذرعاً ، وأحست نفسه الشاعرة بآلام الظلم وجور الحكام وتخاذل الناس فيما حوله فقال :

ليس ليل مثل ليلي ليس يوم مثل يومي
إنما أهملني في ساعة الحاجة قومي

ورحل من العراق سنة ١٣١٢ هـ قاصداً استامبول مارًّا بمصر ، وكانت الحرب اليونانية قائمة ، وانتصرت قوات الخلافة ، فنظم فى ذلك قصيدة مشهورة مطلعها :

هو الفتح ألقى فى قلوب العدا هَوْلاَ   وأثبت أن الحق يعلو ولا يُعْلَى

كان الشاعر يظن أن الحال فى استامبول أفضل منها فى العراق ، لـكنه لم يلبث أن تبين الحقيقة المرة ، وأدرك أن جو العاصمة العثمانية أشد نـكداً من عاصمة الرشيد فهو جو ملىء بالفتن والمؤامرات والاستبداد ، فرحل عنها بعد عام قاصداً اليمن ، لـكن السلطان عبد الحميد استدعاه ثانية إلى تركيا وحرم عليه مغادرة استامبول خوفاً من التجائه إلى مصر حيث ينفسح المجال لقلمه الحر فى مصاولة الاستبداد ؛ إلا أن السلطان عبد الحميد خلع عن عرشه واستعاد الشاعر حريته فى الرحلة إلى بقاع الأرض ، فعاود الرحيل إلى مصر وغيرها من بلاد الشرق إلى أن انتهى به المطاف إلى بغداد حيث توفى فى ٢٤ فبراير سنة ١٩٣٦ .

ولم يكن الزهاوى شاعرا محليًّا بل كان شاعرا عالميًّا لا يقصر فنه على العراق فقط ، بل هو فى معظم شعره يتحدث عن الشرق كله الذى وحدت بينه المحن والأرزاء ، وكانت صحف مصر والشام والعراق جميعاً منابر تردد صيحاته الداعية إلى الإصلاح .

ولقد تلفّت الزهاوى أول ما تلفّت فوجد نصف قوى الأمة معطلا ، ووجد ربة الأسرة فى العراق والشرق قاطبة جاهلة لا تعلم من أمور الدنيا شيئاً وهى التى يوكل إليها أمر النشء وأجيال المستقبل ، فبدأ يتحدث إلى الناس برفق ينبههم إلى أهمية هذا النصف من المجتمع .

يرفع الشعب فريقا   ن إناثٌ وذكورُ

وهـل الطائر إلا   بجناحيه يطيرُ ؟

ثم يدعوهم إلى الاعتراف بحق النساء عليهم والرفق بهن :

لقد أضاعت عنده من الحياة حقها
فهل تزوجت به أم ملّكته رقّها ؟
وإنما الروح التى بعسفه أرهقهـــا
إن صدقت كذّبها أو كذبت صدّقها

إن ذلك هو سر تأخر الشرق فلتمنحوا النساء حقوقهن فى الحياة والحرية :

أخّر المسلمين عن أمم الأر ض حجابٌ تشقى به المسلماتُ
ما تفكرتُ فى الحقيقة إلا واعترتنى الشكوك والشبهاتُ

أما الشباب عدّة الأمة وسلاحها فى مناهضة الضعف ومواجهة أحداث الزمان فهم أولى الناس بحمل أعباء الجهاد ، ولذلك عنى الزهاوى بالتحدث إليهم دائماً والاجتماع بهم يبث بينهم دعاواه للإصلاح ، ويستصرخ هممهم للنهوض ، ويدعوهم للعمل والجهر بآرائهم الحقة غير هيابين :

بثُّوا بألسنةٍ لكم من نار ما فى جماجمكم من الأفكارِ
سيروا إلى غاياتكم فى جرأةٍ كالسيل هدّارًا وكالإعصارِ
كونوا جميعاً سادة لنفوسكم فالعصر هذا سيد الأعصار
قولوا الحقيقة جاهرين وأعلنوا للناس ما فيها من الأسرار

وإذا كانت الحقيقة مرة والناس أعداء ما جهلوا ، فسبيل الإصلاح ملىء بالأشواك والصخور ، وعلى المصلحين احتمال الأذى لتبليغ رسالاتهم :

لا يثبّطك عن مناصرة الحق (م) صياح الغوغاء والجاهلينــا
إن من كان بالحقيقة مغرى لا يبالى بالشتم والشاتمينـــا
إنما يبقى الحق حقًّا وإن أغ مض عنه المكابرون العيونا

وعلى الأحرار فى كل مكان أن يعملوا فى سبيل مبادئهم مهما لاقوا من صعاب .

الحر فعّالٌ فما هو من يمارِى أو يُمارَى
إن الألى غرسوا مبا دئهم سيجنون الثمارا
أنتم أحق الناس أن ترعوا لنفسكم الذمارا
ليس الذى يؤذى فيسـ ـكت جامداً إلا جدارا

وما كان الإصلاح إلا جهاداً ومجالدة والفوز فيه للقوة فأعدُّوا بنى الشرق أنفسكم للعمل وأعدُّوا للعمل عدَّته لأنه :

ليس الحياة سوى نزاعٍ دائم يا للضعيف به من الجبارِ
الفوز للجَلْدِ الجرىء فؤاده والويل كل الويل للخوّارِ

ولا تستكثروا الضحايا لأن الحقيقة غالبة والعالم لا يعى إلا منطق القوة :

لا تسكت الحق نار للقارعات تصـوتُ
يموت للحق خلقٌ والحق ليس يموت

لكن الزهاوى ليس عنيفاً دائماً فى شعره ، بل كان شاعراً رقيق الحاشية مهذب النفس ، رقيق المشاعر ، سريع التأثر بما تقع عليه عيناه . ولقد نظم الشعر أول ما نظمه بالفارسية حتى برع فيه ثم تحول إلى العربية فاكتسب شهرة أوسع ، وظفر بقراء أكثر ، واتسعت دائرة عارفيه ومحبيه .

وككل شاعر مرهف الحس ذواق للجمال أغرم الزهاوى بالطبيعة ومباهجها ونظم فيها الكثير من الشعر كقوله :

أنتِ مما تبدينه من صفاء يا سماء العراق خير سماء
انظرينى فقد أحبك قلبى وأحبتك مثـله حوبائى
انظرينى إذا العنادل غنّت سَحَراً فوق منكب الشجراء
انظرينى ليلاً إذا الشمس غابت بعيون النجوم فى الظلماء

انظرينى إذا الخليفة أخفَتْ ... مالها فوق الأرض من ضوضاء
انظرينى إذا الطبيعة أصغت ... فى الدياجى إلى خرير الماء
انظرينى إذا الحوادث رامت ... هدأة فى الصباح أو فى المساء
انظرينى إذا الخريف تراءى ... آسياً من أشجاره الجرداء

إن المرء ليحس ولاشك عند ما يطالع ذلك الشعر بتلك الألفة التى قامت بين الشاعر والطبيعة وقد وجد فيها مؤنساً فى وحشته يغنيه عن الناس الذين لم يلق منهم إلا شرًّا حتى أحس أنه غريب فى بيئته وحيد فى دنياه ، فقال :

أنا لا يسأل عنى أحدٌ حين أغيبُ
أنا كالرحمة مفقو د وكالحق غريبُ

ولطالما أحس الشاعر بالأسى فى دنياه ، وأشفق على نفسه من هذه الوحدة القاسية ، وقد صور هذه الحال أبلغ تصوير حين قال :

أموت بعيداً عن ديارى وعن أهلى ... فمَنْ يا ترى يبكى حوالىّ من أجلى
أموت غريباً فى ربوع شبيبتى ... ولا صاحبٌ عندى يمرّض أو يسْلى
سيقتادنى حتفى إلى الرمس صاغراً ... ويقطع عن دنياى سيف الردى حبلى

ولا شك أن المسئول الأول عن آلام الشاعر المروعة هى بيئته . . أجل فسواد الناس حوله يعيشون فى فقر مدقع وجهل مظلم ، ويقود القطيع طغاة ظَلَمَة ؛ دستورهم النفاق وبضاعتهم الفسق والخداع . . يخوّفون الناس من الحرية ومن كل دعوة إلى النهوض :

أرى الناس إلا من توفر عقله ... من الناس أعداء لكل جديدِ
رأيت جياعاً فاخروا بثيابهم ... فأضحكنى ما قد رأيت وأبكانى
وما الناس إلا خادع بمقالة ... يريد به الدنيا وآخر مخدوع

ولقد بلغ الزهاوى الذروة من القوة والإبداع فى تصوير ذلك المجتمع المنافق الذى يموج بالفتن ، وتغلى فيه الصدور بالحقد على حين يقتله الجوع والمرض والذل فى داليته المشهورة « النادبة والعدل » :

يحوّل عنها العين ثم يعيدها ... حذار عدّى تغلى عليه حقودها
ويغضى خلال النظرتين محاذراً ... رقيباً لها إن لم يكده يكيدها
يعز على عينىّ أن تنظرا إلى ... بلاد تسوس الناس فيها قرودها
تعيث بأهليها فتسقيهم الردى ... وتغضب من أموالهم وتبيدها
يعزُّ على عينىّ أن تريا بها ... شباباً من الأحرار صفراً خدودها
محاطين بالأرزاء فى أرض ذلة ... تهائمهـــا منحوسة ونجودها
إذا أقلعت عنهم سحابة فتنة ... أظلتهم أخرى تدوّى رعودها
حياة لهم لم يبق ضمن جسومهم ... سوى شعلة فيها قريب خمودها

ويمضى الزهاوى فى تلك القصيدة فيعرض علينا صوراً شتى من الظلم والطغيان والجور الذى كان يعانيه الناس :

فـكم زوجة لما دهى الظلم بعلها ... بكت فبكى فى الحجر منها وليدها
ومفجوعة أودى أخوها بعسفهم ... ووالدة قد بان عنها وحيدها
مغانٍ تظل الغانيات بأرضها ... وقد غيل حاموها تفرّى كبودها

فأين الأحرار ليضعوا حدًّا لآلام الناس :

فوق خد البيض الحسان سطورٌ ... كُتبت بالدموع فيها شكاة
وهب الله للرعايا حقــوقاً ... غصبتها من الرعايا الولاةُ
أرهقوكم ذلاً وأنتم سكوتٌ ... أين أين الأحرار ؟ أين الأباةُ ؟

وما كان الزهاوى يصدر فى كل ذلك إلا عن حب عميق تأصل فى نفسه . .

حب للحياة الكريمة الأبية وهل تحلو الحياة بغير الحرية . . ؟ إنها ولا شك أغلى ما فى الحياة :

غنّى لحريتنا الحبيبة المهاجرة
فقد تعود بعد ما ولت كشمس غائره
كنا بها فى حقبة من الشعوب الظافرة

لكنه يلتمس الحرية فى كل مكان من ربوع بلاده فلا يكاد يبصرها فيصرخ مستغيثاً مما يراد به :

أسائلكم ما ذا على الشاعر الحرّ إذا رام تصوير الحقيقة فى الشعر ؟
يريدون منه أن يظل محافظاً على صمته حتى يغيّب فى القبر
ولكن نفس الشاعر الحر ملؤها عواطف يدعوه إلى الجهر أو تغرى

وتضيق نفسه بالحياة وترى الموت أفضل مما تعانيه من آلام ، لكن الشاعر حريص على الحياة يخاف الموت لأنه عدم ، فيذب هذه الأفكار عن نفسه ما استطاع :

يرى النفع كل النفع فى الموت إنما أضرّ بها بين العداة وجودها
تقول له : لا تحرصنّ سفاهة على عيشة قد بان عنك رغيدها
تريد بعزم أن تفارق جسمه وتلك عليه شقة لا يريدها
تنازعه حوض المنية نفسه فتطلب ورداً عنده ويذودها

أخيراً أرى الزهاوى يتفق مع شاعر النيل حافظ إبراهيم فى إجادة التفجع والتعبير عن آلام النفس والناس ، وما أظن ذلك إلا لما لاقاه كلاهما فى دنياه من مآسٍ وأرزاء ، ولِماَ كانا يحسانه من مشاركة فى هذه الآلام . . . ومن أروع ما قرأت للزهاوى هذه الصورة الأصيلة لحزن الوالدة على وحيدها :

وصكّت (حنان) أمه الوجه للجوى   وعضّت بأطرف البنان من الثكلِ
على رأسها تحثو التراب بكفها   وتذرف عيناها المدامع كالوبل
بنىّ ليؤذينى على رزئك الأسى   بنىّ ويغلى فى فؤادى كالمهل
أرى يا رجاء النفس خطبك قاتلى   ويا حبذا إذ أنت تحت الثرى قتلى

لكن الزهاوى لم يخرج إلى الناس ، ولم يندمج مع أفراد الشعب كما فعل حافظ ، بل آثر التقية والعافية فى الابتعاد عن الناس ، وظل حياته يردد هذا البيت :

أسرُّ مكان فى الطبيعة ربوةٌ   إلى جانبيها روضة وغدير

فشرُّ العالمين ذوو خمول إذا فاخرتهم ذكروا الجدودا
فدعني والفخار بمجد قوم مضى الزمن القديم بهم حميدا
وعاشوا سادةً فى كل أرض وعشنا فى مَواطننا عبيدا
إذا ما الجهل خيَّم فى بلاد رأيت أسودها مُسِخت قرودا

بمثل هذا الشعر القوى الرصين كان معروف الرصافى يهدر على ضفاف دجلة منذراً قومه ، مستنهضاً هممهم ، كما كان يزأر شاعر النيل حافظ إبراهيم ليوقظ قومه والشرق معهم ، وعاش كلاهما ثائراً مثيراً يحاول إيقاظ النيام وتنبيه الغافلين إلى حقائق الحياة فى القرن العشرين . . . الحياة الدائبة الحركة السريعة التطور الممعنة فى التقدم الخاطف ، التى لا تلتفت إلى الضعيف ولا المتردد والخوّار .

و إذا كان حافظ قد ولد فى مصر عام ١٨٧١ ، فإن معروفاً قد ولد فى بغداد عام ١٢٩٢ هجرية الموافق ١٨٧٥ ميلادية فى أسرة متوسطة الحال ، وكان أبوه جندياً من جنود الدولة العثمانية ، منحدراً من عشيرة كردية تقطن الكركوك تسمى الجبارة ، تدّعى أنها علوية النسب ؛ أما أمه فمن عشيرة القراغول وهم بطن من شمر القاطنين فى سهول العراق .

شب معروف فوجد والداً « متديناً يصلى كثيراً ، ويقرأ القرآن كثيراً ؛ حديد المزاج ، إذا غضب أخاف ، و إذا ضرب أوجع » كما وصفه . ولا شك أن هذا الوالد كان له أثر كبير فى حياة ابنه بما أخذه من القسوة ، وما فرض عليه من تدين وقيود اجتماعية أدَّت بالرصافى إلى الثورة المتطرفة على كل ما أحاط به و بمجتمعه من قيود وتقاليد ، و إلى الإحساس بالقلق والاضطراب طول حياته التى قضاها متنقلا بين ربوع العالم العربى .

ولقد اشتغل الرصافى فى مستهل حياته بالتدريس ، وعند ما شبت الثورة فى تركيا ضد السلطان عبد الحميد الذى طالبه الأتراك بالدستور ؛ كان الرصافى من أوائل الشعراء الذين غذوا هذه الثورة بأشعارهم ، ونفخوا فى نارها بأقوالهم ، ثم ترك عمله فى العراق وسافر إلى استامبول حيث أقام أمداً طويلا .

ولقد عاد إلى العراق عام ١٩٢١ فألحقته الحكومة فى العمل بالتدريس بمدرسة المعلمين ، ثم مفتشاً للغة العربية ، ثم فى ديوان الترجمة . وقد سافر كثيراً فى هذه الفترة إلى تركيا والشام ومصر كما أصدر جريدة الأمل التى عاشت من العمر ثلاثة أشهر .

وعند ما انتخبت العراق برلمانها سنة ١٩٣٠ كان الرصافى من بين أعضائه المبرزين ، وظل عضواً مدى ثلاثة انتخابات متوالية ، كان آخرها سنة ١٩٣٧ ، ثم اعتزل العمل والسياسة بعد ذلك وألحت عليه العلة فى أواخر أيامه حتى اعتزل فى بيته إلى أن وافاه أجله عام ١٩٤٥ .

لكن شهرة الرصافى الأولى لم تكن فى ميدان السياسة أو الخطابة بقدر ما كانت فى الشعر الذى عبر به عما يختلج فى نفسه من أحاسيس وما يضطرب فى بيئته من أحداث ومشاعر ، ولقد كان يمتاز إلى جانب هذه الحساسية ودقة الملاحظة والصراحة التى تأبى الرياء بسعة فى الاطلاع على مفردات اللغة وشواردها وبمقدرة لا تدانى فى حسن استعمال تلك المفردات . وما كان الرصافى ليستطيع الصمت على ما يرى أو يحس وقد تبلغ به صراحته حد التهور والاندفاع فتراه يكتب معزياً فى وفاة الحسين فى سجل التشريفات فلا ينسى أن يقول :

وفى الثاوى لنا عظةٌ وذكرى نجدّ بها على الخلفاء وجدا
فلا نرضى لهم من بعد وعدا ولا نرعى لهم من بعد عهدا

فكان له من هذه الصراحة أعداء كثيرون حاربوه فى حياته ورزقه أعنف الحرب ؛ حتى أنه عند ما كان فى العراق وطال حنينه إلى زوجه التى خلفها فى استامبول لم يجد ما يساعده على تكاليف السفر :

قد عاقنى الإملاق عن سفرى إلى مَنْ طال معتلجاً إليه حنينى
وأنا المشوق ولست ممَّن شاقهم بقر « العذيب » ولا مَهَا « يبرين »
لكن قلبى لا يزال يشوقه ظبى أقام بدار قسطنطين

ومع ذلك فهو لا يحمل ضغينة لأحد ، بل تأبى عليه رقة مشاعره إلا أن يرجو الخير لكل العباد حتى من عاداه :

أنا والله لا أريد بأن أوق ع شرًّا ولو على من يعادى
إن لى أن سمعت أنَّة محزو ن أنيناً مرجِّعاً فى فؤادى
إن نفسى عن همها ذات شغلٍ بهموم العباد كل العباد

ولقد حفلت أيام حياته بالأحداث السياسية الجسيمة التى وجدت صداها فى شعره بعد أن اخترقت بصيرته النفاذة أطرها ، ووقفت على حقيقة أمرها ومعانيها ، فقال عن التمثيل السياسى الناقص :

علم ودستور ومجلس أمة كلٌّ عن المعنى الصحيح محرَّفُ
أسماء ليس لنا سوى ألفاظها أما معانيها فليست تعرفُ

أما مبادئ ولسن التى أعلنها فى أعقاب الحرب العظمى فلن تعلن للشرق سوى الخسار ، وكان تفسيرها دائماً لصالح قوم دون أقوام آخرين :

مد « ولسونُ » فى السياسة حبلا جمع النقض فيه والإبراما
فلبعض الأنام كان عصاماً ولبعض الأنام كان خصاما
ملأ الدهر فى « فيومة » فخراً وبأزمير أخجل الأياما

وقال :

أيها المسلمون لستم من الغر ب بحال تستوجبون احتراما
إنما أنتم لدى الغرب قوم خلقوا عن سوى الشرور نياما

ولقد تفاعلت شاعرية الرصافى مع الطبيعة فترجمت عنها فى صور رائعة إلا أنها صور قد شابتها مشاعره الخاصة ولونتها بأحاسيسه وانفعالاته النفسية من أثر البيئة وما كان يحسه فيها من التواء وجفاء ، فاستمع إليه يصف الغروب فلا يرى فى صورته إلا انعكاساً لما يحسه بين قومه من ظلم وجحود :

غربت فأبقت كالشواظ عقيبها شفقاً بحاشية السماء طويلا
شفق يروع القلب شاحب لونه كالسيف ضمخ بالدما مسلولا
يحكى دم المظلوم مازج أدمعاً هملت بها عين اليتيم همولا
حتى توارت بالحجاب وغادرت وجه البسيطة كاسفاً مخذولا
فكأنها رجل تحرم عزه قرع الخطوب له فعاد ذليلا
وانحط من عرف النباهة صاغراً وأقام فى غار الهوان خمولا

ولطالما تردد هذا المعنى فى شعره حتى ليخيل المرء أن الرصافى قد قضى حياته شقيًا ، ومات بائساً ؛ وعاش عمره متألماً ناقماً على قومه الذين ضيعوه حتى ليصيح بهم صيحة يائس :

إذا الدُّرُّ أمسى كالسحاب محقرا شددت به للنابحات سواجرا
وما العار فى هــذا علىّ وإنمـــا على من أضاعوا مجدهم والمفاخرا

ومع كل هذا لم يفقد إيمانه بنفسه ، بل كان كأىّ فنان أصيل شديد الاعتزاز بفنه وإكرام شخصيته :

أغنت خشونة عيشى لى ذرا شرفى عما أرى بخسيس العيش من لين

عاهدت نفسيَ والأيام شاهدة ألا أقر على جور السلاطين

وكيف يقر على جور السلاطين من عاش حياته ثائراً على أوضاع مجتمعه ، وهو الذى عبد الحرية حتى ولو جلبت عليه سخط الجماعة :

الحر من خرق العادات منتهجاً نهج الصواب ولو ضد الجماعات

وآثر الحق ، وثار من أجله فى كل مكان :

أبى الحق إلا أن أقوم لأجله على الدهر فى كل المواطن ثائراً

وأن أتمادى فى جدال خصومه وأقرع منهم بالبيان المكابرا

ولا شك عندى فى أن أشد ألوان الباطل التى واجهها فى مستهل حياته وجعلت الدماء تفور فى عروقه كانت مظالم الأتراك واستبدادهم :

سكتنا من جهالتنا بقاعا يجور بها المؤتمر ما استطاعا

فكدنا أن نموت بها ارتياعا وهبنا أمة هلكت ضياعا

تولى أمرها عبد الحميد

تنعم فى قصورك غير دارِ أعاش الناس أم هم فى بوارِ

فإنك لم تطالَب باعتذارِ وهب أن الممالك فى دمار

أليس بناء يلدز بالمشيدِ ؟

بل قال فيهم :

هُمْ من الناس حيث لو غُرْبِلَ النا س لكانوا نفايةً وحُثالَهْ

ومن الجهل حيث لو صور الجهـــل لكانوا بين الورى تمثاله

حمّلونا من عيشهم كل عبء ثم زادوا أصهارهم والكلاله

لكن لا يقع اللوم كله على الأتراك ، بل أهل العراق شركاء فى اللوم لأنهم مكّنوا لهم من رقابهم واستكانوا للضيم وعيشة الهوان :

ألسنا الألى كانت قديماً بلادنا بأرجائها نُور العدالة يسطعُ ؟

فما بالنا نستقبل الضيم بالرضى ونعنو لحكم الجائرين ونخضع ؟
فلو أن عير الحى يشرب مثلنا هواناً لأمسى قالساً يتهوع

ويمضى الرصافى بين قومه يستنهض هممهم ويوقظ نيامهم ويقرع أسماعهم كل يوم بقارعة تزعزع إيمانهم بما ألفوه من أوضاع سقيمة ، فيوماً يقول لهم :

إنما العيش للأقوى فمن ضعفت أركانه فهو فى الثاوين مخترم
والعجز كالجهل فى الأزمان قاطبة داء تموت به أو تمسخ الأمم

ويوماً يقول :

عجبت لقوم يخضعون لدولة يسوسهم بالموبقات عميدها
وأعجب من ذا أنهم يرهبونها وأموالها منهم ، ومنهم جنودها

لكنه مع ذلك ينفخ فيهم من روحه ويحاول أن يسمو بمعنوياتهم ليطالبوا بحقهم فى الحياة :

سنطلب هذا الحق بالسيف والقنا وشيب وشبان على صَبَر بَلْقِ
بكل ابن حرب كلما شد هزها بعزم من السيف المهند مشتقٍ
تراه إذا ما عبّس الموت وجهه بوجه يلاقى الموت مبتسم طلقِ
من العُرْب مطبوع الطباع على العلا بديع معانى الحسن فى الخلق والخلق

وهو يعلم أن النجاح لن يحقق إلا إذا تعلم الشعب فعرف حقوقه ، فيمضى فى دعوته إلى العلم لا ينى فى ذلك ، ويهيب بقومه لتعليم البنت ، نصف المجتمع الذى يعيش فى غياهب الجهل ، بينما هى المدرسة الأولى للناشئة :

ولم أر للخلائق من محلٍّ يهذبها كحضن الأمهاتِ
فحضن الأم مدرسةٌ تسامت بتربية البنين أو البناتِ

وأخلاق الوليد تقاس حسناً بأخــلاق النساء الوالداتِ

فـكيف نظن بالأبناء خيرا إذا نشأوا بحضن الجاهلات

ولذلك قال الرصافى أيضاً :

هل يعلم الشرقىُّ أن حيــاته تعلو إذا ربّى البنات وهذّبا

من أين ينهض قائماً مَنْ نصفُه يشكو السقام بفالج متوصبا

وهكذا عاش الرصافى حياته يحمل مشعل الحرية والـكفاح والإصلاح الاجتماعى فى العراق ، ومهّد السبل لمن يأتى بعده ليستأنف الجهاد .

أبو القاسم الشابى

إذا الشعب يوماً أراد الحيـــــاة فلا بد أن يستجيب القدَرْ !
ولا بدّ لليل أن ينجلى ولا بدّ للقيد أن ينكسر

واستيقظ الشعب التونسى على هذه النغمة الجديدة من أنغام الحياة التى تدعوه للإيمان بنفسه و بحقه فى الحياة إيماناً يوصله إلى الظفر بحريته والتحرر من الأغلال .

وأصاخ الشعب فى دهشة لهذا النداء الحر الجرىء الذى يدعوه إلى مجاهدة العدو القوى المستبد . . . وأنَّى له أن يصاول هذا الجبار العنيد ذا القوة والجبروت والأسلحة الفتّاكة والمعدات الميكانيكية الحديثة

وازداد عجب الشعب وهو يستمع إلى هذه النذُر يوجهها على عدوّه فى جرأة غريبة على أذنيه التى ألفت أنغام العبودية . . . ينذره بالفناء العاجل والعاقبة الوخيمة عند صحوة الضعيف المظلوم ، فهناك سيجرفه سيل الإيمان وقوة الحق ونار الحقد الدفين فى الصدور . . . كلها ستقتلعه من حصونه ، وتقذف به إلى الحضيض :

ألا أيها الظالم المستبـدّ حبيب الفناء عدوّ الحياه
سخرتَ بأنّات شعبٍ ضعيفٍ وكفّك مخضوبة من دماه
وعشت تدنّس سحر الوجود وتبذر شوك الأسى فى رباه

* * *

رويدك لا يخدعنْك الربيع وصحو الفناء وضوء الصباح
ففى الأفق الرحب هول الظلام وقصف الرعود وعصف الرياح
ولا تهزأنّ بنوح الضعيف فمن يبذر الشوك يجنِ الجراح
تأمل هنالك أنّى حصدت رؤوس الورى وزهور الأمل

ورويّت بالدم قلب التراب وأشربته الدمع حتى نمل
سيجرفك السيل سيل الدماء ويأكلك العاصف المشتعل

لكن الشاعر الشاب يقسم لهم أن كل ذلك ممكن متى آمن الشعب بحقه ، وبأن هذا الحق يؤخذ ولا يمنح ، وبأن على الشعب أن يجاهد جهاداً إيجابيًّا فى سبيل الظفر به .

وتثور تونس الخضراء فى وجه الاستعمار ، وتلتف حول زعيمها الروحى أبى القاسم الشابى الذى أخذ ينشدها أناشيد الثورة والحياة التى تفيض بالقوة والعزة مستوحياً فى شعره تلك الروح السامقة التى تلهمه إياها جبال الوطن الشاهقة ؛ تلك الجبال التى عشق جمالها وهام بين سفوحها الخضراء ووديانها . وهو فى صوره الشعرية قد تحرر من أسر الماضى وعبودية التقليد ، واتجه بجمّاع قلبه ونفسه إلى الحياة ينتزع منها صوره بعد أن صقلت شاعريته بتجارب العلم والحياة فى وطنه وفى فرنسا حيث ارتحل طلبا للمعرفة فاغترف منها ما شاء إلى جانب اللهو والانطلاق ، فجاء شعره صورة صادقة لما يحسه ، وللحياة فيما حوله . فهو إذا تحدث عن جبال تونس ومراعيها نقلك سحر حديثه على أجنحة ملائكية رفيقة إلى ذلك الجمال الساحر تمتع الطرف والنفس به ساعة مع الشاعر :

أقبل الصبح جميلًا يملأ الأفق بهاه
فتمطّى الزهر والطيرُ وأمواج المياه
قد أفاق العالم الحىُّ وغنى للحياه
فأفيقى يا خرافى واهرعى لى يا شياه

* * *

وامرحى ما شئت فى الوديان أو فوق التلال
واربضى فى ظلها الوارف إنْ خفتِ الكلال

وامضغى الأعشـاب والأفكار فى صمت الظلال
واسمعى الريح تغنى فى شماريخ الجبـال

* * *

إن الحياة تدب فى كل ما حوله . . . فى مياه النهر فى صوت الإنسان فى أغنامه التى تمضغ الأفكار وتفهم عند ما تهمس به نفسه . . . إنها روحه الكبيرة العارمة تفيض على ما حوله حياة فيمضى يتحدث إلى شاته :

لك فى الغابات مرعاك ومسعاك الجميـل
وإلى الإنشـاد والعزف إلى وقت الأصيل
فإذا طالت ظلال الكلأ الغض الضئيـل
فهلمّى نرجع المسعى إلى الحىّ الجميـل

ويزداد شعره رقة وعذوبة حتى لتخاله روحاً لطيفاً تحوم حول الحبيب العزيز تستوحى جماله وتقدسه ، وترتل آيات سحره وفتنته ، وتنقل كل هذه الفنون إلى دنيا الناس أنغاماً تفيض طرباً وجمالا حتى ليكاد القارئ يرقص على وقعها طرباً أو يعيش فى عالمه حقاً . . . استمع إليه واعجب معى لما تسمع :

عذبة أنت كالطفولة ، كالأحلام ، كاللحن كالصباح الجديدِ
كالسماء الضحوك ، كالليلة القمراء ، كالورد ، كابتسام الوليدِ
يا لها من وداعة ، وجمال ، وشـباب منعّم أملودِ
أى شىء تراك ؟ هل أنت فينوس تهادَى بين الورى من جديدِ
أم ملاك الفردوس جاء إلى الأرض ليُحْيِ روح السلام الشهيدِ ؟
أنتِ من أنت ؟ أنت رسم جميل عبقرى من فن هذا الوجود
فيك ما فيه من جمال وعمق وغموض مقدّس معبودِ

خطواتٌ سكرانة بالأناشيد وصوتٌ كرجع نايٍ بعيدِ
وقوام يكاد ينطق بالألحان فى كل وقفة وقعود
كل شيء موقَّع فيك حتى لفتة الجيد واهتزاز النهود

ويفشل أبو القاسم فى غرامه ، لكنه شابٌّ ملء إهابه حياة وأمل ذو عزيمة من حديد لا تعرف اليأس ولا تمل من الحياة ، بل هو يعشق حياته وما فيها من جمال ، ولا يريد أن يشقى بهذا الفشل ، ولا أن يستسلم لآلام هذا الحب العنيف ؛ فنراه يصيح بقلبه ونفسه وروحه ويدعوها جميعاً لاغتنام فرصة العمر ، والابتعاد عن مواطن الحزن واليأس :

اسكتى ياجراح واسكنى يا شجونْ
مات عهد النواح وزمان الجنون
وأطلَّ الصباح من وراء القرونْ
فى فؤادى الرحيب معبدٌ للجمال
شيَّدته الحياةْ بالرؤى والخيال
فتلوت الصلاةْ فى خشوع الظلال
وحرقت البخور وأضأت الشموع

لا . . . بل إن تونس الخضراء جميعاً فى حاجة إلى أن تعشق الحياة مثله ، وإن لها عليه حقًّا أن يوقظها من سباتها ، وأن يستثير حميّتها وينفخ فيها من شبابه وروحه . . . إنه يزأر زئير الأسد لينبه الغافل ويصحو النائم . . . إنه يأخذ بيد مواطنيه إلى منابع الحياة ومشارف النور ، ويبصّرهم بحقهم فى الحرية والكرامة ، والعيش العزيز .

وتنطلق من قلبه الأناشيد الوطنية والملاحم الشعرية الرائعة تهزُّ قلوب مواطنيه هزًّا عنيفاً ، وتزلزل قواعد الظلم والطغيان زلزلة رهيبة ، فاستمع إليه يتدرج بمواطنيه فى القصيد من رقة الإنسام ودعة الغدير فى انسيابه اللطيف وشقشقة الطير يغرد لمشرق الصباح الجميل إلى هزيم العاصفة وزئير الأنواء .

خلقتَ طليقاً كطيف النسيم ... وحرًّا كنور الضحى فى سماه
تغرد كالطير أنَّى اندفعت ... وتشدو بما شاء وحى الإله
وتمشى كما شئتَ بين المروج ... وتقطف ورد الربى فى رباه
فما لك ترضى بذلّ القيـود ... وتحنى لمن كبّلوك الجباه
وتقنع بالعيش بين الـكهوف ؛ فأين النشيد ، وأين الأُباه ؟
ألَا أنهض وسرْ فى سبيل الحياة فمن نام لم تنتظره الحيـاه
إلى النور ؛ فالنور عذب جميل ، إلى النور فالنور ظلُّ الإله

لـكن السل اللعين يصيب الشاعر الشاب فيرهقه ، ويعتصر ماء الحياة فى جسده الغض ؛ وكأنه قد تحالف مع الاستعمار والظلم فى البطش بذلك الرائد الشاب . لـكن الشاعر يقاوم ويناضل فى الجهتين ، ويسخر بالعدوّين ، ويود لو طال به العمر حتى يرى فجر الحرية يشرق على بلاده :

لا يطفئْ اللهب المؤجج فى دمى ... موجُ الأسى وعواطفُ الأَرزاء
فاْهدمْ فؤادى ما استطعتَ فإنه ... سيكون مثلَ الصخرة الصمّاء
لا يعرف الشكوى الذليلة والبكا ... وضراعةَ الأَطفال والضعفاء
ويعيش كالجبّار يرنو دائماً ... للفجر . . للفجرِ الجميل النائى
النور فى قلبى وبين جوانحى ... فعلامَ أخشى السيرَ فى الظلماء
إنى أنا النّايُ الذى لا تنتهى ... أنغامه . . . ما دام فى الأَحياء

بل إن أبا القاسم عند ما يرثى أباه . . . لا ينوح ولا يبكى ولـكنه يقدم للناس أنشودة من أناشيد الحياة تحبب إليهم الحياة وتزيدهم حرصاً عليها كحرصه هو وتعلقه بها :

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبى — ومشاعرى عمياء بالأحزانِ
إنى . . سأظمأ للحياة وأحتسى — من كأسها المتوهج النشوانِ
وأعود للدنيا بقلب خافق — للحب . . والأفراح . . والألحانِ
ولـكل مافى الـكون من صور المنى — وغرائب الأهواء والأشجان
حتى تحركت المنون وأقبلت — فِتَنُ الحياة بسحرها الفتّان
فإذا أنا طفل الحياة المنتشى — شوقاً إلى الأضواء والألوان
وإذا التشاؤم بالحياة ورفضها — ضربٌ من البهتان والهذيانِ
إن ابن آدم فى قرارة نفسه — عبد الحياة الصادق الإيمان

أرأيت إلى هذا الفتح الجديد فى عالم الشعر العربى ،وهى المرثية التى لا تزخر بالتوجع والألم ، ولا تحبب الناس فى الموت والعدم ؟ أرأيت كيف يدعو الشابى قومه للحياة والتملق بأهدابها والاستمتاع الـكريم بها ؟ لـكن هيهات فالداء لا يرحم وهو ينشب أظفاره فى صدر الشاعر . ويدرك أبو القاسم أنه ميت لا محالة فترى اليأس يهزم نفسه فى لحظات ، ويختلس مشاعره فى ومضات ؛ فتسمع نغماً غريباً من الشاعر الفتى التى يصطبغ بصبغة فلسفية عميقة زاهدة فى الوجود . إنه يقول متأملا هذا الوجود :

نحن نمشى وحولنا هاته الأكوان تمشى
لـكن لأية غايهْ ؟
نحن نشدو مع العصافير للشمس
وهذا الربيع ينفخ نايهْ ؟

نحن نتلو رواية الـكون للموت
ولـكن ماذا ختـام الروايهْ ؟
هكذا قلت للرياح ، فقالت :
سَلْ ضمير الوجود . . كيف البدايهْ ؟

وتغتال المنون شباب الشاعر عام ١٩٣٥ وهو لم يتعدَّ السابعة والعشرين من عمره ؛ لـكن وقد أحس النهاية المحتومة تدنو منه تراه لفرط شغفه بالحياة يرثى نفسه رثاء عجيباً وكأنه يود لو لقى في العالم الآخر صوراً من دنيا الناس حتى لا يأسى على هذا الفراق :

ها أنت ذا قد أطبقتْ جفنيك أحـلام المنونْ
وتطايرَتْ زمر الملائك حول مضجعك الأمينْ
ومَضَتْ بروحك للسماء عرائس النور الحبيب
يحملن تيجاناً مذهّبة من الزهر الغريب
وتفرّق النـاس الذين إلى المقابر شيّعوك
ونسوك من دنياهمو ؛ حتى كأن لم يعرفوك

لـكن هناك قلباً لم ينسه ولن ينساه ؛ ذلك قلب الوالدة الحنون ، فيذكره أبو القاسم ذكر الممتن المعترف بالجميل ، ويصوّر فى أبيات رائعة تلك الأمومة الخالدة :

إلا فؤاد ظل يخفق فى الوجود إلى لقاكْ
ويودُّ لو بذل الحيـاة إلى المنية وافتداكْ
فإذا رأى طفلا بكاك ، وإن رأى شبحاً دعاك
يصغى لصوتك فى الوجود ، ولا يرى إلا بهاك

أعرفتَ هــذا القلب فى ظلماء هاتيك اللحودْ

هو قلب أمك .. أمك السكرى بأحزان الوجودْ

* * *

هــذا أبو القاسم الذى لم يرج إنصافًا فى حياته لأنه قد أدرك من طباع الناس أن :

الناس لا ينصفون الحىّ بينهم   حتى إذا ما توارى عنهم ندموا

« إن الرافعي ليس من طبقة الموظفين الذين تعنيهم الوزارة بهذه القيود . . . إن للرافعي حقاً على الأمة أن يعيش فى أمن ودعة وحرية . . . إن فيه قناعة ورضى وما كان هذا مكانه ولا موضعه لو لم يسكن إليه . دعوه يعيش كما يشتهى أن يعيش ، واتركوه يعمل و يفتن و يبدع لهذه الأمة فى آدابها ما يشاء أن يبدع ، و إلا فا كفلوا له العيش الرضيّ فى غير هذا المكان » .

هذا ما كتبه الشاعر حفنى ناصف إلى وزارة الحقانية عن الأديب الشاعر مصطفى صادق الرافعي ، وكان الأول مفتشاً بالوزارة ذهب ليحقق شكوى من عدم احترام الرافعي لمواعيد العمل ، وكان الثانى كاتباً صغيراً بمحكمة طنطا الأهلية .

هذا الكاتب الصغير الذى لم يتجاوز أكبر مرتب تقاضاه فى حياته بضعة وعشرين جنيهاً ، والذى عاش معظم سنى حياته قانعاً بركنه الصغير فى محكمة طنطا ، كان أمة وحده فى عالم الأدب ؛ فكم أدار من معارك أدبية ومساجلات مع كبار الأدباء والشعراء فى مصر والشرق امتد بعضها لبضع سنين ، وكم من درّة أخرجها تتألق فى جبين الأدب العربى ، وكم كان له من إنتاج عميق غزير ، وكم صبر على الأذى الذى ألحق به كثيراً بغير حق ؛ وكان أشد ما يهاجمه به خصومه بعد أن تعجزهم الحجة و يسقط فى أيديهم أن يتهموه فى مصريته ! .

حقيقة أن الرافعي ينحدر من أصل سورى إلا أنه ولد فى يناير سنة ١٨٨٠ فى قريته بهتيم من مديرية القليوبية فى مصر ، ونشأ فى مدينة طنطا حيث عاش أبواه وماتا ، كما دفن هو أيضاً فى ثراها يوم ١٠ مايو سنة ١٩٣٧ ؛ ولقد مكث الرافعي فى المدارس حتى نهاية المرحلة الابتدائية ثم أصيب بمرض خطير لم يبرأ منه إلا بعد أن فقد سمعه ، فانقطع عن المدرسة ، وعكف فى بيته يدرس ما حوَت مكتبة أبيه

من تراث العلوم الدينية والفقهية واللغوية . وأسرة الرافعى مشهورة بدينها وتقواها وما أنجبت من علماء دينيين وقضاة شرعيين متضلعين فى علوم الفقه .

وكان لهذه النشأة أثر بعيد فى سلوك الرافعى فى الحياة ، فقد باعدت هذه العاهة بينه و بين الناس ، كما زادت طريقته فى تحصيل العلم الهوّة بينه و بينهم فعاش غريباً فى بلاده منفرداً فى حياته رغم هذا الكفاح الطويل المرير الذى حمل رايته من أجل اللغة العربية والقومية الشرقية اللتين كانتا له هدفاً حتى قال : « القبلة التى أتجه إليها فى الأدب إنما هى النفس الشرقية فى دينها وفضائلها ، فلا أكتب إلا ما يبعثها حية ، ويزيد فى حياتها وسمو غايتها ويمكّن لفضائلها وخصائصها فى الحياة ، ولذا لا أمس من الآداب كلها إلا نواحيها العليا ، ثم إنه يخيل إلىّ دائماً أنى رسول لغوى للدفاع عن القرآن ولغته و بيانه » .

لكن الرافعى قبل أن يحدد هدفه فى الحياة هذا التحديد الواضح كان يعدّ نفسه ليكون شاعراً من فحول الشعراء يحتل مكانة كمكانة بعض معاصريه مثل حافظ أو البارودى ، وقطع مرحلة طويلة فى هذه الطريق حتى صقلت موهبته ونضجت وأخرج للناس ديواناً من ثلاثة أجزاء ، ثم أتبعه بديوان آخر ؛ لكنه عاد فأحلّ النثر من إنتاجه المكان الأول ، لكن غلبت على أسلوبه الشاعرية ؛ فهو ناثر شاعر ، أو كاتب يكتب بأسلوب الشعراء .

وكان الشرق فى تلك الفترة من حياة الرافعى ينفض عن نفسه غبار سبات عميق قد أخذ يفيق منه ، ودبّت فى أوصاله روح جديدة ، وأخذ ينبثق فى أرجائه وعى جديد ، وتلفت الشباب باحثاً عن أغانيه فقدم له الرافعى نشيده الخالد :

اسلمى يا مصر إننى الفـدا ذى يدى إنْ مدّت الدنيا يدا
أبدًا لن تستكينى أبدا إننى أرجو مع اليوم غدا

فكان نشيداً وطنياً ، ثم نشيداً لكشافة مصر ، ثم نشيداً قومياً . وتتالت أناشيد الرافعى حتى لقب يوماً بشاعر الأناشيد :

ولقد تجاوبت نفس الشاعر مع ثورة الشعب التى قام بها عام ١٩١٩ فعبّر عن آلامه وآماله بنشيده :

حُمـاة الحِمَى يا حُمـاة الحِمى   هلمُّوا هلمُّوا لمجد الزمن

لقد صرخت فى العروق الدما   نموت ، نموت ؛ ويحيـا الوطن

لـكن الرافعى ذلـكم الشاعر مرهف الحس رقيق القلب ما كان ليستطيع أن يغمض عينيه عن مناظر البؤس المحيط به والفقر الذى يكبل أغلبية مواطنيه بقيوده وأحزانه ، فيمضى يكتب الأناشيد ونفسـه تتقطع حسرات على إخوان له فى الإنسانية . . . لقد نفّس عن آلام نفسه بكتابه « المساكين » الذى كان لصـدوره دوى كبير فى عالم الأدب العربى . . . ولقد قال فى مقدمته . . .

« هذا كتاب حاولت أن أكسو الفقر من صفحاته مرقّعة جديدة . . . فقد والله بَلِيَتْ أثواب هذا الفقر ، وإنها لتنسدل على أركانه مِزَقًا متهدلة يمشى بعضها فى بعض ، وإنه ليلفّقها بخيـوط من الدمع ، ويمسكها برُقَع من الأكباد ، ويشدها بالقطع المتنافرة من حسرة إلى أمل ، وأمل إلى خيبة ، وخيبة إلى هم . وأقبح من الفقر ألا يطهر الفقر كاسياً ، أو تـكون له زينة إلا من أوجاع الإنسانية أو المعانى التى يتمنى الحكماء لو أنها غابت فى جماجم الموتى الأولين . . . » .

وفى قصيدة من هذا الـكتاب قال يصف فتاة أفقرتها الحرب (١٩١٤و١٩١٨) :

طريدة بؤس ملّ من بؤسها الصبرُ   وطالت على الغبراء أيامها الغُبْرُ

تنكّرت الدنيا لها ، ورمَتْ بها   على الـكوكب الهاوى حواهُ فضاً قَفْرُ

وكانت كما شاءت وشاء جمالها   كما اشتهت العليا ، كما وصف الشعر

وما قيمة الحسناء يقبح حظها   وتذوى بروض الحب أيامها النضر

من الحسن معنى يهلك الحسن عنده   كما أهلك الأزهارَ أن يؤخذ العطرُ

وإنى ليأخذنى العجب والإعجاب بهذا المعنى الأصيل المبتكر فى وصفه النوم فى العراء فى نفس القصيدة حيث يقول :

وفى غرفة مما بَنَى الله لا الوَرَى فليس على مَنْ حلّ ساحتها أجرُ
جوانبُها شرق الظـلام وغربه وفى سقفها ضاءت كواكبه الزُّهْرُ

ولقد تجلت شاعريته فى أروع صورها عند ما كتب عن حبه ... حبه العذرى النادر فى عصرنا الحديث ، وكان غرامه بأديبة فيلسوفة شاعرة ، وكانت فى طريق هذا الغرام عقبات كبار ، لعل أهمها اختلاف الديانة .. وقد عرفها فى صالونها الأدبى الذى كان كعبة الأدباء والشعراء فى القاهرة ، ثم اتصلت بينهما الأسباب ، وما أكثر ما انقطعت . فلجأ إلى الكتب يتحدثان حديثهما العذب لتشركهما الملايين فى متعتهما المثلى . فاستمع إليه يتحدث إليها :

« لقد وضعك حسنك فى طريق موضع البدر . يرى ويحب ولا تناله يد ، ولا تعلق بنوره ظلمة نفس . لكن كبرياءك نصبتك نصبة الجبل الشامخ . كأنه ما خلق ذلك الخلق المنتثر الوعر إلا لتدق به قلوب المصعدين فيه ... كونى من شئت أو ما شئت خلقاً مما يكبر فى صدرك ، أو مما يكبر فى صدرى . كونى ثلاثاً من النساء كما قلت أو ثلاثة من الملائكة ، ولكن لا تكونى ثلاثة آلام . انفحى نفح العطر الذى يلمس بالروح ، واظهرى مظهر الضوء الذى يلمس بالعين ؛ ولكن دعينى فى جوك وفى نورك ، اصعدى إلى سمائك العالية ولكن ألبسينى قبل ذلك جناحين ؛ كونى ما أرادت نفسك ، ولكن اشعرى نفسك هذه أنى إنسان » ... وكاد الزواج أن يتمّ بينهما ، لكن أهليها قالوا إنها مجنونة ، وحملوها إلى مصحة فى موطنها الأصلى حيث سجنوها إلى أن مات الرافعى .

قلت فى مستهل حديثى إن الشرق كان يستقبل أنسام نهضة جديدة عند ما كان الرافعى فى فجر شبابه ، وقد صحب هذه الصحوة قيام فريق من الأدباء بالدعوة

إلى التجديد فى كل شىء و إنكار القديم فى كل شىء ، بل دعوا إلى تمصير اللغة العربيــة عن طريق إدخال الألفاظ الدارجة ومزج تراكيبها بالمصطلحات العلميــة . وكانت « الجريدة » ، ومن بعدها « الجديد » لسان حال هذه الدعوة الجديدة ، وزعموا أن الميراث الأدبى البليغ قديم ، و يجب أن يذهب بذهاب ، أهله فلم يتصدّ لمدافعتهم سوى الرافعى ، وهو من هو من صغر الشأن ، على حين كانوا جماعة كبيرة من أصحاب الجاه والسلطان ، وكانت المعركة خيراً و بركة على الأدب العربى إذ حوّلت الرافعى إلى محام عن العربية وآدابها ، فأخرج على أثر ذلك كتابه (تاريخ آداب العرب) الذى قال عنه أمير البيان شكيب أرسلان « لوكان هذا الكتاب خطًّا محجوباً فى بيت حرام إخراجه منه ، لاستحق أن يحجّ إليه ؛ ولو عكف على غير كتاب الله فى نواشئ الأسحار لكان جديراً بأن يُعكف عليه » .

أعقب هذا الكتاب جزء ثانٍ فى إعجاز القرآن . لقد كتب الرافعى الكثير عن الإسلام ، ودافع عنه كثيراً أمام ناقديه ، ولعل ما كان يغمزه به خصومه فى مصريته هو ما جعله يكثر من طَرْق هذا الموضوع والخوض فيه ، بل جعله من الروّاد الأوائل فى القرن العشرين الذين جددوا دعوة الإسلام العالمية التى تعتبر كل بلاد المسلمين وطناً لهم أينما كانت شرقاً أو غرباً ، وترمى إلى محو الحدود السياسية بين بلاد الوطن الإسلامى .

عبدالحميد الديب

عبقريتان ظهرتا فى شرقنا العربى فى مطلع القرن العشرين . أما العبقرية الأولى فقد تمثلت فى الفنان سيد درويش الذى بعث الموسيقى الشرقية بعثاً جديداً ، وأما العبقرية الثانية فكانت عبد الحميد الديب ذلكم الشاعر العظيم .

وكان لقاؤهما عبقرياً عجيباً لا دخل فى تدبيره لغير الصدفة إذ هى التى ساقت الديب إلى حىّ بولاق ، وهناك اختار إحدى المقاهى البلدية ليقضى فيها بعض فراغه ، وجلس ليحتسى الشاى فاسترعى نظره رجل يلوك فى فمه شطرة من أغنية فى أحد أركان المقهى وقد أخذ يردد هذه الشطرة عشرات المرات دون أن يتمها :

« والله تستاهل يا قلبى »

فتقدم منه الديب متطفلا وقال له : كمّلها :

والله تستاهل يا قلبى   ليه تميل ما كنت خالى

إنت أسباب كل كربى   إنت أسباب ما جرالى

وكاد سيد درويش أن يطير فرحاً ، فانتصب واقفاً وعانق الديب ، وأخذ يقبّله استحساناً .

كان الديب حينئذ طالباً فى مدرسة دار العلوم فى منتصف العقد الثالث من عمره وقد هبط إلى القاهرة من بلدته كمشيش مركز منوف ليطلب العلم فى الأزهر كغيره من أبناء الريف ، فلما أتم المرحلة الأولى من التعليم الأزهرى التحق بمدرسة دار العلوم ليتخصص فى العربية وآدابها .

ولقد كان مولده قبل مولد القرن العشرين ببضع سنين فى تلك القرية من أسرة

متوسطة الحال تاجرت فى القطن فارتفعت فجأة وانخفضت فجأة ، فعاش الديب حياتين ، وذاق لونين جد مختلفين من ألوان العيش ...

ولقد هزت الأحداث التى مرت به نفسه فزلزلت كيانه ، وأحدثت اضطراباً عنيفاً فى تفكيره ومشاعره ؛ فاشتركت كل هذه العوامل فى تشكيل مزاج هذا الإنسان فكان رقيق المشاعر ، لكنه عنيف الثورة . . له قلب طفل وعقل فيلسوف . . سريع الغضب ، سريع الرضا .

وكان لانتقاله السريع إلى حضيض الفقر مرتين أثر بالغ فيما عرف عنه من حقد مكين على المجتمع ، بل إن هذا الانتقال قد هيأ للديب فرصة نادرة لتصوير حياة السواد الأعظم لمجتمعه أصدق تصوير . . هذا السواد الجاهل الفقير ، ولو أنه كان كثيراً ما يستعير هذه الصور من حياته نفسه كقوله :

أذله الدهر لا مالٌ ولا سَكَنُ فتًى تزيد على أنفاسه المِحَنُ
ثيابه كأمانيــه ممزّقةٌ كأنه وهو حيٌّ فوقه كَفَنُ

وهو فى أحط درك من الفقر لا ينسى عبقريته ونبوغه وتفوقه ، وهى أمور عميقة فى شعوره ، فيقول مسترسلا فى نفس القصيد بعد أن يعترف بأن حكمته مضيعة لفقره ، ونتاجه هباء لمكانته من المجتمع :

كأنه حكمةُ المجنون يرسلها بغير وَعْىٍ فلا تُصغى لها أُذُنُ
هو الهدى صرّفتكم عنه محنته إن العزيز مهين حين يُمْتَحَنُ
ألا فصونوه من بأسائه كرما ولا تخلّوه يورى شره الزمن
إذا رأيتم محيل البؤس آض لكم من المعارف روضاً نبته حسن

بل إن الديب مهما زلزل إيمانه بكل قيم الحياة فإن هذا الإيمان بنفسه لا يتزعزع طرفة عين ، بل هو يبلغ منتهى القوة ؛ بل الغرور ، حين يقول :

أنا ملك عبقرىّ الجـلال وإنْ صدَفَ التاجُ عن مفرق

ولابد أن يكون لهذا الملك آمال عراض تتفق وجلال تصوره ؛ فتراه أول مايهبط القاهرة ، و يلتحق بالأزهر ؛ يستأجر حجرة متواضعة فى (قصر الشوق) بالحى الحسينى ، ولا تلبث هذه الحجرة أن تصبح نادياً سياسيًّا ومقرًّا (لحزب العطف على الإنسانية) الذى ألفه مع زميله الشيخ محمد بدير (المحامى الشرعى الآن) . وقد ألغى الديب حز به بعد أول نقد وُجِّه له فى صورة كاريكاتورية بمجلة الكشكول . وكان الديب جبانا أمام النقد وأمام الموت لا يتصور كليهما ... بل يفر منهما فراراً . وجاء بعد ذلك لقاؤه بسيد درو يش فكان نقطة تحوُّل فى حياته ، إذ كان سيد درو يش فى حاجة إلى من يمده بالأغانى ، وقد وجد فى الديب العبقرىّ الموهوب الذى طال ارتقابه ، فلم يفلت الفرصة المتاحة ، وقربَ الديب إليه ، وأغدق عليه المال بغير حساب ، وكان الكرم من الخصال الأصيلة فى الفنان سيد درو يش .

وفى غمرة هذا الكرم انتقل الديب للسكنى فى مسكن أنيق (ڤيلاًّ) ولم يقدر عواقب الآفة الملعونة التى أعداه بها سيد درو يش ، ولا عمل حساباً للزمن وتقلبات الأيام ، و إذا بالموت يختطف صاحبه فجأة ، و إذا بالمخدر يلتهم ما بين يديه من مال . وتنقطع أسباب الرزق بالديب فتلفظه (الڤيلا) إلى الطرقات يمشى فيها هائماً طول الليل ، و يأوى مع مطلع الفجر إلى المساجد . ولقد انتهى به المطاف ذات ليلة إلى مسكنه الأنيق ، فوقف يناجيه بقصيدة من عيون الشعر ؛ قال فيها :

لو أستطيع البُكا يا أيها الطَّلَلُ	بكيتُ حتى شكَتْ من دمعى المُقَلُ
أرى الحوادث ذؤباناً مقذَّفة	علىّ دون الورى تَعْدُو وتقتتل
فكم تصوَّح عودى بعد نُضرته	وكم خَبَا فى دياجى عمرىَ الأمل
وكم دعت لى أمى وهى باكية	وكم دعا لى أبى يقظانَ يبتهل
إذا تطلّبت عيشى مِتُّ من كمد	وإن تطلبت حَينى يبعُد الأجَلُ

وأجلس الليل فى صحبى أسامرهم وكلهم بمجالى رقتى حفلوا
حتى إذا سلَّموا للعَوْد وانصرفوا سريت جوعان يفرِى عزمى الـكَلَلُ
جوعان ! يا محنة أربت على جَلَدِى كأنّ ليلى بيوم البعث متَّصلُ

ومن كان فى مثل طبع الديب من الـكرم والجود يحزُّ فى نفسه ألا يجد ما يدعو الصحب إليه ، بَلْهَ ما يتبلغ به . وقد عبر عن أساه بقوله :

مرّوا على الدار يوم العيد ضيفانا يستمطرون نداها كالذى كانا
والدار لما رأتهم مقبلين لها تعاونت فى البكا أهلا و بنيانا

وتشتد المحنة بالديب ، و يشعر بدبيب الفناء يحمله إليه المخدر الذى أدمن عليه ، وهو لا يريد أن يحمّل نفسه شيئاً من تبعة حاله ، بل يلقى العبء كله على الحظ ، فيقول كأنه يرثى نفسه وأمانيه :

وداعاً شبابى فى ربيع شبابى وأهلا حسابى قبل يوم حسابى
أمانىّ تفريها الخطوب رأيتها كأشلاء قتلى فى رؤوس حراب
ولو أن وهّاب الحظوظ أراد لى سلامة إحداها لخفف ما بى
ولـكنها ماتت بليلة عُرسها ومن دمها القانى جعلت خضابى

وتردّى الديب فى الهاوية إلى منتهاها ، وشاعت أنباء نـكبته بين الأدباء ، فراح أحد كبار الشعراء يدعو الزملاء للأخذ بيد زميلهم فى محنته ، وكتب مقالا طويلا فى الأهرام بعنوان (الأديب الشمّام) .

ورغم أنه لم يذكر اسم الديب صراحة فى المقال إلا أن كل سطر كان يشير إليه ، وعزّ على الديب أن يعرف الناس أمر انحلاله ، فأخذ يدافع عن نفسه فى قصائد كثيرة من أروعها قوله :

أفاطمَ إن الناس قد أكلوا عِرْضى وبثّوا لَعيناً فى السموات والأرضِ
يقولون : شمّام . وما شمّ معطسى سوى الوردة الفيحاء والنرجس الغضِّ

أليس بياض الكوكايين مبشراً بأسود عيش فى غياهبه أقضى
فمن فقد عقلٍ كان مبعثَ حكمةٍ إلى البؤس فى ذل السؤال أو القرض
إلى السجن بين المجرمين يؤودنى زمان كيوم الحشر يأتى ولا يمضى

وفاطمة هذه التى يتوجه إليها بالحديث ، قيل إنها بائعة يانصيب ، ومدمنة كان يقاسمها كما كانت تقاسمه ما يحصلان عليه من المخدر ، وكان لها وفيا وفاء نادراً كما كانت له .

وهو يمضى يلتمس المعاذير لنفسه من سوء حاله فيقول :

يقولون : سكّير . وما شربوا كأسى وما شربوا البلوى كما شربتْ نفسى
إذا قلت : قديس : يقولون : سادرٌ وإن قلت : جنٌّ يحملونى ؛ إلى رمسى

لكن إذا طالت البلوى وأزمن الفقر لابدّ أن يضيع الحياء ؛ لاسيا بعد أن انكشف الستر ، وزار السجن ؛ فنرى الديب بعد ذلك مستهتراً لا يحاول الدفاع عن نفسه أو الحياء من بوائقه ؛ بل نراه ينقلب متمرداً على التقاليد ، هازئاً بالناس ، ساخراً بالمواضعات ، مدافعاً عن مباذله ؛ فيقول فى إحدى قصائده :

هات المدامَ فدينُ الله تيسيرُ وأسعدُ الناس مخدورٌ ومخمورُ
هات المدام ولا تعرض لمتربتى مهما غلا العيش لم تَغْلُ القواريرُ
هات المدام الصبوحَ البكرَ يحملها إليك أخنثُ ساجى الطرف مغرورُ
إذا دعوتَ تراخى عنك معتذراً وأسكرتْ كالطّلى منه المعاذيرُ
فديتها حانة الحاخام هادئة سكرى يعربد فيها الحُسْنُ والنُّورُ

وهو لا يرى أى غضاضة بعد ذلك فى اعترافه أنه لا مكان له إلا قارعة الطريق، أو حانة الحاخام هذه :

مَنْ كان يحسدنى فليرتقب سَحَراً إنى على الجوع أطوى الأرض حيرانا
ليلتمسنى لدى الخمّار يحبسنى فى السجن آناً وفى حانوته آنا

وحانة الحاخام هذه حانة صغيرة حقيرة فى حارة اليهود ، وكان يحتفل صاحبها به لما يراه من التفاف الروّاد حوله وانجذابهم إلى حانته بفضل وجود الديب فيها ، وكان مبالغة فى إكرامه يدعوا بنته الجميلة إلى القيام على خدمة الديب أحياناً ؛ حتى أغرم بها الديب ، وشغف بها حبًّا ، وقال فيها شعراً كثيراً . ولعل من أبلغ ما وصفها به هذه الصورة الشعرية الأصيلة التى بلغت من روعة التصوير ودقة الوصف أقصى المدى :

لا جنّبونى لَحْظَها وقوامها وثدياً وراء الثوب يقظان يحلمُ
تقدِّمُ لى كأسى وترنو مُدِلّةً فمن أىّ خمريها أجنُّ وأُلهَمُ ؟

ألا تلتمسون عذراً لهذا العبقرى الذى ردّ إلى الشعر العربى اعتباره أمام التاريخ وبعد ما عرفتم ، إذا هو صاح بأمته التى جهلته وتركته مضغة سهلة للداء ولأنواء الحياة ولم تقدر نبوغه وفنه قائلاً :

يا أمة جَهِلتْنى وهى عالمةٌ أن الكواكب من نورى وإشراقى
أعيش فيكم بلا أهلٍ ولا وطنٍ كعيش منتجع المعروف أفّاقِ
وليس لى من حبيب فى دياركمو إلا الحبيبين : أقلامى وأوراقى
لم أدرِ ماذا طعمتم فى موائدكم لحم الذبيحة أم لحمى وأخلاقى !

لكن الحظ يومض ومضة واحدة فى آخر أيام الديب ، يوم التقى فى مقهى الفيشاوى بالحى الحسينى بوزير أديب فى إحدى سهرات رمضان ، فيشفق عليه الوزير ، ويسعى له حتى يعين فى وظيفة بوزارة الشؤون الإجتماعية عام ١٩٤٣ ، ويبالغ الحظ فى إكرام الديب فيزوجه من سيدة تجمعها به رابطة البؤس . ويبدو الديب لأول مرة فى ثياب نظيفة منظمة ، ويتذوق معنى الحياة المنتظمة ؛ لكن الديب يموت فجأة ولم تنقض أشهر معدودات على زواجه ووظيفته ، وكأنى به كان ينظر بعين الغيب يوم قال :

بيني وبين الغِنَى خصامٌ وفُرْقَـةٌ مالها التئامُ
فـلو تدانى إليّ يومـا لردّه عـنّيَ الحِـمَامُ

وقبل أن نختتم هذا الحديث لا يفوتنا أن ننوّه بالسخرية فى شعر الديب ، فقد كانت السخرية إحدى طباعه الأصيلة . ولقد طلع الديب على الناس بصور كاريكاتورية رائعةفى سخريته الشعرية ؛ إلا أن حقده على المجتمع الظالم الذى عاش فيه كان يجعل هذه الصور تقطر مرارة وأسى . . استمع إليه يصف حجرته وقد أسماها « جُحر الذئب » :

أفى غرفتى يا ربّ أم أنا فى لحدى ألا شدّ ما ألْقَى من الزمن الوغدِ
فأهدأ أنفاسى تـكاد تهدُّها وأيسر لمسٍ فى بنايتها يُرْدِى
ترانى بهـا كل الأثاث ، فمطنى فراش لنومى أو وقاء من البرد
وأما وسادانى بهـا فجرائـد تجدّد إذ تبلى على حجر صَلْدِ
تساكننى فيها الأفاعى جريئةً وفى جوّها الأمراض تفتك أو تعدى

وهى صورة لمعظم مساكن الفقراء التى نادى الكثيرون بإصلاحها ، وقد كان من خصائص المجتمع الذى عاش فيه الديب النفاق ، و بغيره يضيع المرء و يسقط من ركب الحياة ؛ وقد قال الديب فى ذلك :

أنافق فيها مُكرهاً لخصاصتى وأبذل نفسى أن أنال حياها

وكذلك اشتهر هذا المجتمع بخطب العرش الخيالية والمشاريع الوهمية التى لا يقصد من ورائها إلا الدعاية للأفراد . ومن أمثلة هذه المشاريع مشروع سموه (مشروع الحفاء) لمنح كل مصرى حذاء ينتعله ؛ وطبيعى لم يلمس الديب أى أثر جدّى لهذا المشروع ، بل كان يرى أن الجوع أولى بالعلاج .

ولقد استشرى الفساد وسادت شريعة الغاب ، وأصبح اللص شريفاً عظيما ،

وما زال الشعب يرجو خيراً ويأمل بمشروعات وزارة التموين نفعاً فنرى الديب يصيح بهذا الشعب الطيب :

كلوا الحكومة أو موتوا من الجوع   صوت الضعيف المرجّى غير مسموع

ويرى الديب أحزاب الأقلية التى تسمى نفسها أحياناً بأحزاب المعارضة تعقد الاجتماعات المتوالية والولائم للاجتماع والتآمر للظفر بكراسى الحكم ، ويعزُّ على الديب ألا يجد ما يأكله ، وهؤلاء المعارضون مغرقون فى المآدب ، فيقول فى سخرية عجيبة :

أقضّى ليالىَّ الطوال على الطَّوى   فيا ليتنى يا قوم كنت معارضا

وقال يسخر من حزب آخر

برامكةٌ وليس لهم رشيدُ   وأقيال وكُلهمو عبيدُ

مدحتهمو فما شرفوا بشعرى   لخسّتهم وما شَرُفَ القصيدُ

وقد تجد الفكاهة الرائقة فى سخرية الديب كما قال فى أحد البخلاء :

الجود عندكمو أضغاثُ أحلامِ   وأكلة اللحم من عامٍ إلى عامِ

ولقد أشرقت سخرية الديب وانتفت منها المرارة والحقد بعد أن اطمئنَّ إلى عيشه ووجد رزقه ، لكنه ما كان يتصور أن الأمر بلغ من الفوضى إلى حد خلق الوظائف والدرجات قبل أن يجدوا لها العمل ؛ حتى ولا المكان ؛ فلا يملك نفسه أن يقول :

بالأمس كنت مشرّداً أهليّاً   واليوم صرتُ مشرّداً رسميّا

الآنسة مىّ

مىّ . . . اسم كان ملء الأسماع والأفواه ثم اختفى فجأة فى غمرة الحياة ، كما أقفر ناديها فجأة ، ذلك النادى الذى جمع بين الأدباء والعلماء ورجال السياسة ، و بين مختلف الثقافات ؛ وكان له أثر بعيد فى توجيه التيارات الأدبية فى الشرق العربى. ولقد أجاد مطران وصفه ووصف فجيعته فيه حين قال :

أقفر البيت أين ناديك يا مـــىّ إليــه الوفـود يختلفونا
صفوة المشرقين نُبْلاً وفضلاً فى ذراك الرحيب يعتمرونا
فتُساق البحوثُ فيه ضُروباً ويُدار الحديثُ فيه شُجونا
وتصيب القلوبُ وهو غِراثٌ من ثمار العقول ما يشتهينا

والواقع أن منتدى مىّ هو آخر منتدى عرفته القاهرة ، فتح أبوابه لأصحاب مختلف الثقافات وللأدباء خاصة . فكم قدّم لعالم الأدب العربى من أديب جديد أصبح بعد قليل نجماً لامعاً فى عالم الأدب ؛ وكم من مساجلات ومناقشات دارت فى رحابه فكانت كلها خيراً و بركة ؛ وكم من صداقات نافعة نشأت أول ما نشأت بين جنباته ، وكان الفضل فيها لكياسة صاحبته وحذقها فى استقبال ضيوفها و إدارة الحديث بمهارة بالغة دون أن يحس أحد من الحاضرين أنها متزعمة أو متصدرة فى الحفل . وكانت تسود الجمع روح ديموقراطية مستمدة من روح صاحبة المكان .

لكل هذا كان الجميع يعشقون هذا المنتدى ولا يتخلفون عن الحضور إليه فى يوم الثلاثاء من كل أسبوع ؛ حتى قال الشاعر الكبير إسماعيل باشا صبرى :

روحى على دُور بعض الحىّ هائمةٌ كظامىء الطير توّاقاً إلى الماء
إنْ لم أمتّع بمىّ ناظرىّ غداً أنكرتُ صبحك يا يومَ الثلاثاء

وكان فقد هذا المنتدى وصاحبته فجيعة أحسّ بها كل روّاده وعارفو فضله .
وقد عبر الدكتور طه حسين عن شعوره فى حفل تأبينها بعد أربعين يوماً من وفاتها فى ١٩ أكتوبر سنة ١٩٤١ متمثلا بهذه الأبيات للشاعر الأموى ذى الرمة :

خليلىّ عدّا حاجتى من هواكما ومَنْ ذا يواسى النفس إلا خليلُها ؟
ألمّا بمىّ قبل أن تطرح النوى بنا مطرحاً أو قبل بينٍ يزيلُها
فإلّا يكن إلا تعلّلَ ساعةٍ قليلا فإنى نافعٌ لى قليلُها

وقد أعجبت مى بهذا الاسم العربى لصاحبة ذى الرمة فاختارته لنفسها بعد أن بلغت أشدّها ، وتعرفت على شخصيتها الفذة المستقلة ، وأطّرحت اسمها الأول الذى أطلقه والداها عليها (مارى زيادة) .

ولقد كانت مىّ أو مارى زيادة لبنانية الأصل ، لكنها ولدت قبل مطلع القرن العشرين ببضع سنوات فى الناصرة التى عاش فيها السيد المسيح — من أرض فلسطين وكان أبوها مارونياً ، وأمها أرثوذكسية ؛ فشبّت أول ما شبت فى جو يسوده التسامح الدينى ، وأدخلت فى مدرسة للراهبات فى عين طورة بلبنان فتعلمت هناك قليلا من العربية وكثيراً من الفرنسية ، واشتهرت بين لداتها بحسن الإلقاء وبراعة الإنشاء وإجادة التمثيل فى جمعية التمثيل بالمدرسة .

ولما أتمت دراستها اشتهرت فى لبنان كخطيبة ولا سيما بعد حفلة الكوخ الأخضر سنة ١٩١١ التى أقيمت فى ظهور الشوير بلبنان لتكريم الفتاة اللبنانية ، ولقد انتقل أبوها إلياس زيادة بعد ذلك إلى مصر حيث تولى إصدار جريدة المحروسة ، وانصرفت مىّ عن الكتابة بالفرنسية إلى الكتابة بالعربية ، وأخذت مقالاتها تترى على جريدتى المحروسة والزهور التى كان يصدرها وقتئذ أنطون الجميّل ، ولم تشغل الكتابة ميًّا عن الدرس بل ظلت تتابع المحاضرات فى الجامعة المصرية الجديدة وخارج الجامعة حتى حصلت على ثقافة واسعة منوعة من الدرس والرحلات ، وبلغ عدد اللغات التى تتقنها تسعاً .

ولم يكن تحوّل مى عن الفرنسية إلى العربية إلا تحولاً طبيعياً بعد إذ اتضحت لها نواحى شخصيتها ، وتعرفت على قوميتها ، فأحبت الشرق وعملت مخلصة فى سبيل رفعة شأنه . و إنها لتتدله فى هذا الحب إلى أبعد حد فتناجيه : « أيها الشرق ! يا شرق الطرب والحيا والنخوة والشدة العاصفة ، إنك لتتجمع تحت نظرى كلوحة مصورة ، فأرى فيك الفقر والجهل والاضطراب والاحتدام والانفعال . . . ليس فيك فيض الثروة ومعجزات الحضارة ، و برغم ذلك فأملى بك عظيم كالحياة والحرية ... أى قوة هذه التى تشد وثاقى إليك ؟ لماذا أهوى من لغتك الشدو والشجى والنواح والنبرة السريعة الحادة والهتاف الأبىّ الحار ؟ ألا نظرة إلى هذه السماء المخيمة عليك ببهاء المجد واللجين والأرجوان ، إنها الجو الوحيد الذى أظل الرسل ، وما رضيتْ أن تنزل فى غير هوائه النبوّات . . . ها قد جاء وقت النهوض رغم النوائب والمثبطات . . . فإلى النهوض . . . » .

ولم يكن حبها للشرق بمانعها عن النظر السليم إلى الأشياء ، ولم ينشأ عنه أى نوع من التعصب ، بل كانت تدعو إلى الاقتباس من عناصر المدنية الغربية لأنها لا تؤمن بأن هناك مدنيات متعددة للشرق والغرب والشمال والجنوب ، لكنها تؤمن بوجود مدنية واحدة تعاونت الشعوب على تداول العمل فيها فالمسلمون أتوا بالنبوات ؛ والآريون هنود وفرس — أرسوا قواعد الفلسفات الباطنية والإلهيات ؛ واليونان الفن والفلسفة النظرية ؛ والرومان التشريع ، ثم جاء العرب فجمعوا هذه الثقافات المختلفة ، وورثوا هذه المدنيات ، وحافظوا على تراث الإنسانية ، وزادوا عليه حتى أسلموه لمن بعدهم . ولم يكن يعقل أن نَصِف مىّ بالتعصب وهى التى عاشت فى بلدان مختلفة ، وهفت نفسها إلى بلدان أخر ، واحترمت الأديان جميعاً ، بل إن تسامح مىّ وعاطفتها الإنسانية وروحها الكبيرة قد اتسعت حتى شملت العالم أجمع ، فأصبح لها وطناً ، والناس جميعاً إخوانا .

ولقد كان لمىّ رسالة فى الحياة كرّست لها جهدها ووقتها؛ تلك هى نهضة المرأة الشرقيه، وقد لخصت غايتها من جهادها فى قولها «إن مجموعة أعمال المرأة غاية جليلة يقوم بها النساء عاليات الجباه تحت أكاليل العز والجهاد، وقد اختفت من عيونهن خيالات الخضوع والمسكنة، وحلّت محلها نظرة من لم تعد عبدة المجتمع، ولا عبدة الحاجة، ولا عبدة الرجل، ولا عبدة قلبها؛ وهو أعظم جائر مستبد». إن هذا الكلام لمىّ ليصور لك مدى القوة التى كانت تتمتع بها والعنف الذى كانت تعالج به موضوعاتها، لكن هذا لم يخرج بمىّ عن طبيعة المرأة لاسيما إذا مس الموضوع الناحية العاطفية فإن كفايتها عندئذ تسيل رقة وعذوبة حتى ليبدو أسلوبها النثرى نغمات من الموسيقى أقرب إلى الشعر، أو هو فى واقع الأمر شعر لم يتقيد بالأوزان والقوافى. فاستمع إليها تتحدث عن نهر الصفا فى لبنان وقد أخذت من على شاطئه بعض الحصى الملونة تناجيها: «أيتها الجواهر سأحملك معى إلى وادى النيل لتذكّرينى بالعواطف الكثيرة التى تلاطمت فى فؤادى أيام نهر الصفا.. أنت ذكر الأبدية التى حييت فيها لحظة». بل هى أحيانا تجد نوعاً من السعادة فى إعلان ضعف أنوثتها واستسلامها لهذا الضعف الذى هو من طبيعة كل امرأة، فنراها تقول فى أحد كتبها: «سأدعوك أبى وأمى متهيبة فيك سطوة الكبير وتأثير الآمر، وسأدعوك قومى وعشيرتى أنا التى أعلم أن هؤلاء ليسوا دواماً بالمحبين... وسأدعوك أخى وصديقى أنا التى لا أخ لى ولا صديق... وسأطلعك على ضعفى واحتياجى إلى المعونة أنا التى تتخيل فىّ قوة الأبطال ومناعة الصناديد... وسأبين لك افتقارى إلى العطف والحنان، ثم أبكى أمامك وأنت لا تدرى...».

بل إن الأنوثة الكامنة فى جوانحها لتصرخ فى قوة عندما تحب وتطالب بالفناء فى صحبة الحبيب فتقول له: «سأستعيد ذكرك متكلما فى خلوتى لأسمع منك حكاية غمومك وأطماعك وآمالك... حكاية البشر المتجمعة فى فرد واحد وسأستمع إلى جميع الأصوات علّى أعثر فيها على لهجة صوتك، أشرح جميع الأفكار وأمتدح

الصاقب من الآراء ليتعاظم تقديرى لآرائك وأفكارك . . . وسأبتسم فى المرآة ابتسامتك . . » .

« فى حضورك سأتحول عنك إلى نفسى لأفكر منك ، وفى غيابك سأتحول عن الآخرين إليك لأفكر فيك » .

« سأتخيل ألف ألف مرة كيف أنت تطرب وكيف تشتاق ، وكيف تحزن ، وكيف تتغلب على عادى الانفعال برزانة وشهامة لتستسلم ببسالة وحرارة إلى الانفعال النبيل . . » .

« وفى أعماق نفسى يتصاعد الشكر لك بخوراً لأنك أوحيت إلىّ ما عجز دونه الآخرون . . » .

إن القارىء لآثار مىّ يلمس وجود روح حزينة تكاد تسيطر على جميع كتاباتها ؛ فهى فى ربيع شبابها الباكر وفى سن الأمل الباسم قد أصدرت ديوان شعر باللغة الفرنسية رغم أنها لم تنظم الشعر فى العربية — أسمته (زهرات حلم) Fleurs de Réve وأهدته إلى روح لامرتين شاعر القلوب الحزينة الذى رفت روحه على كل صفحة من صفحات الديوان .

وقد يكون مرجع هذا الطابع الحزين إلى عكوف مىّ على دراسة التوراة تعيد فيها وتبدى ، وقد أضافت إليها بعد ذلك نوعاً من التشاؤم وسوء الظن بالناس بعد أن درست فلسفة أبى العلاء وأعجبت بآرائه .

وقد زادت هذا الحزن والهم أحداث الأيام وما أصابتها به من نوازل . . ومن يدرى لعل إخفاقها فى تحقيق حلم المرأة فى حياة سعيدة ناعمة زادها حزناً وأبعدها عن الناس حتى آثرت العزلة فى أعوامها الأخيرة واعتزال العالم .

ابراهيم ناجى

إبراهيم ناجى الشاعر ، والدكتور ناجى الطبيب الذى جعل من صناعة الطب شعراً وفنا إنسانيًا نبيلا ... أو الفيلسوف الصوفى ناجى الذى كان لا يرى الحياة إلا طريق خير وعطف وصلة محبة ومودة ؛ فعاش حياته للناس ؛ وكل ماوصلت إليه يده كان للناس مشاعاً ، وترك لغيره الشقاء فى سبيل المادة ، وقنع لنفسه بالشقاء فى سبيل الناس .

ولد ذلك الرجل الفذ عام ١٨٩٨ فى أسرة متوسطة الحال ، ودرس فى المدارس المصرية ، ثم سافر إلى لندن حيث عكف على دراسة الطب والأدب عدة سنوات ، ثم عاد إلى مصر ليعمل طبيباً فى مصلحة سكة الحديد ، ثم فى مستشفيات وزارة الأوقاف إلى أن وصل إلى وظيفة مراقب القسم الطبى بتلك الوزارة ؛ وقد استقال من هذه الوظيفة قبل وفاته ببضعة أيام تحت تأثير ظروف خاصة ومضايقات فى العمل مما تأباه عليه نفسه .

وفى صباح اليوم الرابع والعشرين من مارس سنة ١٩٥٣ كان يزاول عمله الإنسانى فى عيادته يفحص مريضاً ثم ينصرف إلى ورقة يدوّن فيها بعض ما يهجس فى نفسه من أحاسيس وما يجول فى خاطره من شعر ؛ ثم يطرق بابه مريض آخر فيقوم بفحصه ، لكنه يعود إلى مكتبه و يمسك القلم ليكتب له الدواء ، لكنه يسقط على مكتبه فاقد الحياة فلا يسعفه طب ولا أطباء .

وكان والد ناجى رجلا مثقفاً وكانت له مكتبة كبيرة فى بيته يغرى أولاده على الاطلاع على ما فيها ، وكان فيها من ألوان الأدب الإنجليزى الشىء الكثير ، وكان الرجل يريد لابنه ثقافة واسعة . ولأترك ناجى يحدثنا عما أراده أبوه ، وما أرادته مطالعاته ، وما أراده القدر ... يقول ناجى : « أراد أبى شيئاً ، وأراد ديكنز شيئاً ؛

وأراد كوبرفيلد شيئاً ، وأراد القدر أشياء غير هذه ! ما أظلم القدر ! فقد شاء أن أكون طبيباً وليس بالطب من حرج ، وإنما الحرج أن يكون الشعر مركباً فى طبيعة إنسان ، فإذا بالقدر يضعه فوق أسنّة المادة، ويزجه فى الدائرة التى لا شعر فيها ولا خيال ! وإنما الحرج أن تكون طبيعته أن ينصت إلى أنات الروح فيأخذه القدر إلى حيث ينصت إلى أنات الجسد ؛ وشتّان بين هذه وتلك ! وإنما الحرج أن تجذبه طبيعته لناحية ، ومهنته لأخرى ؛ حتى يتمزق بين شد هذه وجذب تلك » .

أرأيتم كيف أن ناجى أشفق على نفسه من مهنة الطب ، بل لقد خشى أن يأتى يوماً ينسى فيه الشعر والأدب والفن وتجرفه مهنته المادية فلا يذكر شيئاً عن عالم الروح ؛ لكن متى انتصر الإنسان على أقداره ؟ :

وهل يأبق الإنسان من مُلك ربِّه ... فيخرج من أرضٍ له وسماء

كما قال أبو العلاء ؟

لقد تغلبت طبيعة الشاعر على مهنته فأحالتها رسالة للشعر فكان ناجى يمارس مهنة الطب فى كل مكان ... فى وظيفته ، وفى عيادته ، وفى الطريق ، وفى المقهى ، وفى مكان اللهو ... وكان يعود مرضاه الفقراء فى بيوتهم فى كل مكان من القاهرة ولا يأخذ منهم أجراً ، بل كان فى كثير من الأحيان يشترى لهم الدواء من ماله الخاص . وهكذا فهم ناجى الطب ، أفهمته طبيعته أنه رسالة إنسانية ، عليه أداؤها كما يؤدى رسالة الشعر .

ولقد تأثر ناجى فى حياته بتوجيه والده أول ما تأثر ، وكان لذلك الوالد أعمق الأثر فى توجيه مواهبه الأدبية والشعرية لكثرة ما قرأ له من الأدب العربى والإنجليزى حتى شغف ناجى بالمطالعة ، وأكثر منها ؛ لا سيما فى الشعر حتى أنه كان يحفظ الجزء الأول من (ديوان الخليل) عن ظهر قلب . وكان لهذه المطالعات أثرها السريع فى نفسه فبدأ ينظم الشعر فى سن مبكرة ، ثم انضم إلى جماعة (أبولو) التى

أسسها الشاعر أبو شادى ، وعلا نجمه فى سماء الشعر ، وظهر تفوقه ونبوغه . ولا شك أن رحلته إلى انجلترا أتاحت له فرصة أكبر ليغترف من بحار الأدب الإنجليزى ، وقد ظهرت آثار ذلك فى كل أعماله الأدبية سواء فى النثر أو الشعر وفى ميله إلى الغوص إلى أعماق النفس البشرية ليكشف عن العوامل الخفية التى تدفع الإنسان فى الحياة .

لكن ظل ناجى حياته يحس فى أعماقه بشخصيتين متناقضتين ... الطبيب والشاعر ... العالم والفنان ... وظلت هاتان الشخصيتان تتجاذبانه حتى مزقتا نفسه .

وتراه دائماً حائراً بين طبيعته حيرة أورثته ألماً ممضًا لا يجد له منه مهرباً فيصرخ مستغيثاً :

ليت شعرى أين منه مهربى أين يمضى هارب من دمه ؟

ولا شك عندى فى أن ناجى ما اتجه إلى دراسة الفلسفة وما تعمق فى دراسة فرع علم النفس منها إلا بحثاً وراء طريق يريحه من هذه الحيرة التى اكتنفت حياته فلم تدع له إلى راحة النفس من سبيل . كشف له علم الطب والفلسفة عن حقائق كثيرة من حقائق الحياة وعاونتهما فى ذلك بصيرة الفنان الناقدة ... لكن الحياة عند ما كشفت عن بعضها لناجى جعلته يرتاع منها ويسىء الظن بنواياها حتى تمنى الجهل فقال :

كل شىء صار مرًّا فى فمى بعد أن أصبحتُ بالدهر عليما
آه من يأخذ عمرى كله ويعيد الطفل والجهل القديما

وطغت الفلسفة على حياة ناجى ، وصبغت كل شىء حتى صوره الشعرية ، فاستمع إليه فى قصيدته « الظمأ الكبير » التى يحاول فيها أن يعلل هذا الظمأ الذى يحسه ولا يجد له ريًّا لأنه لا رغبة له فى قدح الساقى بل فى روح الساقى .

قسماً بسرك فى ضميرى وجوى كشبوبِ السعيرِ
يا من أردت الرىّ لى ما فى كؤوسك من مجيرِ

من خمر أولها ظمئت فما انتفاعى بالأخير
إنى عييت بصبوتى وشقيت بالظمأ الكبير
من ذا يعين على الهجير فكى القيودَ عن الأسير
لا نبع فى القفر السحيق ولا نجاة على الغدير
شفتاك وعد غدٍ وإن غداً مديد كالدهور
خلّى سرابك فيهما مافى سرابك من نصير
وحبى على لمحاته بين القلائد والنحور
متألق الأمواج يغرى بالمراقْ والثغور

***

خطر الهوى وخلوده فى ذلك الحسن الخطير
فمن الصخور إلى العباب ومن عبابك للصخور

***

يا مالكاً حالى ، ويا قدرى الخفىّ ، ويا مصيرى
لا بالسلاف ولا للكؤوس ولا الندامى يا أميرى
إنى إلى الساقى ظمئت وليس للماء النمير

ونراه أخيراً ينزع إلى نوع من التصوف ، ويحاول ألواناً من التجرد الروحى ، فيتنكر للماديات فى حياته ، ويعيش عيشة هى أقرب إلى حياة الزهاد . وتشيع هذه الصبغة الصوفية فى شعره كله ؛ حتى إذا أنشد فى الغزل فهو أقرب إلى المتصوفة منه إلى روح العصر الذى يعيش فيه . . . اسمعه يتحدث (إلى س . . . .) :

همستْ فى خاطرى فاستيقظت روحىَ الحيرى وأصغت لنداها
وأنا إن لم أكن توأمها فكأنى كنت فى الغيب أخاها
نحن أرواحٌ حيارى ثملت وانتشت سكرى على لحن أساها

قرِّبي روحك منّي قرِّبي ظلّليني واغمريني برضاها
وتعالى حدِّثيني ! حدِّثي ! أنت مرآة شجوني وصداها
فهبيني ساعة الصفو التي تقسم الأيام ما فيها سواها
ثم أمضى لحياة مُرّةٍ صُبحها عندى سواء ومساها

حتى فى ساعة اللهو تراه ينظر إلى الراقصة فلا يقنع بما يراه من لهوها ، بل يغوص فى نفسها ، ويبحث بين حنايا قلبها فلا يجد إلا آلاماً من آلام الحياة ، فيتحدث عن هذا القلب فى قصيدة طويلة جاء فيها عن هذا القلب :

صبّته فى كأس وما سكبتْ فيه سوى أنّات مذبوحِ

ولقد أصبح ناجى فى يوم ملء الأسماع فى مصر والشرق ، وسمعت عنه الكثير الذى شاقنى إلى رؤيته حتى ساقته المقادير — منذ ستة أعوام — إلى أسيوط فى زيارة عابرة ، فالتقيت به ؛ فإذا أنا أمام رجل يفيض رقة وحياء وتواضعاً ؛ حتى أنى لما هممت أن أحدثه عن نفسه وأثنى على بعض إنتاجه ، قال لى مبتسما :

« يا أخى يقول الناس عنى أنى بين الأطباء شاعر ، و بين الشعراء طبيب» ... فما رأيت تواضعاً بلغ هذا الحد .

أما شاعريته فقد كانت قوية رائعة صافية كنفسه تفيض حيوية وإنسانية كقلبه ، فوسعت بيئته ، وأجادت التعبير عن كل ما وقعت عليه عيناه فى هذا الوجود ، وهو كثير .

وكان يصدر فى شعره عن إحساس قوى عميق بالحياة ، و إنك لتحس أنه يقتطع الصور من نفسه ، ويلونها بمداد من دمه حتى الطبيعة حين يصورها تأتى صورها مختلطة بحالاته النفسية وآماله وآلامه . فاستمع إليه يتحدث إلى البحر فى قصيدته « خواطر الغروب » :

قلت للبحر إذ وقفت مساء كم أطلت الوقوف والإصغاء !

وجعلتُ النسيم زاداً لروحى وشربتُ الظلال والأضواء
إنما يفهم الشبيهُ شبيهاً أيها البحر نحن لسنا سواء
أنت باقٍ ونحن حرب الليالى مزّقتنا وصيّرتنا هباء
أنت عاتٍ ونحن كالزّبد الذا هب يعلو حيناً ويمضى جُفاء

أما إذا أنشد ناجى فى الغزل فهو إمام عصره فى هذا الفن بلا نزاع... ولِمَ لا وهو الذى تفتحت عيناه على الحب، وظل حياته يلتمسه فى كل مكان، و يعرض قلبه للهبه المحرق، و يحوم حول نيرانه اللافحة، و يتلظى فى سعيره المشبوب.

فاستمع إلى أنات الحب الصادق ولهفة المحب وظمئه وخوفه و إشفاقه من أن يؤذى الحبيب بنيران حبه :

ياحناناً كَيَدِ الآسى الرؤوم وشعاعاً يُشتهى بعد الغيوم
أنا فى بُعدك مفقود المدى ضائعٌ أعشو إلى نورٍ كريم
أشترى الأحلام فى سوق المُنى وأبيع العمر فى سوق الهموم
لا تقل لى فى غدٍ موعدنا فالغدُ الموعودُ ناءٍ كالنجوم
ياجنان الخُلد قدّمت اعتذارى إذ يطوف الخلد سقمى ودمارى
أيها الآمر فى مُلك الهوى اعفُ عن لهفة روحى وأوارى
أشتهى ضمّك حتى أشتفى فكأنى ظامئٌ آخذ ثارى
غير أنى كلما امتدت يدى لعناق خفت أن تؤذيك نارى

وفى قصيدته (رجوع الغريب) تصوير رائع لتلك العواطف المتأججة فى صدره وقد أهاجها اللقاء بعد طول فراق كابد فيه ناجى من أهوال الحب :

عادت لطائرها الذى غنّاها وشدا فهاج حنينها وشجاها
أى الحظوظ أعادها لوفيّها ونجىّ وحدتها وإلف صباها ؟

مشبوبة التحنان تكتم نارها   عبثاً وتخشى أن يبين لظاها !
يا إلفي المنشود سرك ذائع   نار الحنين دفينها أفشاها !
فيم السؤال ؟ أما يدلك جارف   من صبوتى جاز المدى وتناهى ؟
ودموع أشعار أثرت نواحها   وجمالك الوحى الذى أملاها !

أما الصبر الذى كان يحمل نفسه عليه حملا وهو المحب المدله المدنف فقد صوره أبدع تصوير وأعجبه فى قصيدته « الانتظار » التى نجتزئ منها بهذه الأبيات :

لعينيك احتملنا ما احتملنا   وبالحرمان والذل ارتضينا
وهان إذا عطفت ولو خيالا   وأين خيالك المعبود أينا ؟
تعال فلم يعد فى الحى سار   وهومت المنازل بعد وهن !
وران على نوافذها ظلام   وقد كانت تطل كألف عين
ومنتظر بأبصارى وسمعى   كما انتظرتك أيامى جميعا
وهل كان الهوى إلا انتظاراً   شتائى فيه ينتظر الربيعا

ومن قصيدة له لم تنشر بعد أنقل إليكم بعض أبيات ، وكأنى به يخاطب بها حبّاً جديداً . والقصيدة بعنوان « باقة ورد » :

أنت يا من جعلت روض حياتى   مهد ورد إليك وردك ردّا
آيــة الورد أنه نفحــة منـ   ـك ومن عطرك الشذى استمدّا
هذه باقة من الورد تجثو   ملكٌ فى الرياض أصبح عبدا
يا جمال الجمال من خلق الحسـ   ـن جميعاً فى نظرة منك تفدى
يا صباح الصباح من يملك للأضـ   ـواء وصــفاً وللفرائــد عـدّا
ليس بدعاً يا وردة العمر أنّ(م)   لمغناك وردة الروض تهدى
لا تظنى ورداً يكافئ ورداً   أنت أغلى حسناً وأكرم وردا

غير أني وإن عجزت عن التقديـ ـر حاولت ما تمكنت جهدا
رامزاً للوفاء بالورد وللقا ب إلى أعمق السرائر ودّا
وإلى العيد أنت عيد لأيـ امى جميعا أنت الحبيب المفدّى

ومن العجيب أن أرى ناقدا أديباً ينعى على ناجى أنه عاش وحيداً فى أحلامه ، وضاق شعره عن أن يسع حياة مواطنيه فيما حوله ، بينما لو أنصف الناقد الكريم لرثى لناجى وأشفق عليه من الوحدة التى كان يحسها فى هذا العالم حيث كان يفتقد دائماً صدى مشاعره فى بيئته ، وهو الذى عاش من أجل الناس يبحث لهم عن السعادة ، ويقدم لهم كل ما ملكت يمينه ، ويبذل من نفسه لمواطنيه صباح مساء ، وإذا ما عاد مكدوداً بعد يوم عمله لا يجد أحداً يشركه آراءه أو يشكر له مجهوده ، وكأنه شاذ فى مجتمعه ، أو غريب عن عصره وبيئته ، فتنفطر نفسه أسى . وما أروع قوله يصوّر حاله :

يا قاسىَ البعد كيف تبتعدُ إنى غريبُ الديار منفردُ
إن خاننى اليوم فيك قلت غداً وأين منى ومن لقاك غـدُ ؟
إن غداً هوّةٌ لناظرها تـكاد فيها الظنون ترتعدُ
أطـلُّ فى عمقها أسائلها أفيك أخفى خـياله الأبدُ ؟
يا لامس الجرح ما الذى صنعت بـه شـفاهٌ رحيمة ويدُ
مـلء ضـلوعى لظًى ، وأعجبه أنى بهـذا اللهيبَ أبـتردُ
يا تاركى حيث كان مجلسنا وحيث غنّاك قلبىَ الغرِدُ
أرنو إلى النـاس فى جموعهم أشقتهم الحادثات أم سعدوا ؟
تفرقوا أم هم بهـا احتشدوا وغوّروا هابطين أم صـعدوا
إنى غريبٌ تعالَ يا سَـكَنى فليس لى فى زحامهم أحـدُ

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كان يحس الشاعر بقيود كثيرة تحدُّ من حريته ، فيحاول التخلص منها لأنها تقتل منه الروح :

أَعْطِنِى حرِّيتى ، أطلقْ يدىّ   إننى أعطيتُ ما استبقيت شىّ
آه من قيدك أدمى معصمى   كيف أبقيه وما أبقى علىّ

ويشيع التشاؤم بعد ذلك فى شعر ناجى حتى يئس من الحياة ولم يعد يرى لوجوده معنى بعد أن توالت عليه النكبات والمنغصات ، فترك على مكتبه هذه القصيدة التى لم تتم :

أملٌ ضائع ولبٌّ مشرَّدْ   بين حب طغَى وجرح تمرَّدْ
وضلال مشت إليه الليالى   هاتكات قناعه فتجرَّدْ
وبدا شاحباً كيوم قتيل   لم يكد يلثم الصباح المورّدْ
غفر الله وهمها من ليالٍ   صوّرت لى الربيع والروض أجردْ
قاسمتنى الورقاء أحزانَ قلبى   وشجاه ، وغرَّدت حين غرّد
ثم ولت والقلب كالوتر الدا   مى يتيم الدموع واللحن مفرد
ما بقائى ؟ أرى اطّراد فنائى   وانتهائى فى صورة تتجدّد

وتشتد القيود ، ويرى ناجى من صحبه الغدر والخيانة ، فيسوء ظنه بالناس ، ويفكر فى الموت كالمخلّص الوحيد من عناء الحياة وغدر الناس :

عند ما تخلو ديارٌ من رفيقٍ   وتحس السمّ فى كأس وساق
عند ما يكشف حظٌّ وجهه   سافر اللعنة مفقود الخلاق
عند ما تمسى بظل عالقاً   ويحيط الوهم مشدود الوثاق
يا فؤاد انظر وفكِّر وأفِقْ   أىّ قيد لك بالأوطان باقِ

ولقد كان ناجى من كتّاب القصة المبدعين ، وقد وجد فى القصة القصيرة

وسيلة للتعبير بها عن آمال قومه ، فكانت قصصه صوراً حية للبيئة المحيطة به وما يختلج فى قلوب أفرادها من آمال وآلام . وقد نحا فى أواخر أيامه منحى التحليل النفسى فاهتم فى قصصه بعرض نفسيات أبطاله للقراء ، و إبراز العوامل النفسية الخفية فى قلوبهم . و إنى لأذكر له قصة « زازا » التى نشرها فى إحدى المجلات فيما يقرب من عشرين عدداً .

كما أن ناجى اهتم بالصحافة كثيراً ، وكان قبل وفاته يكتب فى عدد ضخم من الصحف ، ينشر فيها مقالاته النثرية التى اتسمت بطابع الفلسفة والنظرة المجردة للحياة ، فتراه يوماً يتحدث عن « رسالة الحياة » فينتهى من الحديث إلى قوله « و يمكننا من هذا أن نستشف رسالة أبناء الحياة ، فالحياة تسعى إلى البقاء وتهدف الكمال ؛ فرسالة أبنائها أن يتعاونوا على البقاء والكمال » لكن روح التشاؤم التى سادت حياته تطغى على نثره كما طغت على شعره فأقرأه يوما يقول : « سنظل ندور كالنحلة إلى أن نموت ، ونحترق كالشمعة إلى أن نذوب» .

وأني الذي يبكي على جرح غيره   ومالي على جرحي الدفين نحيب

أجل ما أصدقك يا أبا شادي في قولك هذا ! وما أقل ما لقيت من وفاء في حياتك ! وما أكثر ما وجدت من جحود ! وأنت أنت :

الشاعرُ الغَزِلُ الذي سَحَرَ الهوى   وسَبَا الجمال ورقّص الأنغاما

وعشت حياتك في جهاد متواصل من أجل رسالتك السامية في الحياة ؛ حتى صرت نجماً من نجوم الشعر في سماء العروبة ، وصوتاً عربيًّا يتردد صداه في المشرقين ، وفخراً لكل عربي في العالَمين : الجديد والقديم

لكن هذا النجم هوى فجأة ، وذلك الصوت خفت على حين غرّة في مساء الثاني عشر من أبريل عام ١٩٥٥ في مدينة واشنطن بأمريكا مغترباً عن بلاده ؛ بعيداً عن وطنه الذي فارقه مكرهاً عام ١٩٤٨ ... يوم أن أبى الضيم ، ورفض أن يبقى في جامعة الإسكندرية لما لمسه من فوضى آنئذ واستهتار بحقوق المواطنين .

ولا أعتقد أن سبعة أعوام في أمريكا عاشها أبو شادي وقلبه مشدود إلى وطنه وروحه هائمة حول مصره تسلكه في عداد شعراء المهجر ، لا سيما وهو لم يهاجر مختاراً ، بل حفظاً لكرامته ؛ كما أنه لم يهاجر في شبابه ، بل في شيخوخته وآخر أيام حياته ، بعد أن نضج تفكيره واكتملت كل مقوّمات شخصيته ؛ مما لم يدع مجالا لتأثره بالبيئة الجديدة التي انتقل إليها ، بل بقي كما هو الشاعر المصري العربي الذي نشأ في الشرق وأشرب روحه .

فالدكتور أحمد زكي أبو شادي ولد في القاهرة عام ١٨٩٢ في بيت علم وأدب ، فكان أبوه محمد أبو شادي محامياً ، لكنه إلى جانب مهنته في المحاماة كان خطيباً

بليغاً ، وشاعراً ، وأديباً . ولا شك أن هذه النشأة الأولى مع أب كالأستاذ « أبو شادى » جديرة بأن تترك أعمق الأثر فى حياة شاعرنا الفقيد. ومما لا ريب فيه أن ذلك الوالد كان له أثره الكبير فى توجيه الشاعر وتشجيعه على سلوك حياته الأدبية .

ولقد كان الوالد يدرك أن الأدب فى الشرق — لا سيما منذ خمسين عاماً — لا يقيم أود صاحبه ، ولا يتيح له من أسباب الرزق ما يكفل له الأمن والطمأنينة فى الحياة ؛ ولذا فقد وجّه ابنه إلى دراسة عملية يحترفها للعيش ، وترك له الحرية بعد ذلك فى أوقات فراغه يوجهها أنّى يشاء .

ولقد تخرّج الدكتور أحمد زكى أبو شادى من كلية طب جامعة لندن عام ١٩١٥ لكنه لم يتمكن من العودة إلى بلاده إلا بعد أن وضعت الحرب الكبرى أوزارها .

عاد إلى مصر فوجدها فى ثورة وطنية رائعة ، وفى صحوة قومية مجيدة ؛ تجاوبت معها مشاعره ، فكان شعلة من حماس ونشاط فى ميادين الصحافة والأدب والشعر والاجتماع .

ولم يقتصر نشاطه على النواحى المعنوية ، بل قدّر أنه لا بد من عمل إيجابى لنهضة مصر ، وأهم ما يدعم هذه النهضة هو زيادة الثروة القومية لرفع مستوى الشعب المعيشى كما يشعر بكرامته الإنسانية . وكان أهم عمل فى هذا المضمار هو تأسيسه لرابطة مملكة النحل التى أدخلت طرق النحالة العصرية فى مصر .

ولن تنسى جامعة الإسكندرية جهود الدكتور أبو شادى فى تأسيس كلية الطب بها ؛ تلك الكلية التى كان النزاع على مناصبها من أهم أسباب هجرته إلى نيويورك لما رأى فيه من تجافٍ عن روح العلم وكرامة العلماء ، وترك عمله كأستاذ بكلية طب اسكندرية ليعمل أستاذاً فى جامعة نيويورك . وإنى ليحضرنى فى هذا المقام أبيات قالها من قصيدة طويلة فى رثاء الأديب الإسبانى الحر بلاسكو إيبانز الذى مات فى المنفى لنزعته الجمهورية . ولو أن أبا شادى كان ينظر بعين الغيب فرأى محنته فى وطنه لما تحدث عن نفسه بأبلغ من هذا الحديث :

ولم ترضَ يوماً أن تكون مطيّة   لشهوة حكام فكنت كيزانِ
وكنت مليكاً دون تاج يهابه   أولو البغى من عاشوا بلذة إثخانِ
شريداً ، عزيزاً مستقل شعوبه   أعمّ من الحصر المخص بأبدانِ

* * *

فيا راحلاً والعالم الحرُّ نادبٌ   صديقك والخصم المعاند صنوانِ
فإنك فنان وللفن حرمة   وإنْ أخطأ التقدير فى حال إدجانِ
ولو كنت فى قدر كقدرك لم يكن   رثائىَ إلا قصةً ذات ألوانِ
أضمّنها إقدامك العمر مثلما   أضمّنها ما لاح من مجدك الثانى
وأروى حنيناً من تراب بموطن   بعيد ومن شمس لديه وريحان

ولقد نفى الدكتور أبو شادى نفسه مختاراً ، ومات فى منفاه ولم يترك شيئاً لزوجه وأبنائه الثلاثة سوى قصة كفاحه النبيل .

وإذا تحدثنا عن أبى شادى الشاعر الفنان وجدنا أنفسنا حيال شخصية فذة متعددة النواحى ؛ إلا أن أبرز ما يميزها ذلك الاعتزاز الشديد بكرامته والمحافظة عليها اعتزازاً يشبهه ما نلمحه فى شعره من اعتداد بنفسه وفنه . وهكذا دائماً كل فنان أصيل تراه يحس نحو فنه إحساس الوالد نحو ولده فهو قطعة منه وهو فخور به . استمع إليه يحدثنا عن الفن فى وصف فنان :

هو الفن سلطانٌ على كل دولة   يبدِّل من ضعف النفوس قُواها
ويكسبها من بعد فقرٍ لها غِنًى   وأىُّ غنًى لولاه بزَّ غِنَاها
تأمّلهُ بين الحب والفن مبدعًا   له جرأةٌ فى خشيةٍ تتلاهَى

كما امتاز أبو شادى بالوفاء العميق الذى لا يتحول ، وإنه ليدرك من نفسه هذه الخاصية الممتازة ، ويقدر أنه بعد فراقه وطنه لن تهدأ له نفس، ولن تقرّ روحه أبداً ؛ فيقول مودعاً مصر :

وضعت فيك حنانى للجمال كما   ركعت فيك لساميه وطاهره
لألبثنّ وفيًّا لا يغيِّره   عادى الخطوب أبيًّا فى ضمائره
لئن أُميتَ كفاحى فى منابعه   فسوف يحيا كفاحى فى مهاجره

فإذا ما بلغه فى مهجره — وقد كان يعزِّى نفسه بهذه الكلمة — نبأ وفاة صديقه الممثل سليمان نجيب أنشد يرثيه ، بل يتفجع هو لغربته :

أخى سليمان هذى غُربتى بلغتْ   بى غُرْبَتَيْنِ وزاد الموت إقصائى
قد كنت أشجى لنأيى عنك فى أسفى   ياليتنى دُمْتُ ذاك الآسف النائى

ولقد كان وفاؤه لأستاذه الشاعر خليل مطران — صاحب مدرسة الرومانسية الحديثة فى الشعر — من أروع أمثلة الوفاء فقد ظل لأستاذه التلميذ المخلص الأمين بدافع عنه ويشد أزره ، وينشر رسالته ، ولقد كتب مطران يرجوه فى زيارة قبل هجرته ، وكان أبو شادى بالإسكندرية ومطران فى القاهرة ، فكتب له قصيدة نقتطف منها قوله :

أودِّع النيلَ فى توديع شاعِرِهِ   وقد أودِّع نفسى فى مشاعِرِهِ
ولا أباعد أوطاناً أُقَدِّسها   إلا وروحى رهينٌ عند شاعره

والنزعة الرومانسية واضحة فى شعر أبى شادى الذى امتاز بتلك الصبغة الحزينة والخيال المحاق ، استمع إليه يتحدث كالحالم فى قصيدته « تشاؤمى » :

ر سكننى وجّهت بحثى وخاطرى   إلى خَلْف ما تُبدى الحياة لوَسْنانِ
فأبصرتُ روحاً للجمال مُجِدَّةً   وأدركت أنَّا للجمال كقربانِ
عزَّى فؤادى أن كون ضحـ ـيّةً   وأن يهب التجميلَ للكون حرمانى
وماخفت موتى كالغر ب الذى قضى   وحيداً فعُمْرى والمنية سيّانِ

والطبـ ـى مهرب « الرومانسى » و إليها يلجأ ، وفى رحابها يجد العزاء والحب :

بينـا الطبيعة ترعانى وتسعدنى ببرِّها المتسامى دون أشباهِ
فيها اندمجتُ ولم أجحد رعايتها على المدى فإليها منتهى الجاهِ
وقُدسها عن غنائى من بدائعها موتى الحياة وقلبى ليس بالساهى

أجل . . . إن الشاعر ليندمج فى الطبيعة ويحس بالألفة التى تربطه بها ، فيضفى عليها من روحه ما يجعلها تمور بالحياة ، وتتحرك ، ويحس منها تجاوباً لمشاعره وعواطفه :

زُرْتُها أشـكو إليها لوعتى من جحودٍ نالَـنى من زمنِى
فاكفهرّتْ فى اُكتئاب سُحْبها ثم صاحت صـيحةَ الممتهنِ
وكأنى مذنبٌ فى عُرفها فهى أمِّى وهى مَنْ تُلهِمُنى
مَوْئلى فى ظلّها أو نورها وهى فى عطف لهـا تنعشنى
كيف أشجى وهى حولى دائماً ملجئى ، بل معبدى ، بل وطنى
ثم لم تلبث على سخطٍ فقد صفحت عن زلّتى أو حَزَنى
والنسيم الحرّ يحكى ما رأى من غرام ومعـانى الفتن
فاُغتدى طبعى حنينى دائماً لمجاليهـا الـتى تفرحـنى
فأناجيهـا بحبٍّ معلنٍ وتنـاجينى بسِرٍّ مُعلنِ
منشداً شـعرى وحسبى سمعها فهو منهـا ولديهـا يفْتَـنِى

إنه يتحدث إلى الطبيعة وهى تفهم عنه وتجيبه لسؤله ... تأمله فى حديثه مع صديقه البحر :

هيمان مثلك يا صديق الشاعرِ أنظرْ تلهُّف ناظرىَّ وخاطرى
أنظلُّ تشجينى بموجك راوياً قصص الحيـاة لساكنٍ ولعـابرِ

وما ضرّ الشاعر لو اعترف بفراره من دنيا الناس إلى عالم الطبيعة الرحب حيث الصفاء والجمال والأم الحانية التى ترعاه :

فررتُ إلى حضن الطبيعةِ ناجياً ... برُوحى إلى مرأى كروحى بسّامِ
كأنى وقد غيِّبْتُ عنها رأيتُنى ... يتيماً ضريراً تائهاً بين أيتامِ
إلى حيث ناغَتْ فى وفاء محبّها ... بأجمل شعر جلّ عن أىّ إبهامِ
إلى حيث أزهار الطبيعة فى ندى ... من الطُّهر قد مَاست بحِلْية أكمامِ
فررتُ إليها أشترى خيرَ نعمتى ... بروحى وروحى الصب أكرمُ مُسْتَامِ
وقد طاب لى بُعدى وراحة عزلتى ... هنالك عن خَلْقٍ وشاهق آطامِ

وعندما آثر خليل مطران الاعتزال والابتعاد عن المجتمعات ، ولم يعد له جلد على الكفاح تقدم الدكتور أبو شادى ليحمل المشعل ويواصل أداء الرسالة فأصدر مجلة « أبولُو » عام ١٩٣٩ وجعل منها لسان حال « جمعية أبولو » وهى جمعية كانت خاصة بالشعراء ، ولأول وآخر مرة فى الشرق العربى تفرد مجلة للشعر والشعراء ودراسة أعمالهم وتناولها بالنقد .

فكانت مجلة « أبولو » مدرسة جامعة جمعت بين أحضانها ناشئة الشعراء وفحولهم ، وتخرّج على صفحاتها جماعة من ألمع الشعراء كعلى محمود طه ومحمود أبو الوفاء . وكان يتزعم هذه المدرسة أبو شادى ، ويحس بخطر رسالتها ، ويعتز بها فهو يقول :

فحسبىَ أنى طابعٌ نهضةً بَدَتْ ... بطابعىَ الفنّان فى المِثْلِ والضِّدِّ
يسير بها شعرى الطليق محرّراً ... وإن كان بعض الناس ينعم بالقَيْدِ

وكان من أهم أهداف هذه المدرسة التجديد فى أساليب الشعر العربى ، والخروج به من نطاق التقليد الضيق للمعانى القديمة والاستعارات البالية ، وتطوير أساليبه لتُجارى روح العصر ، ولتكون صورة صادقة للبيئة الجديدة التى نعيش فيها ؛ بيئة الكهرباء واللاسلكى . .

فنرى أبا شادى فى قصيدته « صائد النغم » وهذا ما سمى به المذياع أو الراديو يصف هذه الآلة الجديدة الساحرة فى تلك الفترة من حياته :

هَنِئًا صديقىَّ العزيزين وأغنيا ... من الصفو ما يهواه مستمعانِ
ففى كل شبرٍ للهواء عواطفٌ ... وفى كل خفقٍ للأثير أغانى
تناجت بها الأربابُ من كل جانبٍ ... ويخطفها العُبّاد وهى دَوَانِ
فتُغنم أعمارٌ من الأنس حولها ... وتولد أحــلامٌ لهم وأمانِ
أديرُها على سمعى كأنى بسمعها ... أذوق سُلاف الخلد بين غَوَانِ
وليست عصا موسى بأروع سحرها ... من السحر فى مفتاحها ببنانى

وهو يذهب إلى أعماق الريف المصرى لا إلى بعير الصحراء فيصف الفلاّحة المصرية وجهادها فى حقلها إلى جانب أخيها الفلاح :

سِيرى خلال القطن بين تبسُّمٍ ... ما القطن إلا من تبسُّمِ فيكِ
وَدَعِى الذى يدعوك ربَّةَ مصرهِ ... يجنى ابتسام الحب دون شريكِ
إنى أبايع بالسيادة مَنْ لها ... فى مجد وادى النيل مَجْدُ مَليكِ
ربّتْ له همم الرجال وأطْلعَتْ ... أملاً كوعدٍ للصباح وَشِيكِ
أنت المؤلَّهة العزيزة بيننا ... وإنِ احتملتِ متاعباً لِذَوِيكِ
سِيرِى متوّجة بتاج محبَّةٍ ... للنفع والإصلاح جَنْبَ أخيكِ

وإن مشاعر أبى شادى الرقيقة لتأذى لما يقع فى هذا الريف المصرى من مظالم ومآسٍ ، وما يراه من فقر مدقع إلى جانب الثراء الفاحش ؛ وإنه ليترجم عن هذه الأحاسيس شعراً فيقول :

ما شان آلاف الفدادين التى ... هى كالمقابر للسواد العانى
ذهبوا بأرجاء البلاد تشرُّداً ... وتكفّنوا بمذلّةٍ وهَوَانِ

وجميعهم مَوْتَى وتلك لُحودهم ملء الضياع الضخمة العمرانِ
تركوا المقابر صاغرين فعيشهم ومماتهم بهوانهم سيّانِ

ولقد سمع أبو شادى وقرأ عن محنة فلسطين العربية وهو فى أمريكا ، فأرسل القصيد تلو القصيد يستنهض همم قومه العرب ، ويسخر من أخطائهم وتخاذلهم ، وينال منهم بلاذع قوله على ما فرطوا ؛ لكن بعد أن انجلت المعركة عن تلك المحنة القاسية غلبه شعوره الإنسانى ، وطفت طبيعته النبيلة ومشاعره المرهفة فأخذ يدافع عن اللاجئين العرب البؤساء بكل لسان وفى كل محفل . ولقد قال فى ذلك شعراً كثيراً مثل قوله :

خُرْسٌ فَمَنْ عن وَيْلِهِمْ يتكلّمُ ومعذّبون لهم تقامُ جَهَنَّمُ
جَنَتِ السياسةُ مثلما جَنَتِ الوَغَى والظالمون الغاشمون عليهمُ
وتشرّدوا لا يملكون وجودَهم لو كان يُمْتَلَكُ الوجودُ المُبْهَمُ
إن المصيبة لا مثيل لرزئها فيما رَوَى التاريخ أو ما يعلم

وإن قلب أبى شادى الكبير لا يقف فى مشاعره عند حدود مصر ولا حدود العالم العربى ، بل هو إنسانى المشاعر ، عالمى النزعة . . . انه يألم لموت بلاسكو إيبانز الأديب الأسبانى الكبير ويعد فقده رزءاً عالميًا فهو يرثيه بقصيدة من أروع قصائده جاء فيها :

بلاسكو ! تموت اليوم فى النَّفْىِ بيننا تعيش بدنيا قد ملكْتَ وأوطانِ
وترثيك آلافُ العقول التى نَمَتْ بنُورك فى ليل من الخوف لهفان
ويسكن هذا الصدر بعد اعتياده طليق الهواء الصفو فى قرب غدران
فيا أسفى للحُرِّ يمضى كَعَبْدِهِ ويا ألم العقبان فى موت غربان

ولقد ظفر أبو شادى أخيراً بالتقدير فى الأوساط العالمية لهذه النزعة الانسانية العالمية التى غلبت على روحه ، فانتخب عضواً فى مجلس إدارة « الرابطة الدولية

لحقوق الإنسان » كما منح الزمالة الفخرية للاتحاد الطبي الأمريكي ، وإن راديو « صوت أمريكا » ما يزال يردد على العالم أصداء صوته .

وإذا كان قد ظفر بالتقدير خارج مصر فإنه طالما اشتكى من جحود قومه وعدم تقديرهم لفنه ولتضحياته ، ولم يكن أبو شادى مفرداً فى هذه الشكوى ، بل تلك كانت حال الأدباء جميعاً الذين عاشوا لفنهم فى الشرق من ربع قرن مضى ، وكان يدرك أبو شادى هذه الحقيقة فهو يقول :

رجاؤك أن تصيب وفاء قومٍ ... برِرتَ بهم رجاءٌ للمُحالِ
فتغنم غايةَ التسفيه ممّن ... بذلتَ له الرشاد وكلّ غالِ
ويغدو كلُّ حسنٍ فيك قُبحاً ... وكل كرامة شبه الضلال
وتلقى الاتهام يساق سَوْقاً ... إليك وحين لم يخطر بالِ
فما تدرى أصارَ الفضل عيًّا ... وبات النقص نوعاً من كمالِ ؟
وساوَى الألمعى بها جهولاً ... وأصبحت المساوئُ كالمعالى !

ويبدو أن الحملة على الشاعر ومدرسته التجديدية كانت قاسية عنيفة بعثت بالمرارة إلى نفسه ، وتسللت إلى شعره ، فأفصحت عن عميق ألمه من ذلك التجنى :

عددتم ثباتى فى يقينىَ ضلّةً ... أصبتم ! فخلّونى إذنْ ثابتاً وحدى
لعمرى ما باليتُ يوماً بجمعكم ... خصيماً كأنى شامخاً لستُ بالفردِ
ولكنّما باليْتُ عُمرى بمبدئى ... ففى مبدئى عِرْضى وأكرم ماعندى
وأوذيتُ حتى قد تمنّتْ بالأذى ... وبالحسَد المُشقى وبالألم المُرْدِى
فإن كان لى فى جُرْأتى وصراحتى ... وفى تضحياتى ما حملتم من النقْدِ
وإن كان سبقى وابتكارىَ ذلّةً ... ولم أرَ كالتجديد أقربَ للجدِّ
فلا خيرَ لى فى مَدْحِكم بسلاسلٍ ... فإن مديح العبد أصلحُ للعبدِ

لكن الوطن مهما جار فهو عزيز على صاحبه ، والأهل مهما ضنُّوا وأخطأوا فهم كرام على نفس الشاعر ، وهو لا يألوهم نصحاً :

وطنى وإخوانى وأهل عقيدتى ... ما العيش بين رِضًى وحظ كفافِ
إن الحياة شهيَّةٌ وعظيمةٌ ... فى حالَىِ الحرمان والألطاف
ما الذلُّ ذلٌّ للجسوم وإنما ... ذلُّ النفوس هو الشقاء الطافى
فتعاضَدُوا وتذرَّعوا بثباتكم ... وإخائكم إن الإخاء يعافى
لكم الحياة مع التأنُّق كلما ... كنتم رجال توحُّد وتلاف
ودعوا خُرافات الخصوم ولَغْوهم ... فكثيرها يحكى ثغاء خِرَافِ
خلُّوا الأمانةَ دَيْدَناً لتعاونٍ ... تجدوا التعاون أصدق الإسعاف
وتأمَّلوا الضوء العزيز بوحدةٍ ... فإذا تفرّق ضاع فى الأطيافِ

وهو يدعو قومه للاتحاد لمواجهة الأعداء والفوز بنعم الحياة وعدم المبالاة بالشائعات التى ينشرها الخصوم حولهم لتثبط هممهم ، وهو لا يتركهم للخيال والأوهام ؛ بل هو يرسم لهم السبيل السوى فيبصّرهم بما يجب عليهم عمله ، وأول شىء هو نصف الأمة المهمل . . . المرأة التى بتعليمها وإنصافها ستكون المدرسة الأولى للشعب . . . إنه يتحدث موجهاً الخطاب إليها :

وإذا تناساك الذين تخاذَلُوا ... جاهدتِ إشفاقاً على ناسيكِ
وعملتِ زارعةً وحاصدةً لهم ... وغذوتِ أفئدة برُوحٍ فيكِ
حتى إذا انقشع الغرورُ تنبَّهُوا ... فإذا العتىُّ النفس يسترضيك
ويعاف إلا أن تكونى حرّةً ... فى عيشة تهنيه إذْ تهنيك
قَسَماً بقدرك لو نُصِفْتِ لأدركتْ ... مصرُ العزيزة كلَّ ما يرضيك

وأنه بعد ذلك يجمل أدواء قومه كلها فى قصيدة مطولة يخاطب بها صديقاً له عائداً من الخارج ، فيسأله عن تلك الدولة الأجنبية أسئلة استنكارية يلمس بها العلل التى تشكو منها مصر :

وهل مجهودها للفرد أمْ هَلْ غَدَتْ خيراتُها للحاكمينا ؟
وهل للنابغين بها حياةٌ تُذَالُ كحالنا والنابغينا ؟
وهل للجهل سطوةُ مستعزٍّ على عقل يدين له مهينا ؟
وهل للعلم شعوذةٌ تناهَتْ فكان جهالةً للعالمينا ؟
وهل للفن سخريةٌ ولهوٌ وأضحى الفكر فيها مُستكينا ؟
وهل للشعر ألقابٌ وزَهْوٌ ودُولات تظل الفاسقينا ؟
وهل للطب ما نلقى : دعاوى تعيد لنا زمانَ الساحرينا ؟
وهل كانت صحائفهم خليطاً من الأدران تؤذى الناشئينا ؟
وهل عادت كنائسهم نهوضاً فكفَّرت الهداةَ الفاتحينا ؟
وحاربتْ الذكاء وإنْ تعالى وهدَّمت البناةَ المحسنينا ؟
وكم من مالك أضحى عُتُوًّا يدوس الفالحين الزارعينا ؟
وكم من خادم لم يُعْطَ حَقًّا من الدنيا فمات بها غَبينا ؟
وهل حرية الوجدان صدقٌ بها أم أنه صدقاً أُهينا ؟
وهل للباحثين بها مجالٌ أم ابتدعت عداء الباحثينا ؟

وقبلَ أن أختتم هذه الكلمة أودُّ أن أعرض عليكم أنموذجاً لِما كان يسميه أبو شادى « بالسونيتة الغنائية » وهو شعر لم يلتزم فيه قافية بعينها ؛ ويخيل إلىَّ أنه اقتدى فيه بما يعرف فى الإنجليزية بـ Blank verse

يا حياةَ الحب كيف الحياهْ ؟
بعد ما ضاعت عهود الحبيبْ ؟

ما جمال الصوت يحكى صداهْ

لا ولا الطب ظنون الطبيب

إنما الذكرى لمثلى عذاب

تشبه النَّوحَ بليل بهيمْ

مثلما حنّ لماضى الشباب

دائم الوجد مُسِنٌّ سقيم

هكذا الطائر لما بكى

ما فاته حسٌّ بآتى الربيع

لكنما قلبى إذا ما اشتكى

يشكو كمسجون بحصن منيع

ما خيال الحب وهو البعيد

إلا تباريح الفؤاد العميد

لقد كان أبو شادى غزير الإنتاج ، ومن غزر إنتاجه كثرت هفواته ؛ ولذا كثيراً ما نلمح فى بعض قصائده الجفاف العلمى ، أو اصطناع المعانى ، وغلبة الصنعة الفنية على التعبير الشعرى . والأمثلة على ذلك كثيرة فى دواوين الشاعر، لكن هذا لن ينقص من قدر أبى شادى كإمام من أئمة شعراء العصر ، ومجاهد سطّر صفحة من أروع صفحات الكفاح فى الحياة ، أرجو أن يجد فيها الشباب أسوة يتأسون بها .

أيها الشاكى الليالى إنما الغبطة فكرهْ
ربما استوطنتْ الكوخَ ، وما فى الكوخ كِسْره
وخَلَت منها القصور العاليات المشمخرّهْ
لك ما دامت لك — الأرض وما فوق المجرّهْ
فإذا ضيّعتها فالكون لا يعدل ذرّه
لا تكن مُرًّا . . ولا تجعل حياة الغير مُرّهْ

هكذا وصف إيليا أبو ماضى السعادة وعرّفها للملايين وعاش حياته للناس كالشمعة المحترقة تضىء لتفنى ؛ سعادته الكبرى فى أن يكتنه أسرار الحياة ويقدم نتاج تجاربه لسعادة الناس .

ولقد ولد أبو ماضى فى قرية المحيدثة بلبنان سنة ١٨٨٩ وكان الشام جميعه ولاية عثمانية تعانى ألوان الفساد السياسى الذى كان ضاربًا أطنابه فى أقطار الخلافة ، ولقد ألجأته ظروف الحياة السياسية والاقتصادية إلى الهجرة ، فنزح إلى مصر ، ونزل بثغر الإسكندرية سنة ١٩٠٠ حيث اشتغل بالتجارة بأن افتتح له محلا يبيع فيه الدخان والسجائر ؛ ومن حانوته الصغير أخذ يرسل الشعر إلى مجلة الزهور التى كان يصدرها مواطنه أنطون الجميّل . والذى تعهد الشاعر الصغير بالتشجيع حتى أصدر ديوانه الأول « تذكار الماضى » عام ١٩١١ ، وفى نفس العام هاجر إلى أمريكا واحترف التجارة فى مدينة سنسناتى ، لكنه لم يكن سعيد الحظ فى تجارته ، فانتقل إلى نيويورك عام ١٩١٦ حيث اشتغل بالصحافة ، وانضم إلى « الرابطة القلمية » وفى عام ١٩١٩ أصدر ديوانه الثانى ، وفى عام ١٩٢٥ أصدر « الجداول » ثم « الخمائل » عام ١٩٤٥ .

ولقد استقل عام ١٩٢٧ فى عمله الصحفى بأن أصدر السمير التى ظل يرعاها بدمه وفكره وقلبه حتى وافاه أجله فى مساء السبت ٢٣/١١/١٩٥٧ فى نيو يورك .

لقد امتاز أبو ماضى بخلة الوفاء الشديد ؛ ذلك الوفاء الذى كاد يعنيه عناء كثيراً ، فهو رغم انقضاء معظم عمره فى المهجر لم ينس بلاده أبداً ، وعاش حياته على أمل أن تكتحل عيناه بمرآه قبل أن يموت ، وقد حقق الله أمله .

ومصر التى أمضى فيها أحد عشر عاماً ظلت ذكراها تتردد فى شعره ونفسه حتى قال :

لكن مصراً ، وما نفسى بناسية	مليكة الشرق ذات النيل والهرم
صرفت شطر الصبا فيها فما خشيت	نفسى العثار ولا نفسى من الوَصَمِ
فى فتية كالنجوم الزهر أوجههم	ما فيهم غير مطبوع على الكرم
الشرق تاجٌ ، ومصر فيه درّته	والشرق جيش ومصر حامل العلم
أحنى على الحرّ من أم على ولد	فالحر فى مصر كالورقاء فى الحرم

وفلسطين جزء من الوطن العربى طالما أشقاه شقاؤها ، وطالما استنهض الهمم لشد أزرها :

فليست فلسطين ملكاً لكم	ولكن فلسطين ملكٌ لنا
وكانت لآبائنا قبلنـــــــا	وتبقى لأحفادنا بعـــــــدنا

من هنا وأعنى منذ فجر صباه عند ما اضطر للهجرة بدأت نفسه تعانى القلق ... فهى تحن إلى الوطن لكن آمالها تدفع بها إلى احتمال فراقه لتحقيقَ طموح الشاعر .

ثم أخذت رحلته فى الحياة تزوده بالمزيد من القلق حتى أصبحت نفسه ميدان صراع دائم بين قوّتى الدفع والجذب يمثل حيرته فى الحياة وظمئه الأبدى إلى الحقيقة ، وكان هذا الصراع ينعكس على شعره فترى القصيدة يصطرع فيها الموت والحياة ،

والحزن والفرح ، والأمل واليأس ؛ لكنها مع ذلك تنتظمها وحدة نفسية قوية عميقة هى سر عبقرية الشاعر :

سألتنى وقد رجعتُ إليها وعلى مفرق غبار السنينا[١]
أى شىء وجدت فى الأرض بعدى؟ قلت : إنى وجدت ماء وطينا
جمع الحسن والدمامة والإقـــدام والخوف والنُّهَى والجنونا
والرجاء الذى يصير به القَد فدُ روضاً وشوكه نسرينا
والقنوط الذى يعرِّى من الأو راق فى نشوة الربيع الغصونا
ووجدت الهوى كما كان قِدماً ثقــة تارة وطوراً ظنونا
وشباباً سكران من شدة الوهم يخال المحـــال أمراً يقينا
فإذا شاخت الرؤى وتلاشت وصحا بات جزمــه تخمينا

وسط هذه الحيرة والاضطراب لم يفقد الأمل أبداً ، بل كان متفائلا دائماً داعياً غيره إلى الابتسام :

قال الليـالى جرَّعتنى علقماً قلت ابتسم ولئن جرعتَ العلقما
فلعل غيرك إن رآك مرنماً طرح الكآبة جانباً وترنما

كما عاش أبو ماضى فى بيئته يصور أحداثها فى شعره وقصصه ، وينصح بالدواء لما يرى من أدواء ، فإذا شكا إليه شيوخ الأمة طغيان الحاكم وترحموا على الملك الراحل قال لهم :

لو فعلتم فعل أجدادكمُ ماقضى الظالم منكم وطَرَهْ
ما لكم تشكون من محنتكم رضتم ألسنكم أن تشكرَهْ
كيف لا يبغى ويطغى آمرٌ يتّقى أشجعكم أن ينظرَهْ

---

(١) من قصيدة « ماء وطين » .

ما استحال المرءُ ليثاً إنما أسُدُ الآجام صارت هِرَرَهْ

وشعر أبى ماضى غنى بما يسمى حس الطبيعة ؛ تلك القوة التى ينفثها فى صور الطبيعة فتستحيل إلى مخلوقات حية يتحدث إليها ، وتتحدث إليه ، يسائلها و يفتش فى جيوبها :

فتشت جيب الفجر عنها والدجى ومددت حتى للكواكب إصبعى
فإذا هما متحيران كلاهما فى عاشق متحير متضعضع
و إذا النجوم لعلمها أو جهلها مترجرجات فى الفضاء الأوسع

وكان أبو ماضى فى أول عهده بالشعر يعنى باللغة عناية فائقة وتفتنه الجزالة اللفظية متأثراً فى ذلك بالمتقدمين من الشعراء ، لكنه أصبح لا سيما بعد انضمامه إلى الرابطة القلمية فى نيو يورك يهتم أكثر بالقصيدة كوحدة واحدة وحياة متدرجة نامية ؛ إلا أن القلق والاضطراب لم يفارقه فى جميع أدوار حياته ، ولعل هذا التناقض الذى نلمسه فى شعره يعبر عن ظمئه إلى الحقيقة الذى كثيراً ما كان يقوده إلى حيرة مفزعة تفقد المرء الثقة فى نظام الكون وفى نفسه . . فى مثل هذه الصور التى نثرها فى قصيدته « الطلاسم » :

جئت لا أعلم من أين ولكنى أتيتُ
ولقد أبصرت قدامى طريقاً فمشيتُ
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقى ؟
لست أدرى

أجديدٌ أم قديمٌ أنا فى هذا الوجودْ
هل أنا حرٌّ طليق أم أسيرٌ فى قيود

هل أنا قائد نفسى فى حياتى أم مقود
أتمنى أننى أدرى ولكن . . .
لست أدرى

وطريقى ما طريقى ؟ أطويلٌ أم قصير
هل أنا أصعد أم أهبط فيه وأغور
أأنا السائر فى الدرب أم الدرب يسير ؟
أم كلانا واقف والدهر يجرى ؟
لست أدرى

حتى الموت لا يرى فيه أبو ماضى استقراراً وهدوءاً ، وكيف يكون كذلك بينما هناك مخلوقات لا تترك الميت فى سلام :

ولقد قلت لنفسى وأنا بين المقابرْ
هل رأيت الأمن والراحة إلا فى الحفائر ؟
فأشارت فإذا للدُّود عيشٌ فى المحاجر
ثم قالت : أيها السائل إنى
لست أدرى

وتقوده هذه الحيرة إلى الكفر بالفكر الذى يشك فى وجوده إطلاقاً !

أتراه بارقاً أومض حيناً وتوارى ؟
أم تراه كان مثل الطير فى سجن فطارا
أم تراه انحلَّ كالموجة فى نفس وغارا
فأنا أبحث عنه وهو فيها ؟
لست أدرى

ويداعب اليأس نفسه بعد أن أطال التساؤل ، فيسأل من جديد عن نفسه التى تتبدل :

لىَ إيمان ولكن لا كإيمانى ونُسكى
إننى أبكى ، ولكن لا كما قد كنت أبكى
وأنا أضحك أحياناً ولكن أى ضحكِ ؟
ليت شعرى ما الذى بدّل أمرى ؟

لست أدرى

ويلجأ أبو ماضى أخيراً إلى الطبيعة يدفن فى أحضانها حيرته ويرى فيها مهرباً له من الأسرار التى تعذب صدره كالأفاعى :

لم يسع سرى فؤادى لم تسع نفسى المغانى
فقصدتُ الغاب وحدى والدجى ملقى الجران
ودفت السرَّ فيه مثلما يدفنُ جانِ
ورأى الليل قتيلى فبكاهُ وبكانى

واست أدرى لِمَ يهرب أبو ماضى إلى الطبيعة وتغلبه الروح الرومانتكية دائماً فى معظم أدوار حياته ، بينما هو يعتبر الهروب إلى الدير عاراً أى عار :

أيها الهارب إن العار فى هذا الفرارِ
لا صلاحٌ فى الذى تصنع حتى للقفارِ
أنت جانٍ أى جانٍ قاتل فى غير ثارِ
أفيرضى الله عن هذا ويغفرْ ؟

لست أدرى

إيه أبا ماضى ... أليس الخير فى الاستسلام للمقادير كما قلت ذلك يوما عندما أنشدت :

أراد الله أن نعشق لما أوجد الحُسْنَا
وألقى الحب فى قلبك إذا ألقاه فى قلبى
مشيئته ... وما كانت مشيئته بلا معنى
فإنْ أحببت ما ذنبك ؟ أو أحببت ما ذنبى ؟

ولقد كان أبو ماضى يخشى الشيخوخة ويتهمها بأنها مجدبة لا توحى بشعر ولا تفيض عليه بالإلهام :

أفلتت منى حلاوات الرؤى عندما أفلت من كفِّى شبابى
بتُّ لا الإلهام بابٌ مشرع لى ولا الأحلام تمشى فى ركابى

ويقول يصف كانه المحطمة :

لا حس فى أوتارها ، لا شوق فى أضلاعها ، لا حسّ فى باقيها
فارزحْ بحزنك ياحزين فإنها لا تنشر الشكوى ولا تطويها
وإذا انقضى عهد التعلل بالمُنى فالنفس يشفيها الذى يرويها

لكن الحقيقة أن قصائد أبى ماضى لا تعبر عن توقيت زمنى نضب فيه معين الشعر عند الشاعر ، بل إن مثل هذه الأشعار التى يذكر فيها تحطم قيثارته وانقطاع الوحى لم تكن إلا صدى لأزمات كثيراً ما اعترضت حياة الشاعر فى كل أدوار حياته ، وقد كان يتخذ منها حوافز لشحذ الهمة وتجديد العزيمة فهو هو القائل :

أثنان ما لاقيتُ أقسى منهما صمت الدجى والشاعر الحسّاس

لذلك ظل حياته يطالع الناس بالغالى من درره .

لكن هناك صفة أخرى غالبة على شعر أبى ماضى فى جميع مراحل عمره ألا هى ذلك الطابع الحزين حتى قال :

ألفتُ الهموم فلو أننى قدرت تمنَّعْتُ أن أطربا
كأن الجبال على كاهلى كأن سرورىَ أن أغضبا
وكيف ارتياح أخى غربةٍ يصاحب من همِّه عقربا

والبيت الأخير فيه مفتاح السر ، فحياته المضطربة وغربته كانا يورثانه حنيناً دائماً إلى وطنه ، إلى جانب ما كان يحسه من تغيُّر الناس والصديق والصديقة :

الأرض ... سوريّا أحبُّ ربوعها عندى ، ولبنانٌ أحبُّ جبالها
تشتاق عينى قبل يغمضها الردى لو أنها اكتحلت ولو برمالها

ولقد كان لأبى ماضى فلسفته فى الحياة التى انعكست على شعره ، فهو قد « خضع حيناً لحكم العقل ، ثم انتقض منطلقاً من إساره وحطم الأغلال ، وسار يستضىء بنور القلب ، وشرب من نبع الحقيقة الواقعية ، ثم مجّ طعم مائها ؛ وعاد يتغنى بالوهم الذى يزخرف الواقع ، وبعالم الرؤى الذى لا تستطيع كف أن تكبته أو تمحوه[1] » .

استمع إلى هذه المادية المغرقة التى صاحبت الطور الأول من فلسفته :

كل نجم لا اهتداء به لا أبالى لاحَ أو غربا
كل نهر لا ارتواء به لا أبالى سال أو نضبا
اسقنى الصهباء إن حضرت ثم صف لى الكأس والحَبَبا
ليس يروينى مقالك لى إنها العقيان منسكبا

---

(١) الشعر العربى فى المهجر للدكتورين إحسان عباس ومحمد يوسف نجم .

وهو يسخر من الروحانيات وممن ينصحه بالزهد فى قوله يصف نفسه وقد تخيلها فى ثوب زاهد :

فكأننى البستان جرّد نفسه من زهره المتنوّع المتضوّع
ليحسّ نور الشمس فى ذرّاته ويقابل النسمات غير مقنّع
فمشى عليه من الخريف سرادق كالليل خيّم فى المكان البلقع
وكأننى العصفور عرّى جسمه من ريشه المتناسق المتلمّع
ليخفّ محمله فخرّ إلى الثرى وسطا عليه النمل غير مروّع

وأحياناً نرى أبا ماضى يبلغ درجة التشاؤم فى شعره فيبسط — كما حدث فى قصيدة الشاعر والملك الجائر — سيطرة الموت على الطبيعة وعلى الغاب وعلى الصالح والطالح دون تمييز ، حتى يفقد الثقة فى الكفاح والطبيعة بعد أن يكون فى أحد أطوار فلسفته قد آمن بالطبيعة ، واطمأن إليها ، وهام بها .

وتصطبغ فلسفة أبى ماضى كشعره بالاضطراب والقلق الذى ينتهى به إلى نوع من التصوف ، وعود إلى استرواح الإيمان ، ومحاولة للتحليق فى سمائه :

روحى التى بالأمس كانت ترتعُ فى الغاب مثل الظبية القمراء
نظرتْ إليكِ فأصبحت لا تقنعُ بالماء والأفياء فى الغبراء
تصغى وتنصت والحمامةُ تسجعُ إصغاؤها لكِ ليس للورقاء

ولقد صفت نفسه ، وكانت المحبة أرقى العواطف الإنسانية الخالدة هى أصل هذا الصفاء وطريقه إلى معرفة الله :

قال قوم إن المحبة إثمٌ ويحَ بعض النفوس ... ما أغباها !
إن نفساً لم يشرق الحبُّ فيها هى نفسٌ لم تدرِ ما معناها
أنا بالحب قد وصلت إلى نفـ ـسى وبالحب قد عرفت اللهَ ...

وآراء أبي ماضى الفلسفية كثيراً ما كان يبسطها فى قصصه الشعرى الذى يمثل جانباً عظيماً من دواوينه ، وكان فى هذه القصص « يتحدث إلى الناس بالرمز الجماعى الذى يحسونه ، فصوّر لهم طابع حياتهم ، وجعل من تلك القصائد صوراً مألوفة محببة لا تمحى لأنها لم تكن إضافة تافهة للتراث الشعبى ، بل كانت تمثيلا صحيحاً لنفسية الجماعة صادراً عن مقدرة عظيمة لخلق الأسطورة وحظ كبير من الروح الدرامية[1] » والأمثلة على ذلك كثيرة جدًّا كقصيدته (الشاعر والملك الجائر) و (الأسطورة الأزلية) و (الناسكة) وغيرها .

وإنه ليستعين فى هذه القصص بكل وسائل الفن القصصى حتى المفاجأة والتشويق كما فعل فى قصيدة « هى » التى أمعن بطلها فى إخفاء اسم حبيبته عن الحاضرين ، فهم يسألونه وهو يجيب :

قال : أجلْ أشرب سرّ التى بالروح تفدينى وأفديها
صورتها بالقلب مطبوعة لا شىء حتى الموت يمحوها
لا تترضّانى رياء ولا تلثمنى كذباً وتمويها

فإذا ما ألحّوا عليه بالسؤال :

فأطرق غير مكترث وتمتم خاشعاً . . أمى !

وبعد فقد عاش أبو ماضى ينشد السعادة للناس ولا يرضى لهم العذاب والحزن حتى قال يوصى من تودعه :

أنا إنْ أغمضَ الحِمامُ جفونى ودَوَى صوت مصرعى فى المدينهْ
لا تصيحى واحسرتاه لئلا يدرك السامعون ما تضمرينهْ
وإذا زرتِنى وأبصرتِ وجهى قد محا الموت شكّه ويقينَهْ

---

(١) الشعر العربى فى المهجر .

لا تشقِّى علىَّ ثوبك حزناً لا ، ولا تذرفى الدموع السخينهْ
غالبى اليأس ، واجلسى عند نعشى بسكونٍ . . إنى أُحبُّ السكينه
وإذا الحارسان ناما عيــاء ورأيتِ أصحابه يتركونهْ
فتعــالى وقبِّــلى شــفتَيْهِ ويدَيْهِ وَشَــعْرَه وجَبينَــهْ
قبل أن يسدل الحجاب عليه ويوارى عنك فلا تبصرينه
وإذا الساعة الرهيبــة حانت ورأيتِ حراســــه يحملونه
وسمعت النــاقوس يقرع حزناً فيردُّ الوادى عليــه أنينَــهْ
زوِّد الراحل الذى مات وجداً بالذى زوّد الغريبُ السفينه
نظرة تعــلم السماوات منهــا أنه مات عن فتاةٍ أمينه
وإذا ما جلست وحدك فى الليــــل وهاجت بك الشجونُ الدفينه
فاهجرى المخدع الجميل وزورى ذلك القــبر ثم حيِّى قطينَــهْ
وانثرى الورد حوله وعليــه واغرسى عنــد قلبــه ياسمينه

أحمد شوقى

أمير الشعراء

مرحباً بالمقال سمحاً كريماً   لم يَشُبْهُ هجوٌ ولا إيذاء[1]

مرحباً بالمقال مقال شوقى . . . مرحباً بالقصيد العف والقول الكريم . . . مرحباً بالنفس الرضية والخلق العظيم . . !

إن شوقى هو ذلك الطير الفرد الذى غنّى فأطرب الوادى ، وأنشد فتردد نشيده فى الشرق كله وأطرب العروبة جمعاء ، فى مشارق الأرض ومغاربها مدى نصف قرن من الزمان .

ولد أحمد شوقى كما حدّث عن نفسه عام ١٨٦٨ فى القاهرة بباب إسماعيل فى أسرة تنعم بعيش رغد فى ظل حاكم البلاد ، وكان جده لأبيه قد أتى مهاجراً إلى مصر يحمل وصاة إلى واليها محمد على من أحمد باشا الجزار ، فعمل فى معية الوالى .

وقد أدخل شوقى مكتب الشيخ صالح عام ١٨٧٣ ، وتخرّج فى المدرسة الخديوية ، ودخل مدرسة الحقوق عام ١٨٨٣ فلبث فيها سنتين ، ثم دخل قسم الترجمة وتخرج منه بعد سنتين ، والتحق بمعية الخديو توفيق الذى أرسله إلى فرنسا سنة ١٨٨٧ لدراسة الآداب الفرنسية والحقوق فقضى عامين فى مونبلييه ، وعامين فى باريس ؛ وزار خلال هذه الفترة كثيراً من الأقاليم الفرنسية و إنجلترا والجزائر .

وفى عام ١٩١٥ نُفِى شوقى من مصر فاختار أسبانيا لإقامته حتى أذن له الملك فؤاد فى العودة فى نهاية عام ١٩١٩ .

عاد شوقى إلى مصر لا ليستأنف حياته فى قصر الملك ، ولا لينشد الشعر فى الأعياد والمناسبات ، بل عاد حرًا من كل قيد ليتحدث إلى الشعب ، و يتحدث

---

(١) اسماعيل باشا صبرى فى تقريظه للشوقيات

الشعب إليه . . . بل ليتحدث إلى العروبة بأجمعها ، ولتتجاوب فى حنايا نفسه آمال الشرق ومآسيه ، وليترجم عن هذه الآمال و يصور تلك المآسى .

وظل نجم شوقى يعلو منذ عودته من منفاه حتى بويع بإمارة الشعر عن حق وجدارة ، وظل إنتاجه يعظم ويحسن ، حتى وافاه أجله فى صباح ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢ .

عاصر شوقى فى حياته الثورة العرابية فى مصر ، وثورتها الوطنية عام ١٩١٩ ؛ كما شاهد الانقلاب العثمانى الأول الذى انتهى بخلع السلطان عبد الحميد ، ورأى الخلافة تزول فى النهاية عن تركيا وينهض على أنقاضها مصطفى كمال وجمهوريته ، كما شاهد انتفاض العرب خلال الحرب العظمى على دولة الخلافة ، وشاهد ممالك تزول ودولا تخلق ، وذاق آلام النفى .

ومن الظواهر المألوفة أن عصور الثورات وضعف الحكومات تشهد ازدهاراً فى الآداب والفنون ، وكأنى بالانحلال الأخلاقى الذى يسود تلك الفترات يلهب خيال الفنانين بما يكشف لهم من حقائق الحياة ونواحى الضعف فى النفس الإنسانية فى سهولة ووضوح .

ولقد تأثر شوقى بما شاهد وعانى واختبر فَسَمَا بشعره عن العرض الزائل إلى الجوهر الخالد ، واتسع أفقه فشمل مصر والشرق كله ، بل الإنسانية بأسرها ؛ فنرى كارثة باليابان تهز أوتار قلبه فيتردد صداها شعراً يجرى به لسانه .

ولعل من أبعد الحوادث الخاصة — إلى جانب العوامل العامة — أثراً فى حياة شوقى رحلته إلى فرنسا ومكثه فيها أربعة أعوام . تراه فى أول عهده منها قد عرف الهوى الرخيص الذى اشتهرت به فرنسا فهو يصف لنا ذلك الهوى الخاطف الذى تسببه نظرة فابتسامة فسلام يعقبها كلام وموعد ولقاء ، ثم نسيان سريع لكثرة المعجبين أو المحبين .

خدعوها بقولهم حسناء　　والغوانى يغرهن الثناء

أتراها تناست اسمى لما　　كثرت فى غرامها الأسماء

إن رأتنى تميل عنى كأن لم　　تكُ بينى وبينها أشياء

نظرة ، فابتسامة ، فسلام　　فكلام ، فموعد ، فلقاء

يوم كنا ، ولا تسل كيف كنا　　نتهادى من الهوى ما نشاء

ثم لا يلبث أن يلفحه الهوى بناره بعد ذلك ويصهر الحب روحه فتترك هذه الرحلة آثاراً لاتمحى فى قلبه وذكريات يرددها فى شعره ما بقى من أيام حياته وثورته حنيناً يعاوده بين الحين والحين .

فكتب شوقى عن الحب مترجماً عن شعور صادق وتجربة حية لا شك فيها . وما فى شوقياته من الغزل من خير ما قيل فى الحب ، لكنه بلغ أسمى المراتب من ذلك فى مسرحياته حتى حق لدىّ أن يلقب بنبيّ الحب كما جاء على لسانه فى وصف قيس :

نبيّ الحب لا تخشَ　　أذى أو شرّة منّا

عطفتَ الطيرَ والوحشا　　فلم لا تعطف الجِنّا ؟

ولقد كان شوقى شاعراً فناناً ، ولم يكن صاحب مذهب فلسفى ، ولم تخرج المعانى الفلسفية التى كانت ترد فى شعره عن معانٍ معادة وحقائق ثابتة كثر ترداها ؛ وكان شوقى فى ذكرها مقلداً للمتنبى وأضرابه من الشعراء المتقدمين :

أما شعر شوقى فلا شك فى إبداعه وسموّه وتفوّقه ، ففيه يجد القارئ تجاوباً فكريًّا وعاطفيًّا لما يجول بقلبه وعقله فى لغة سهلة جزلة لا تنبو عن الذوق أو السمع ، يسيرة على أفهام الناس ، مستساغة لدى الخاصة والعامة ؛ لكنها صعبة المحاكاة .

وشعر شوقى غنى بموسيقاه اللفظية ، وليس أدل على ذلك من هذا العدد العديد

من الأغانى التى يختارها الموسيقيون والمغنون لتصويرها بموسيقاهم وأدائها بأصواتهم ، ولا أظن أن شاعراً ممن سبقه ، قد ترنم بشعره مثل هـذا العدد من الناس فى المشرق والمغرب .

وقد عيب على شوقى التقليد والإحالة ، ولا بد من بعض الضعف فى أعمال كل عظيم ؛ لـكن هذه الحالات القليلة التى تمسك بها بعض النقاد لا تنال من مكانة شوقى إذا قورنت بالتراث الضخم الذى خلفه للعروبة .

كما عيب عليه شعره فى المدح لأنه لم يسمُ به عن مدح السلاطين والأمراء حتى قيل إنه شاعر الأمراء لا أمير الشعراء . ولو نظرنا إلى مدائح شوقى جملة لاستوقف انتباهنا أمران : أولهما أنه لم يؤله ممدوحيه ولم يقل بأنهم خوارق أو شواذ ليسوا من طينة البشر كما فعل بعض كتاب الشرق والغرب[1] .

لا يقولن امرؤ أصلى فما أصله مسكٌ وأصل الناس طين

وثانيهما أن هذه المدائح صور واستعارات شعرية لا عقيدة سياسية ، لأنه إذا غير اسم الممدوح لم يغير ما يرمى إليه من القصيدة ، فأنت ترى دائماً أن اسم الممدوح لم يخرج عن كونه الروى فى الشعر الذى لا يزيد أو ينقص من قيمة الشعر ولا من مبلغ مرماه الاجتماعى . والقصيدة بعد ذلك نصح للمدوح وإرشاد . . . وماذا يهم اسم الممدوح وإذا كان شوقى يقول له :

والعدل فى الدولات أسٌّ ثابت يفنى الزمان وينفذ الأجيالا

وكان شوقى يتأثر بحوادث عصره فيحسن تصويرها فى شعره ، ويبذل النصح لقومه . . . فهو يرى عواقب الاختلاف الوخيمة ، ويرى ما يكيد به الساسة بعضهم بعضاً فيبذل النصح قائلا :

---

(١) شوقى لأنطون الجميل .

إلامَ الخُلْفُ بينكمو إلامَا وهذى الضجة الكبرى عَلَاما ؟
وفيم يكيد بعضكمُ لبعضٍ وتبدون العداوةَ والخصاما ؟

وفى قصيدة (سلوا قلبى) يجمل أدواء قومه ووطنه ، و يوضح سبل الخلاص ، ولعل أبرز ما فيها حضه على البذل وتحذيره من ضن الأغنياء على الفقراء :

ولولا البخل لم يهلك فريقٌ على الأقدار تلقاهم غِضابا
تعبت بأهله لوماً وقبلى دعاة البر قد سئموا الخطابا
ألم ترَ للهواء جرى فأفضى إلى الأكواخ واخترق القبابا
وسوّى الله بينكم المنايا ووسّدكم مع الرُّسْلِ الترابا
أ كلٌّ فى كتاب الله إلا زكاة المال ليست فيه بابا ! ؟

لكن حذار فإن الكرب إذا اشتد بهؤلاء البؤساء ثاروا وصاروا ذئاباً ضارية :

ولا كأولئك البؤساء شاءً إذا جوّعتها انتشرت ذئابا
ولولا البر لم يبعث رسول ولم يحمل إلى قوم كتابا

والشرق يمتاز بروحانيته وهى طابعه الفذ الذى عرف به فى العالم منذ بدء المدنية ، وهذه الروحانية تتمثل أحسن تمثيل فى حياته الدينية التى تسيطر على وجوده إلى حد بعيد ، وتكيف اتجاهاته فى كثير من الأحايين ، وتسبب له من المشكلات الجم الغفير . و إذا كان هذا شأن الدين فى حياة الشرق ، فلا شك أنه وجد مكانته وأثره فى حياة شوقى ، فها هو يعتز بدينه فى قوله :

آياته كلما طال المدى جُددٌ يزينهن جلال العِتْق والقِدَمِ
يكاد فى لفظة منه مشرّفة يوصيك بالحق والتقوى و بالرحمِ
يا أحمد الخير لى جاهٌ بتسميتى وكيف لا يتسامى بالرسول سَمِى

ومع هذا الاعتزاز بالإسلام فإنا نرى الشاعر لم يؤذِ أحداً فى دينه ، بل كان

شعره سمحاً كريماً دائماً ؛ حتى إن أدباء المسيحيين والإسرائيليين يتغنون بشعره الإسلامى ويطربون له طرب المسلمين أنفسهم .

ثم هو يحترم العقائد جميعاً ويجل الأديان وكتبها ، وله فى كل هذا حكمة بالغة هى :

الدين لله من شاء الإله هدى ... لكل نفس هوى فى الدين يعنيها
ما كان مختلف الأديان داعيةً ... إلى اختلاف البرايا أو تعاديها
الكتب والرسل والأديان قاطبة ... خزائن الحكمة الكبرى لواعيها
محبة الله أصلٌ فى مراشدها ... وخشية الله أسٌّ فى مبانيها
وكل خير يلقّى فى أوامرها ... وكل شر يوقّى فى نواهيها
تسامح النفس معنى من مروءتها ... بل المروءه فى أسمى معانيها

وشوقى الشاعر يعتبر من دعائم المسرح العربى إذ أنه بحق أول من قدّم المسرحية المؤلفة الكاملة لهذا المسرح الجديد على عالمنا العربى .

ولقد سبقت شوقى عدة محاولات لإنشاء المسرحية الشعرية لكنها كانت عرجاء غير كاملة ولا ناجحة . . (كنزهة الأدب فى شجاعة العرب) التى ألفها طالب أزهرى عام ١٨٧٢ فى خليط من النظم الفصيح والمواويل الركيكة .

وقبل شوقى كانت الأغلبية الساحقة مما يقدم على المسرح روايات مترجمة أو مقتبسة ؛ الأمر الذى لا يستقيم معه وجود مسرح عربى .

ولم يكن شوقى فيما كتب يعمل لسد نقص فى بيئته فحسب ، بل كان يكتب للخلود . وإنى ليأخذنى العجب كلما طالعت مسرحيته « مصرع كليوباترة » فأسائل نفسى أكان شوقى يصف مصر فى عهد كليوباترة أم هو يصف الشعب فيما حوله .. أم هو يصف جموع الشعب فى أى مكان تجمعت من العالم . . . ! ؟ استمع إلى قول « حابى » مخاطباً صديقه :

اسمع الشعب ديون كيف يوحون إليهِ
ملأ الجو هتافا بحيـاتَىْ قاتلَيْـهِ
أثَّر البهتان فيـه وانطلى الزور عليـه
يا له من ببّغاء عقله فى أذنيـه

لـكن هذه هى سمة الخلود التى تطبع أعمال العباقرة لأنهم حين يصورون فإنهم يصورون تلك الخصائص الباقية التى لا تختلف باختلاف الزمان أو المـكان .

والحب تلك العاطفة الأبدية التى تشترك فيها الإنسانية جمعاء ، ولم تخل منه قصة ، بل كثيراً ما يقحم على القصة إقحاماً إرضاء للجماهير ؛ نجد أن شوقيًّا قد أفرد له مسرحية كاملة لا شىء فيها سواه .

ذهب شوقى فى (مجنون ليلى) يصور لنا الحب فى أسمى مراتبه وأعلى معانيه حتى بلغ فى ذلك ما لم يبلغه شاعر من قبله .

تأمل معى هذه الأبيات يترنم بهـا قيس وهو يسرى وحده فى الفلاة فى هدأة الليل وسكونه :

سَجَا الليلُ حتى هاج لى الشعرَ والهوى وما البيدُ إلا الليلُ والشعرُ والحبُّ
ملأتَ سماء البيد عشقاً وأرضَها وحُمِّلتُ وحدى ذلك العشقَ يا ربُّ
ألمَّ على أبيات ليلى بىَ الهوى وما غيرَ أشواقى دليلٌ ولا رَكْبُ
وباتت خيامى خُطوةً من خيامها فلم يشفنى منها جوارٌ ولا قُربُ
إذا طاف قلبى حولها جُنَّ شوقُه كذلك يطغى الغلةَ المنهلُ العذب
يحنُّ إذا شطَّت ويصبو إذا دَنَت فيا ويح قلبى كم يحنُّ وكم يصبو !

لقد جعل دليل قيس إلى بيت ليلى ذلك الشوق المتقد فى صدره ، وجعل قربها يزيد فى وجده ويطغى من شوقه . . . أترى هناك وصفاً أبلغ من هذا للحب الصادق ! ؟ أم ترى هذا القول من جيد الصنعة اللفظية كما زعم بعض النقاد ؟ !

ولنصغ إلى ليلى تناجى قيساً وقد التقيا فى غربة :

أحقٌ حبيب القلب أنت بجانبى   أحلمٌ سرى أم نحن منتبهانِ ؟
أبعد تراب المهد من أرض عامرٍ   بأرض ثقيف نحن مغتربانِ ؟

فينبهها قيس فى رفق وحنان إلى أن وطن المحبين هو حيث يجتمعان :

حنانيك ليلى ما لخلٍّ وخلِّه   من الأرض إلا حيث يجتمعانِ
فـكل بلاد قرَّبت منكِ منزلى   وكل مكان أنتِ فيه مكانى

وفى المسرحية حديث عن كل ألوان الحب . . . ولعل من أروع ما قرأت فى التعبير عن حب الآباء وعاطفة الأبوة التى يعجز اللسان عن التعبير عنها هذا البيت يجريه شوقى على لسان المهدى أبى ليلى وقد بهت الشيخ إذ يتهم فى حبه لابنته فيقول مستنكراً الاتهام مستشهداً بفيض الحنان الأبوى :

أأظلم ليلى ؟ معاذَ الحنان   متى جار شيخٌ على طفلةٍ ؟

وهكذا نرى شوقى لم يكتب مسرحيات ثمانىَ فحسب ، بل كتب فأجاد فترك آثاراً خالدة فى الأدب العربى ، ووجّه التأليف المسرحى فى مصر إلى الوجهة القومية ، وشجّع كبار الأدباء والشعراء على متابعة الطريق .

ولم يكن فضل شوقى على الأغانى العربية بأقل من فضله على المسرح العربى ، وهو لم يقتصر على تقديم الأغانى لنا من النظم الفصيح بل لقد قاد ثورة مباركة فى دنيا الأغانى الشعبية التى كانت تعانى اضمحلالا وانحطاطاً مريعاً فهى لا تخرج على ترديد آهات وليالى ، ولا تحوى إلا المبتذل من المعانى والسقيم من الصور والخيالات ؛ فقفز بها شوقى إلى الأمام سريعاً ، وخرج على الناس بأغانى تعبر تعبيراً راقياً عن معانى سامية وشعور فياض ، وتفصح عن خلجات الفؤاد فى أحسن أسلوب وأقوم تصوير . ولنأخذ مثلا هذا الموّال :

فى الليل لما خِلِى إلا من الباكى

والنُّوح على الدُّوح   حِلِى للصارخ الشاكى
ونجمَهْ مالت ونجْمَهْ   حلفت ما تتّاخر
والنوم يا ليل نعمه   يحلم بهـا الساهر
الفجر شقشق وفاض   على سـواد الخميله
لَمَحْ كلَمْحِ البياض   من العيون الـكحيلة
والليل سرح فى الرياض   أدهم بغُرَّة جميلة

تأمل هذا التصوير البارع لبزوغ نور الفجر فى الليل البهيم مشبهاً إياه بلمح بياض العين السوداء و بالجواد الأسود ذى الغرة البيضاء . . . لا شك أنه لم تجد أغنية مصرية شعبية قبل هذه الأغنية ولا بعدها مثل هذا التصوير الفنى البديع .

وهو إذا عتب بلغ منتهى الرقة مع السموّ عن الابتذال الرخيص :

ليـه تشتهى النـوم عيونْ   وعيون سَـوَاهِى هواجعْ ؟
ودوح غرق فى الشـجون   ودوح ما داقش المواجـع ؟

وفى أغنية « بلبل على الغصون » يصف شوقى الورد فيبلغ فى وصفه منتهى الإبداع والرقة مستعيناً فى ذلك بتشبيهات مبتكرة نادرة ، لـكنها بالغة الروعة والرقة .

يا ريحة الحبايب يا خدّ الملاحْ   لشوكة جمالك وضعت السـلاحْ
تبارك اللى خَلَقْ ظلك من الخفّة   واللى كساك الورق ولفُّه دى اللفّه
زى القبَـل ولفّت شِفّه على شفّه

رحم الله شوقى وعوض العروبة عنه خيراً .

من طين مصر تماً ومن أنفاسها والأرض لا تنمى الشعور ذميا

كالأنبياء يفيض من إيمانه باللفظ شهداً والبيان شميا

صافى الفؤاد فليس ينبض مرة إلا صفياً للنفوس حميا

بهذه الأبيات من الشعر وصف الدكتور أبو شادى حافظاً (رحمهما الله) فأجاد الوصف وأبدع التصوير ، لأن حافظاً كان بضعة من مصر ، وقطعة من طينها ، عاش مخلصاً لهايصور خلجاتها وما ينتابها من خطوب ، وكان أصدق مصور لماوقع فى حياته من أحداث وللبيئة التى عاش فيها والمجتمع الذى أقام فيه متأثراً به ومؤثراً فيه .

« كالأنبياء يفيض عن إيمانه » وكذلك كل فنان ملهم يحس إحساساً قوياً بما تقع عليه حواسه وتتفاعل فى قلبه خبراته وتجار به فيحاول الإفصاح عنها وتقديمها للناس بأسلوبه الخاص وأداته المفضلة .

أما صفاء الفؤاد فيكفينا الدليل عليه وعلى إخلاصه تلك القصة التى يرويها الشاعر مطران عن رحلة فى إحدى قرى لبنان مع حافظ حيث اعترض طريقهما زحام شديد ، واتفق أن عرف أحد الشبان مطراناً فأخبره مطران عن وجود حافظ معه ، ورجاه أن يفسح لهما طريقاً . واستعان الشاب بشيخ أبيض اللحية طويلها ما كاد يعرف وجود حافظ حتى تفرّس فى وجهه ، ثم قال لصاحبه : « الحمد لله أننى رأيته قبل مماتى » . فوقعت هذه الكلمات فى قلب حافظ موقعاً عظيما حتى أن وجهه أخضل على سمرته بالدموع المتساقطة من عينيه ثم قال لمطران : « اليوم كوفئت أجلّ مكافأة عن خدمة أديتها لقوم كرام .

ولد محمد حافظ إبراهيم عام ١٨٧١ فى ديروط بمديرية أسيوط ، ونشأ فى القاهرة وبعد أن جاز التعليم الابتدائى وطرفاً من التعليم الثانوى التحق بالمدرسة الحربية وتخرج

ضابطاً فى الجيش المصرى ، حيث أرسل إلى السودان ليمكث بضع سنوات ، ويشترك عام ١٨٩٩ فى ثورة ، فيغضب عليه المستعمر ، و يطرد من السودان .

ثم يلتحق بعد ذلك بالبوليس فى أرياف مصر ، لـكن تلحقه الغضبة فى البوليس ليخرج إلى الاستيداع ؛ ويحال إلى التقاعد وهو فى رتبة اليوزباشى .

يعود بعد ذلك ببضع سنين فيلتحق بدار الـكتب المصرية فى وظيفة رئيس القسم الأدبى بها ، ثم وكيلا للدار حيث يظل فى هذا المنصب إلى أن يخرج منه فى الستين قبل وفاته ببضعة أشهر فى فجر ٢١ يوليو سنة ١٩٣٢ .

أما أبو حافظ فـكان من ضباط البوليس ، ولست أدرى مدى تأثير هذا الوالد فى حياة ابنه غير أن من المحقق أنه لم يكن بذى ثروة . وقد مات وترك حافظاً غلاماً يافعاً ، فـكفله خاله ؛ ولم يكن أيضاً بالرجل الموسر ، فضاق بحافظ لبطالته وعدم سلوكه حياة منظمة ؛ وأحست نفس الشاعر بملل الخال ، فقال معبراً عن آلامه وحسه المرهف الذى أوذى :

ثقلت عليك مؤونتى إنى أراها واهيــه

فافرح فإنى ذاهب متوجــه فى داهيــه

وكانت المدرسة الحربية هى الوسيلة للتخفيف من أعباء خاله ، ولاختصار الطريق إلى الحياة وكسب العيش .

فلما تخرج سار فى حملة استرجاع السودان ، وعاش هناك سنوات قلائل شعر خلالها بوطأة الاحتلال ، وكأنه نجا من خاله ليلاقى عنت المغتصبين واستعباد المحتلين إلى جانب قلة ماله — ومن كان فى كرم حافظ لا يكفيه راتبه — فلم يشعر بتغير فى حياته ولا تقدم فى معايشه ، فخيل إليه أنه حليف بؤس وشقاء ، وأنه ضحية للظروف التى حرمته الأب ، وحرمته المـال الذى يستطيع معه أن يفرغ لأدبه وشعره وما خلق له .

ولقد اصطلحت عليه بعد عودته من السودان الأحداث والمضايقات حتى اضطر حيالها أن يلتمس إحالته على المعاش و يبقى فى مصر بلا عمل .

هذه الأعوام التى عانى فيها حافظ آلام الحرمان وتقلب الحال وصروف الدهر هى أخصب سنى حياته إنتاجا ، لكنه عندما التحق فى سن الأربعين بالعمل فى دار الكتب أخلد إلى الراحة ، وآثر العافية والبعد عن السياسة ، وكبت ثورة نفسه فقلّ إنتاجه ، وأصبح شعره لا يسمع إلا فى المناسبات ، كرثاء من مات ، واستقبال من قدم ، وهو شعر يعتريه الفتور ، وتضعف فيه الحيوية ، و يغلب عليه الحرص على الوظيفة ومورد الرزق .

لا عجب — بعد كل ما قدمنا من ملابسات حياة حافظ — أن رأيناه متشائماً موغلا فى التشاؤم ، حتى قال يوماً : « لست أطمع فى أن تطول حياتى ، وددت لو لقيت الموت الآن . . . وإنى لأعجب من دلفه إلىّ ببطء كأنما أدركته الشيخوخة على توالى الأجيال فما يستطيع أن يسرع الخطى ليشفى نفساً سئمت العيش و برمت الحياة . . . وماذا أبغى من حياة ضاعت الحقيقة فيها ، واستوى فيها المحسن والمسىء ، وهضم الغنى حق الفقير ، وشابت الفضيلة وترعرعت الرذيلة . . ! ؟ وما أنا وحياة تخاذلت فيها الهمم وفسدت الذمم ؟ »

وإنه ليعبر عن هذا الشعور شعراً فى قوله :

آذنت شمس حياتى بمغيبِ ودنا المنهل يا نفسُ فطيبى
وارقبيه كل يوم إنمـا نحن فى قبضة علّام الغيوبِ
اذكرى الموت لدى النوم ، ولا تغفلى ذكْرتَهُ عنـد الهبوبِ
حنّ جنباى إلى برد الثرى حيث أنسى من عدو وحبيب
مضـجع لا يشتـكى صـاحبه شدة الدهر ولا شد الخطوب
لا ، ولا يسئمه ذاك الذى يسِمُ الأحياء من عيش رتيب

ولم تكن الأحداث العامة بأقل أثراً من الأحداث الخاصة فى توجيه حافظ هذه الوجهة القاتمة . فهو قد عاصر الاحتلال منذ وطئت قدماه أرض وادى النيل وشاهد الانقلاب العثمانى والحرب العظمى والثورة المصريه والكمالية والعربية ، ورأى عن قرب العروش تهوى ، والنظم الاجتماعية تزلزل ، وكل قيم الحياة تتغير ، وكل ما يبعث بالشك إلى النفوس وسوء الظن إلى القلوب .

وهو لم يرض يوماً عن حال بلاده وما آلت إليه على أيدى المستعمرين من سوء حال وضعف أخلاق ، وله فى ذلك شعر كثير كقوله :

وهل فى مصر مفخرة   سوى الألقابِ والرُّتَبِ
وذى إرثٍ يكاثرنا   بمالٍ غير مكتسبِ
وماذا فى مدارسكم   من التعليم والكتبِ
وماذا فى صحائفكم   سوى التمويه والكذب

ومما يسترعى النظر فى ديوان حافظ أنه قليل البحث فى التاريخ ، ولا يرجع ذلك إلى قصور فى شاعريته ، إنما إلى نقص فى علمه بحوادث التاريخ و بواعثها لأنه حينما كتب عمريته المشهورة كان يحلق فى سماء صافية من صفحات التاريخ ، و يجتلى فيها بعض الدرر الغوالى .

لكن مما حبب حافظاً إلى النفوس أنه صور ما لمس بيده وما أحاط به عن قرب ... إنى أرى فى ديوانه صور أناس أخالطهم كل يوم ، وأسمع آلامهم ، وأعرف أخبارهم ؛ وحافظ كان لسانهم المدافع عنهم .

وقد ساعدته عاطفته الجياشة وشعوره الرقيق على إجادة هذه الصور حتى غدا شاعر العروبه وشعره سجل الأحداث المعاصرة له .

و إلى جانب هذه الحساسية المتناهية كان حافظ ضليعاً فى علوم اللغة مما ساعده على تقديم صوره الشعرية فى أطر من اللغة بالغة القوة والإبداع ؛ حتى لقد قال عنه

مطران : « يتعب فى قرض قريضه تعب النحات الماهر فى استخراج تمثال جميل من حجره ؛ يؤثر الجزالة على الرقة ، وله فيها آيات » .

وقد كان له نصيب من (حس الطبيعة) وهو اهتزاز نفس الشاعر من مشاهد الطبيعة ، وما يحدثه هذا الاهتزاز من تجاوب مع قلب الشاعر وروحه فيتردد صداه فى شعره روحاً يضفيها على هذه المشاهد ، فتتحرك بالحياة ، وتنبض بالروح ، وتتحرر من جمودها ...

تأمل هذين البيتين :

ولوشئتُ أذهلتُ النجوم عن السُّرَى وعطّلْتُ أفلاكا بهنّ تدورُ

وأشعلتُ جلدَ الليل منى بزفرة غرامية منها الشرار يطيرُ

تحس بأن النجوم والليل كائنات حية ، ولليل جلد يأذى ويحس كجلد الشاعر نفسه .

ولم تقتصر شاعرية حافظ على الطبيعة واجتلاء صورها ، بل كان له فى فنون الشعر جولات موفقة ، وكان فى كل ناحية من القول يعبر عن شعور صادق و إحساس عميق ، فتراه حين يمدح صادقاً فى مدحه معبراً عن شعوره العميق بفضل الممدوح واستحقاقه للثناء ... تأمل معى قليلا هذين البيتين :

بكِّرا صاحبىَّ يوم الإيابِ وقِفاً بى بعين شمس قِفاً بى

إننى والذى يرى ما بنفسى لمشوقٌ لظل تلك الرحابِ

ألا تحس مع الشاعر بتلك الفرحة الغامرة التى فاضت على مشاعره ، وكأنى به يود لو يطير إلى منزل الإمام محمد عبده فيلقاه ساعة عودته و يحظى برؤيته لحظة أو بته ، فلا تضيع من هذه الفرصة دقيقة .

وهو يقول عن الإمام فى قصيدة أخرى :

كأن فؤادى إبرة قد تمغطَسَتْ بحبك أنّى حُرِّفَتْ عنك تعطفُ

كأن يراعى فى مديحك ساجدٌ   مدامعه من خشية الله تذرفُ

ولم يكن لهذا القلب الكبير الذى يفيض إخلاصاً لأصدقائه أن يضيق بحب بلاده كلها ويتغنى بهذا الحب فى أشعاره حتى أصبح « شاعر النيل » والوطنية غير منازع ، بل إن قلب حافظ قد وسع أمته بل العروبة جمعاء فصار لها ترجمان صدق ولسان دفاع . . . بلادها جميعاً وطن له :

لمصر أم لربوع الشام تنتسبُ   هنا العلا وهناك المجدُ والحسبُ
ركنان للشرق لا زالت ربوعهما   قلب الهلال عليها خافقٌ يجِبُ
خدران للضاد لم تهتك ستورهما   ولا تحوَّل عن مغناهما الأدبُ
إذا ألمَّت بوادى النيل نازلةٌ   باتت لها راسيات الشام تضطرب
وإن دعا فى ثرى الأهرام ذو ألم   أجابه فى ذُرى لبنان منتحبُ
لو أخلص النيل والأردن ودَّهما   تصافحت فيهما الأمواهُ والعشبُ
هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم   فصافحوها تصافح نفسها العربُ
فما الكنانة إلا الشام عاجَ على   ربوعها من بنيها سادةٌ نُجُبُ
إن يكتبوا لىَ ذنباً فى مودتهم   فإنما الفخر فى الذنب الذى كتبوا

والشعر السياسى يمثل أهم أجزاء ديوان حافظ ، وقد كان حافظ داعية إلى الجهاد يهز قلوب مواطنيه بأشعاره الحماسية التى تفيض قوة ورجولة ووطنية فهو يقول :

حوِّلوا النيل ، واحجبوا الضوء عنا   واطمسوا النجمَ ، واحرمونا النسيما
واملأُوا البحر إنْ أردتم سفيناً   واملأُوا الجو إنْ أردتم رجوما
إننا لن نحول عن عهد مصرٍ   أو ترونا فى الترب عظماً رميما

فإذا ما وقعت حادثة دنشواى التى خرج فيها القرويون يذودون عن أرواحهم

وأموالهم ، فاستكبر المستعمر ذلك ، لا سيما وقد مات أحد رجاله من ضربة الشمس ، فأخذ ينكل بالأبرياء والمساكين . . . كان حافظ أول شاعر سجل المأساة فقال يخاطب الغاصبين :

وإذا أعوزتكم ذات طوق بين تلك الربى فصيدوا العبادا
إنما نحن والحمام سواء لم تغادر أطواقنا الأجيادا
لا تقيدوا من أمة بقتيل صادت الشمس نفسه حين صادا

ثم هو يذكر التمثيل بمن أعدموا أو جلدوا فى تلك المهزلة على أيدى الإنجليز ، ويذكر هؤلاء بسوء ما فعلوا :

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو أقصاصاً أردتمُ أم كياداً ؟
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو أنفوساً أصبتم أم جماداً ؟
ليت شعرى أتلك محكمة التفتيش عادت أم عهد نيرون عادا ؟

وما كان لمأساة مثل دنشواى أن تنسى سريعا ، وما كان لحافظ ولا لشعب مصر أن ينسى ذلك الظلم والوحشية والتنكيل الذى حل بمواطنين أبرياء بصورة تبرأ منها الإنسانية وتنكرها المدنية ، فنرى حافظاً يصور قسوة الأحكام فى قصيدة أخرى :

جُلدوا ولو منّيتهم لتعلّقوا بحبال من شنقوا ولم يتهيبوا
شُنِقوا ولو منحوا الخيار لأهّلوا بلظى سياط الجالدين ورحّبوا
يتحاسدون على الممات وكأسه بين الشفاه وطعمه لايعذبُ

ولا ينسى حافظ وهو يودع كرومر دنشواى ، ولا وهو يستقبل المندوب الجديد خليفة كرومر بقصيدة أخرى من عيون الشعر يتمنى فيها أن يكون على يديه حوادث كدنشواى التى أيقظت المشاعر الوطنية .

وفى نفس القصيدة عرض سريع لبعض مظاهر المجتمع الجديد فى ظل الاحتلال :

بنات الشعر إن هى أسعدتنى　　شكوتُ من العميدِ إلى العميدِ
قتيل الشمس أورثنا حياة　　وأيقظ هاجعَ القوم الرقودِ
فليت كروماً قد دام فينا　　يطوِّق بالسلاسل كلَّ جيدِ
ويتحف مصر آناً بعد آنٍ　　بمجلودٍ ومقتولٍ شهيدِ
لننزع هذه الأكفان عنا　　ونبعث فى العوالم من جديد
وفى الشورى بنا داء عهيد　　قد استعصى على الطب العهيدِ
شيوخ كلما همَّت بأمر　　زأرتم دونه زأر الأسود
لِحًى بيضاء يوم الرأى هانت　　على حُمر الملابس والخدود

وهو فى شعره السياسى لا يقتصر على مصر ، بل هو دائماً يقصد العروبة كلها ويتحدث إلى العرب فى كل مكان ... فاستمع إلى هذا النداء يوجهه إلى الشرق العربى بمناسبة مأساة طرابلس :

طمع ألقى عن الغرب اللثاما　　فاستفقْ يا شرق ، واحذر أن تناما
واحملى أيتها الشمس إلى　　كل من يسكن فى الشرق السلاما
واشهدى يوم التنادى أننا　　فى سبيل الحق قد مِتْنا كراما
مادت الأرض بنا حين انتشت　　من دم القتلى حلالًا وحراما

وهناك لون آخر من الشعر أجاد فيه حافظ ، بل هو من أجود شعره ؛ ذلك هو الرثاء ، ولعل ذلك مرجعه لروح التشاؤم التى كانت تلازمه ، ولهذا الشقاء الذى كان يتخيله ، ولما كان يحسه من ظلم الزمان له ، حتى أجاد التوجع والتألم والشكوى .

فإذا رثى حافظ فهو يتحدث عن المرثى وصلته الشخصية به وفجيعته فيه ، وترى القصيدة تسرى فيها لوعة الحزن الشخصى وروعة الوفاء ، و يبرز فى القصيدة صورة الفقيد وأعماله وخلاله .

فرثاء حافظ من النوع الإنسانى البسيط ، يختلف قوة وضعفاً حسب مكانة المرثى فى حياة الشاعر أو فى الحياة العامة ، وهو بكاء من الشاعر لنفسه ولذكرياته وأصدقائه الراحلين لا تكلف فيه ولاتصنع . . . فلا فلسفة هناك ، ولا محاولة للتفلسف ؛ إنما إرسال للنفس على سجيتها فى الحزن وتصوير لهول المصاب .

فأنت إذا قرأت رثاء حافظ للشيخ محمد عبده خرجت بصورة لمواقفه وأعماله وآثاره ، ثم لفجيعة العلم والدين فيه ، ثم لهذا الأسى واللوعة التى تغمر نفس حافظ لفقده وفقد منزله فى عين شمس الذى أظله كثيراً .

سلام على الإسـلام بعد محمّدٍ ... سـلام على أيّامه النَّضِرَاتِ
على الدين والدنيا ، على العلم والحِجَا ... على البرّ والتقوى ، على الحسناتِ
لقد كنت أخشى عادىَ الموت قبله ... فأصبحت أخشى أن تطول حياتى
فوالهفى — والقبر بينى و بينه — ... على نظرة من تِلْكُمُ النظراتِ
وقفتُ عليه حاسر الرأس خاشعاً ... كأنى حيـال القبر فى عَرَفاتِ
تباركتَ هـذا الدين دين محمد ... أيُترك فى الدنيا بغير حُمـاة ؟
تباركتَ هذا عالِمُ الشرق قد قضى ... ولانت قناة الدين للغَمَزَاتِ
بكى عالَمُ الإسلام عالِمَ عصره ... سراجَ الدياجى هادمَ الشُّبُهاتِ
بكينا على فرد وإن بكائنا ... على أنفُس لله منقطعاتِ
تعهّدها فضل الإمام وحاطها ... بإحسانه والدهر غير مواتى
فيامنزلا فى عين شمس أظلنى ... وأرغم حسّادى وغمّ عِداتى
عليك سـلام الله مالك موحشاً ... عَبُوس المغانى مقفر العَرَصَاتِ

وكذلك جميع مراثيه فهو إذ يرثى مصطفى كامل يصور حزنه وحزن مصر رجالها ونساءها على الفقيد مع تصوير أعمال بطولته :

نثروا عليك نوادىَ الأزهارِ وأتيت أنثر بينهم أشعارى
غادرتنا والحادثات بمرصد والعيش عيش مذلة وإسار
عزّ القرار علىّ ليلة نعيه وشهدت موكبه فقرّ قرارى
شاهدتُ يوم الحشر يوم وفاته وعلمتُ منه مراتب الأقدار
تسعون ألفاً حول نعشك خشّعٌ يمشون تحت لوائك السيّار
خطّوا بأدمعهم على وجه الثرى للحزن أسطاراً على أسطار
كم ذات خدر يوم طاف بك الردى هتكت عليك حرائر الأستار

وفى ختام هذا الحديث عن حافظ لا بد من ذكر شيء عن فكاهاته التى وهبها الله له ليضحك من بؤسه ويتهكم بشقائه ، وهى طبيعة المصرى الصميم ومزاجه الذى يظهر المرح ويكتم الألم والحزن ، بل يتخذ من مرحه الظاهرى الممزوج بالفكاهة وسيلة للتنفيس عن شقائه ، ومنفذاً للترويح عن آلامه .

وقد أضافت هذه الروح فناً مستحباً لفنون حافظ فى الشعر يظهر أكثر ما يظهر فى شعره الذى يداعب به إخوانه ويشكو إليهم فيه زمانه .

فقد كتب إلى جار له يوم زفافه يستهديه طعاماً :

أحامدُ كيف تنسانى وبينى وبينك يا أخى صلة الجوارِ
أيشبع مصطفى الخولى وأمسى أعالج جوعتى فى كسر دارى
وبيتى فارغ لا شيء فيه سواى ، وأننى فى البيت عارِ
ومالى جزمة سوداء حتى أوافيكم على قرب المزارِ
فإن لم تبعثنّ إلىّ حالا بمائدة على متن البخارِ

تغطيها من الحلوى صنوف ومن حَمَلٍ تتبّل بالبهارِ
فإنى شاعر يخشى لسانى وسوف أريك عاقبة احتقارى

وقد صور حافظ الكثير من الأمثال العامية والتعابير المصرية فى شعره الفكه كقوله فى حفلة تكريم حفنى ناصف :

لولا الحياء ولولا دينى وعقلى وسنى
لقُمت فى يوم حفنى أدعو لسكرة ينّى
لا تنس عيشاً تولَّى ما بين شرح ومَتنِ
وذقت من (جاء زيد) ومن شروح الشمنّى
أيام (سلطان) يلهو (بمشّه) ويغنى
يشكو إليك وتشكو إليه عيشة غبن

هذا هو حافظ ، و . . .

هذى مناقبه فى عهد دولته للشاهدين وللأعقاب أحكيها

فهرس

	صفحة
مقدمة الناشر	٥
شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة	
القصص فى ديوان ابن أبي ربيعة	١٢
جميل بن معمر	١٨
كثير	٢٥
بشار	٣١
العباس بن الأحنف	٣٨
ابن الرومى	٤٦
الشريف الرضى	٥٧
المتنبى	٧٠
ابن زيدون	٨٠
ولادة بنت المستكفى	٩١
ابن زمرك ، شاعر ملك	٩٦
جميل صدقى الزهاوى	١٠٣
معروف الرصافى	١١١
أبو القاسم الشابى	١١٨
مصطفى صادق الرافعى	١٢٦
عبد الحميد الديب	١٣١
الآنسة « مى »	١٣٩
إبراهيم ناجى	١٤٤
أبو شادى = أحمد زكى	١٥٤
إيليا أبو ماضى	١٦٦
أحمد شوقى	١٧٧
حافظ إبراهيم	١٨٦